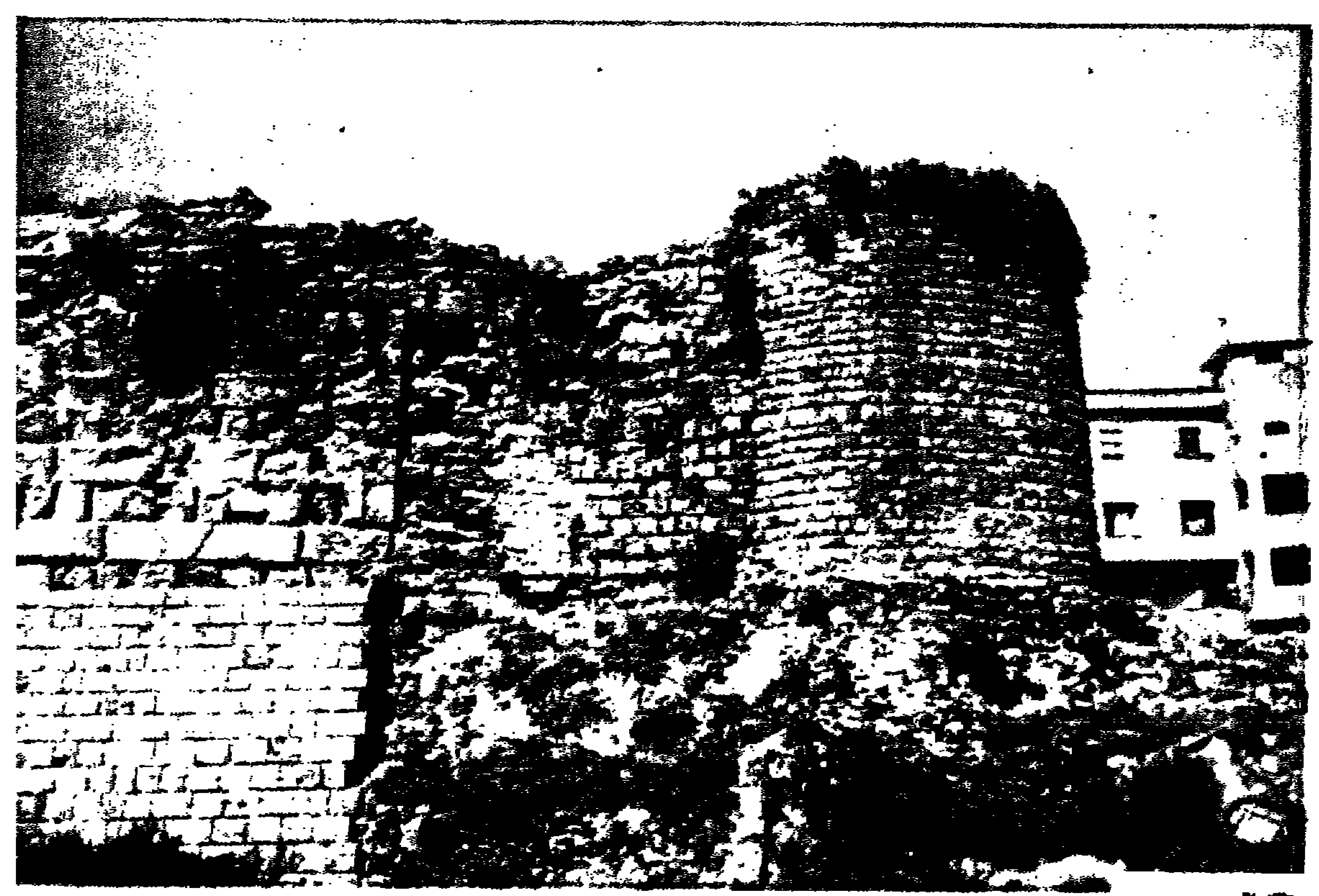
تاريخ مدينة صيدا

في العصر الإسلامي



السيد عبد العزيز سالم
...الإسلامي والحضارة الإسلامية
- جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٤٩٣٩٤٧٢ إسكندرية

١٩٨٦

تاريخ مدينة صيدا
في العصر الإسلامي

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٦

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٩٣٩٤٧٢٠، إسكندرية

إهداء

إلى صيدا الخالدة أرض الكرامة والحرية والنضال...

أهدي هذا البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ سنوات مضت عزمت على دراسة ثلاثة مدن لبنانية لعبت دوراً هاماً في أحداث التاريخ الاسلامي والوسيط ، ولم تلق العناية الجديرة بها من الباحثين هي : طرابلس عاصمة شمال لبنان ، وصيدا عاصمته الجنوبية ، وبيروت أم مدائنه وحاضرته الحديثة . وبدأت بدراسة تاريخ مدينة طرابلس الإسلامي الزاخر بالبطولات والأمجاد ، ودراسة آثارها الباقية التي قاومت أحداث التاريخ ومعاول التخريب عبر العصور ، وما تزال تنتصب شامخة حتى اليوم ، وقد وفقت بفضل الله في مهمتي الاولى ، فصدر كتاب « طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي » بالاسكندرية في سنة ١٩٦٧
وأعيد طبع الكتاب مرة ثانية بمؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية في سنة ١٩٨٤ ثم قمت بدراسة تاريخ صيدا الاسلامية ودراسة آثارها القليلة المتبقية من العصر الاسلامي مستهدفاً التعريف بتاريخ هذه المدينة العريقة وحضارتها ، وتتبع تطورها العمراني في العصور الوسطى تمهيداً لبحث أكثر تفصيلاً وشمولاً على نفس مستوى الكتاب المذكور . وقد حاولت في بحثي هذا أن أرسم صورة واضحة المعالم – بقدر المستطاع – عن صيدا الاسلامية ، وهي صورة جاءت إلينا باهتة فيما وصلنا من بحوث حديثة ، واستندت في ذلك على ما زودتنا بـه المصادر العربية من أخبار تاريخية ووصفية عانيت في التقاطها من بين ألوف الصفحات التي تتناول العديد من الموضوعات .

جوي لمدينة صيدا

وعلى الرغم من اهتمامي بالتركيز على المرحلة الاسلامية من تاريخ صيدا ، فإنني لم أستطع أن أتجاهل عصرها القديم ، فأفردت له فصلاً قائماً بذاته إيماناً مني بأن التاريخ القديم هو الركيزة الأساسية للعصور التالية ، كما أن الإلمام بـه يفسر الكثير من مظاهر حضارتها في العصور الوسطى بل وفي العصر الحديث .

وبعد فأرجو أن أكون قد أبرزت بهذا البحث المتواضع أهمية هـذه الفترة التاريخية من تاريخ عاصمة جنوب لبنان وأوضحت صورتها الإسلامية ، والله الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

دراسة تمهيدية
الموقع والإسم وطبوغرافية المدينة

(١) موقع صيدا وأثره في دورها التاريخي .
(٢) اسم صيدا ومدلوله .
(٣) طبوغرافية صيدا التاريخية .

دراسة تمهيدية
الموقع والإسم وطبوغرافية المدينة

(١)

موقع صيدا وأثره في دورها التاريخي

تقع مدينة صيدا على مسافة تبعد عن بيروت جنوباً بنحو ٤٥ كيلومتراً وعن صور شمالاً بنحو ٤٠ كيلومتراً ، في سهل ساحلي شديد الخصوبة وافر المياه ، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر ، يصل اتساعه إلى ما يقرب من ميلين[١] ، وتقوم المدينة الحديثة في نفس الموضع تقريباً الذي كانت تشغله المدينة القديمة ، أي على التل الذي أقيمت فيه قلعة البر الصليبية ، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت في فترة لاحقة للاسترداد الاسلامي نحو الشمال الشرقي بحذاء الساحل ، وأصبحت لا تتعمق كثيراً في الداخل[٢]. وتشغل المدينة بقعة من الأرض على شكل مثلث قاعدته إلى الداخل ورأسه شبه جزيرة أو نتوء بارز في البحر ، يتقدمها عدد من الجزر الصخرية تحمي الخليج الصغير الذي تكونه

---

(١) Frederick Carl Eislen, a study in Oriental history, New York, 1907, p. I - Dictionnaire de la Bible, pub. Vigouroux, t. v, Paris, 1928, p. 1704 - بطرس عبد الملك ، جون الكسندر طمسن ، وابراهيم مطر ، قاموس الكتاب المقدس ، بيروت ، ١٩٦٤ ص ٥٦٥ - منير الخوري ، صيدا عبر حقب التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٨

(٢) Donald Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 28 - Schwarz, Sidon, Encyclopaedia of Islam, p. 422 .

في الشمال الشرقي من العواصف البحرية[1]، وأهم هذه الجزر جزيرة صغيرة تقع قريباً من الطرف الشمالي الشرقي من المدينة تقوم عليها منذ سنة ١٢٢٧ م (٦٢٥ هـ) القلعة الصليبية المعروفة بقلعة البحر. والى الشمال الغربي من هذه الجزيرة جزيرة أخرى أكبر حجماً تمتد من الشمال إلى الجنوب تسمى «جزيرة صيدا» يقوم عليها اليوم منار، وكانت تتصل بهذه الجزيرة فيما مضى أرصفة تشكل مـــا يسمى بالميناء الخارجي المتصل بالميناء الأمامي الواقع غربي قلعة البحر، وكانت السفن الأجنبية ترسو في هذين الميناوين في العصر القديم[2] بينما كانت السفن الصيداوية ترسو في الميناء الداخلي الرئيسي. ويعتقد الأب هنري لامانس أن مدينة صيـــدا القديمة كانت جزيرة[3]، وهو أمر نستبعده اليوم لأن كل الآثار القديمة التي تم العثور عليها كشف عنها في البر.

ويحيط بالمدينة من الشرق والجنوب والشمال الشرقي بساتين غنيـــة بالفاكهة، معظمها من البرتقال والليمون والموز، وكان يزرع فيها في العصور الوسطى قصب السكر وأشجار النخيل. وتزيد مساحة هـــذه البساتين أو تقل حسب اتساع السهل الساحلي أو ضيقـــه، أو حسب اقتراب المرتفعات الغربية من الساحل أو بعدها عنه، وتطـل على مدينة صيدا وبساتينها مرتفعات أربعة هي: البرامية في الشمال، يليها الهلالية وتقع إلى الجنوب الشرقي من البرامية، ثم مـار الياس في جنوب الهلالية، ويليها جنوباً مغدوشة. ويحد مدينة صيدا من الشمال نهر الأولي[4]، الذي يصب على بعد نحو أربع كيلومترات إلى شمال صيدا، ويستمد مياهه من الروافد

---

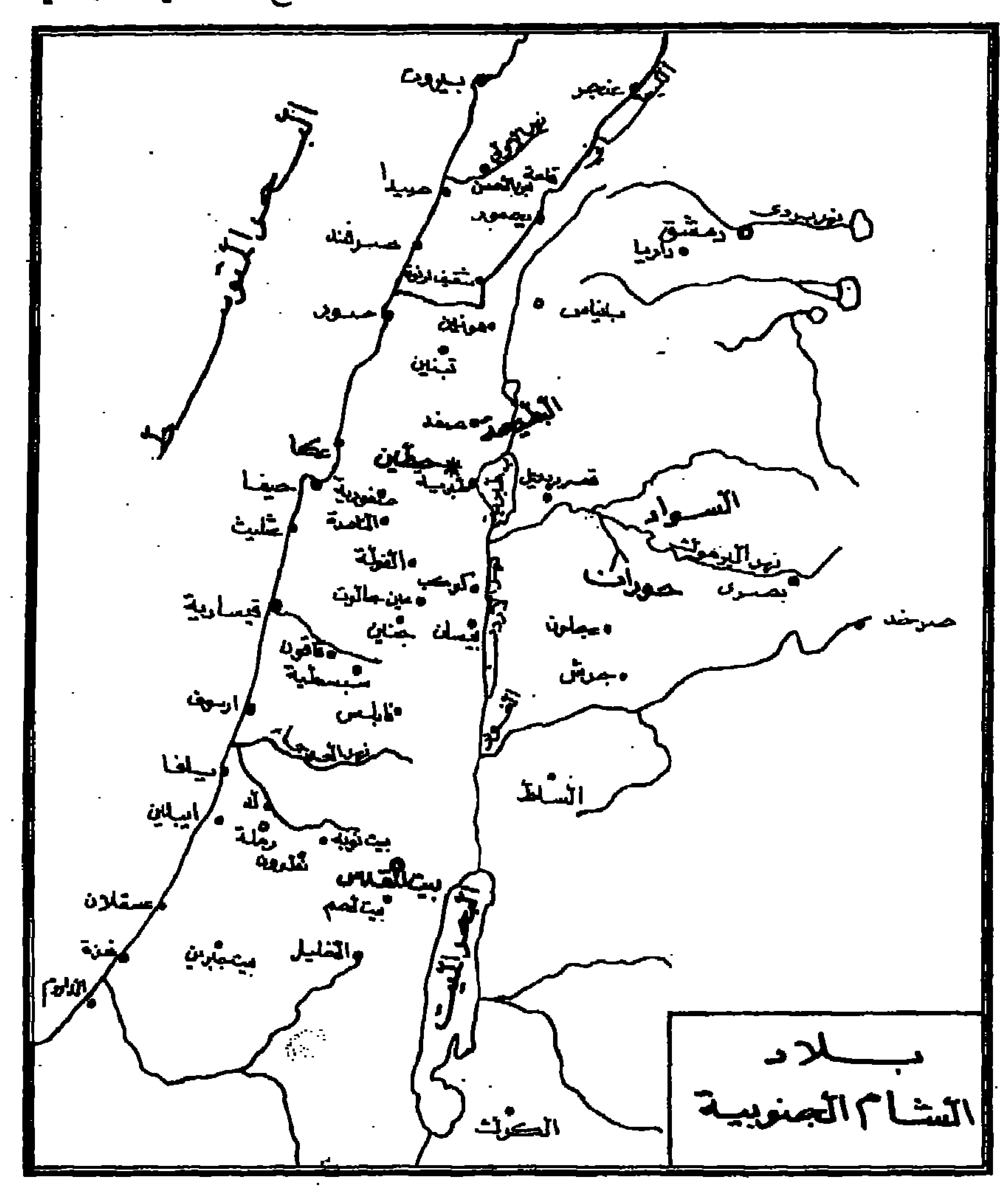
(١) محمد غلاب، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩ ص ٣٥٩

(٢) Poidebard et Lauffray, Sidon: aménagements antiques du port de Saida, Beyrouth, 1951, p. 84 وراجع المقدمة العربية الواردة في نهاية هذا الكتاب.

(٣) هنري لامانس، السواحل اللبنانية، مجلة المشرق، السنة السابعة، عدد ٢٠ ص ٩٤٨

(٤) الأولي تسمية حديثة عرف بها هذا النهر عندما أصبحت صيدا قاعدة جنوب لبنان في أوائل القرن السادس عشر، وكان يعرف في العصر الاسلامي بنهر الفراديس بسبب الجنان والبساتين التي تحيط بصيدا (ابراهيم الأسود، ذخائر لبنان، بعبدا، ١٨٩٦ ص ٣٧)

العليا الشمالية من نبع الباروك والجنوبية من نبع جزين ، ويصب في رأس الجاجونية . وقد عرف هـذا النهر في العصور الوسطى بنهر الفراديس ، وكان يعرف قديماً بنهر بوسترانوس[1]. وعند مرتفـــع مار الياس يجري



(خريطة رقم ١) موقع صيدا من بلاد الشام الجنوبية

(١) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩ ص ٣٦ — حسن أبوالعينين ، دراسات في جغرافية لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨ ص ٢٢٠

جدولان : الشمالي منهما يقال له القملة والجنوبي برغوت[١] ، ولعل لفظة قملة محرفة من الفرنسية « Comme Lait » . ولفظة برغوت محرفة من الفرنسية « Par Goutte »[٢] . كذلك يحد صيدا من الجنوب نهر سنيك الذي يصب في البحر جنوبي صيدا مباشرة ، ويليه جنوباً نهر الزهراني الذي يجري شمالي الصرفند (ساريبتا القديمة) على مسافة تبعد عنها بنحو ميلين ونصف ميل . وينتشر فوق السهل الساحلي لإقليم صيدا ويمتد من جنوب بلدة الدامور في الشمال حيث يضيق السهل الساحلي للغاية حتى رأس الصرفند في الجنوب مسافة عشرة أميال كسوة من الرواسب الرملية والحصى مما تحمله الأمواج وبقايا المدرجات البحرية التي تخلفت عن تراجع البحر[٣] . وتكثر على الساحل الجنوبي من صيدا أكوام من أصداف الموريكس تخلفت من العصور القديمة عندما كان أهل صيدا يستخرجون من هذه الأصداف والقواقع أصباغ الأرجوان[٤] .

ويتزود سهل صيدا بثلاث نهيرات تنبع من الجبال الواقعة إلى شرقيه مباشرة هي نهر الاولي في الشمال ونهر سنيك ونهر الزهراني في الجنوب ، وقد أشرنا اليها ، بالإضافة إلى مياه العيون مثل عين القنطرة وعين براك بين الصرفند ونهر الزهراني . وبفضل توافر المياه أصبح من اليسير ري المناطق التي لا تخترقها مجاري الأنهار والجداول في سهل صيدا ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على زيادة خصوبة سهل إقليم صيدا وشهرته عبر التاريخ بأشجاره المثمرة وجناته التي تجري بينها الأنهار ، وقد ترتب على هذا العامل أن أصبحت صيدا من المدن الساحلية الشهيرة بثروتها في

---

(١) G. Francis Hill, Catalogue of the Greek coins of Phœnicia, London, 1910, p. IXXXVII

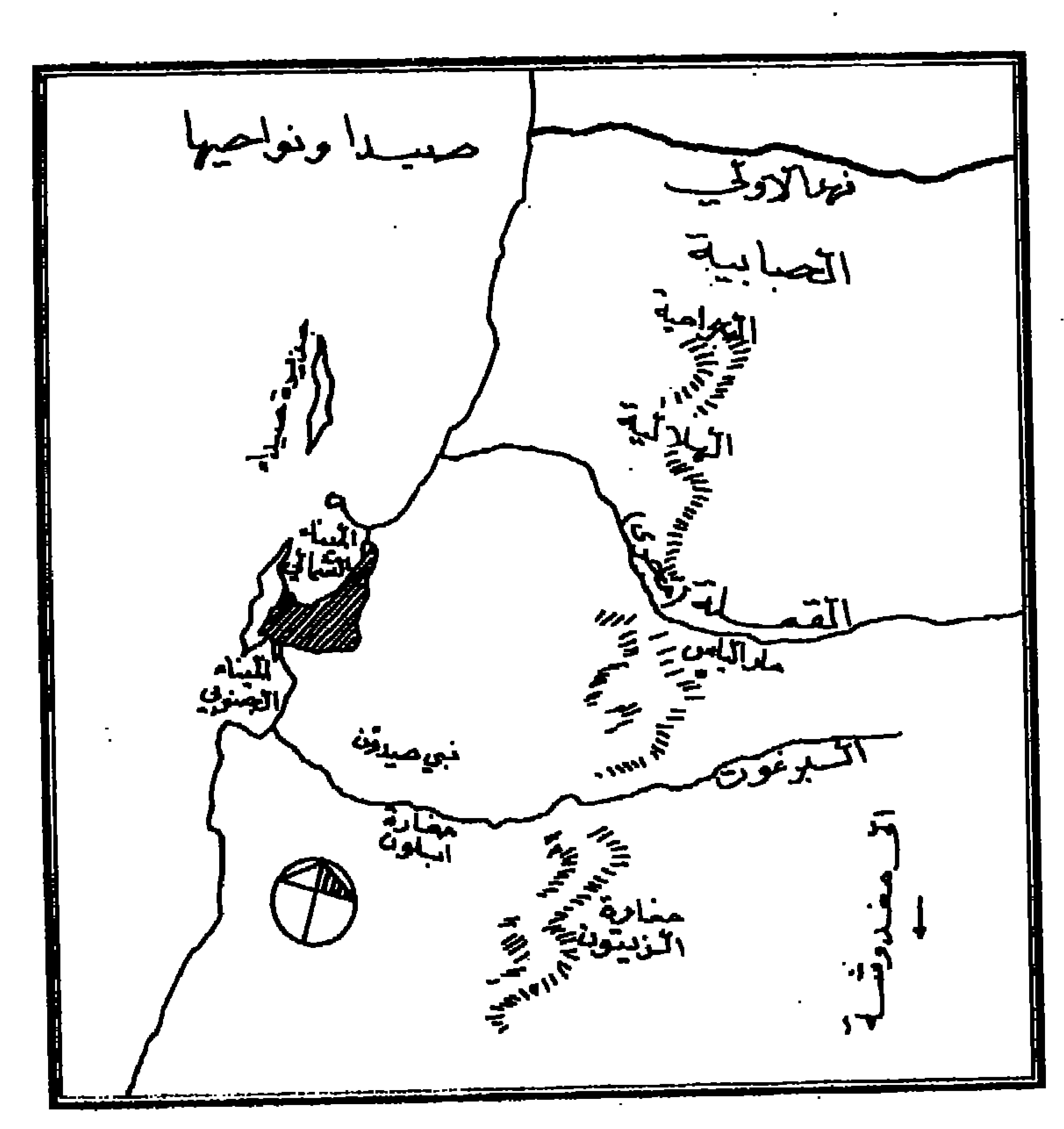
(٢) سليم بسيسو ، صيدا سيدة البحار وسيدة الدنيا ، مجلة العربي ، عدد ٤٨ ، تشرين ثاني ، ١٩٦٢ ص ٧٩

(٣) يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ١ ص ١١ – حسن أبو العينين ، ص ١٠٥ – Fredrick Carl, op. cit. p. 1

(٤) Dictionnaire de la Bible, p. 1704

الفاكهة والخضروات ، وتشهد بذلك أقوال الجغرافيين القدامى والعرب واللاتين في مراحل التاريخ المختلفة في وصف ثمار صيدا ، وخضرة بقعتها[1].

وكان لموقع صيدا الجغرافي وقيامها على شبه جزيرة ضاربـة في البحر أعظم الأثر في تقرير مصيرها كميناء تجاري هام في حقب التاريخ المختلفة ، فمما لا شك فيه أن صيدا بفضل تطلعها إلى البحر وعزلتها شبه التامة عن قلب البلاد إلا عبر طرق معدودة وعرة المسالك تدور حول المرتفعات لتربطها



(خريطة رقم ٢) الموقع الجغرافي لمدينة صيدا ونواحيها

(١) Frederick - Robinson, Biblical Researches in Palestine, 2d edition, p. 479 - Carl Eiselen, op. cit. p. 2

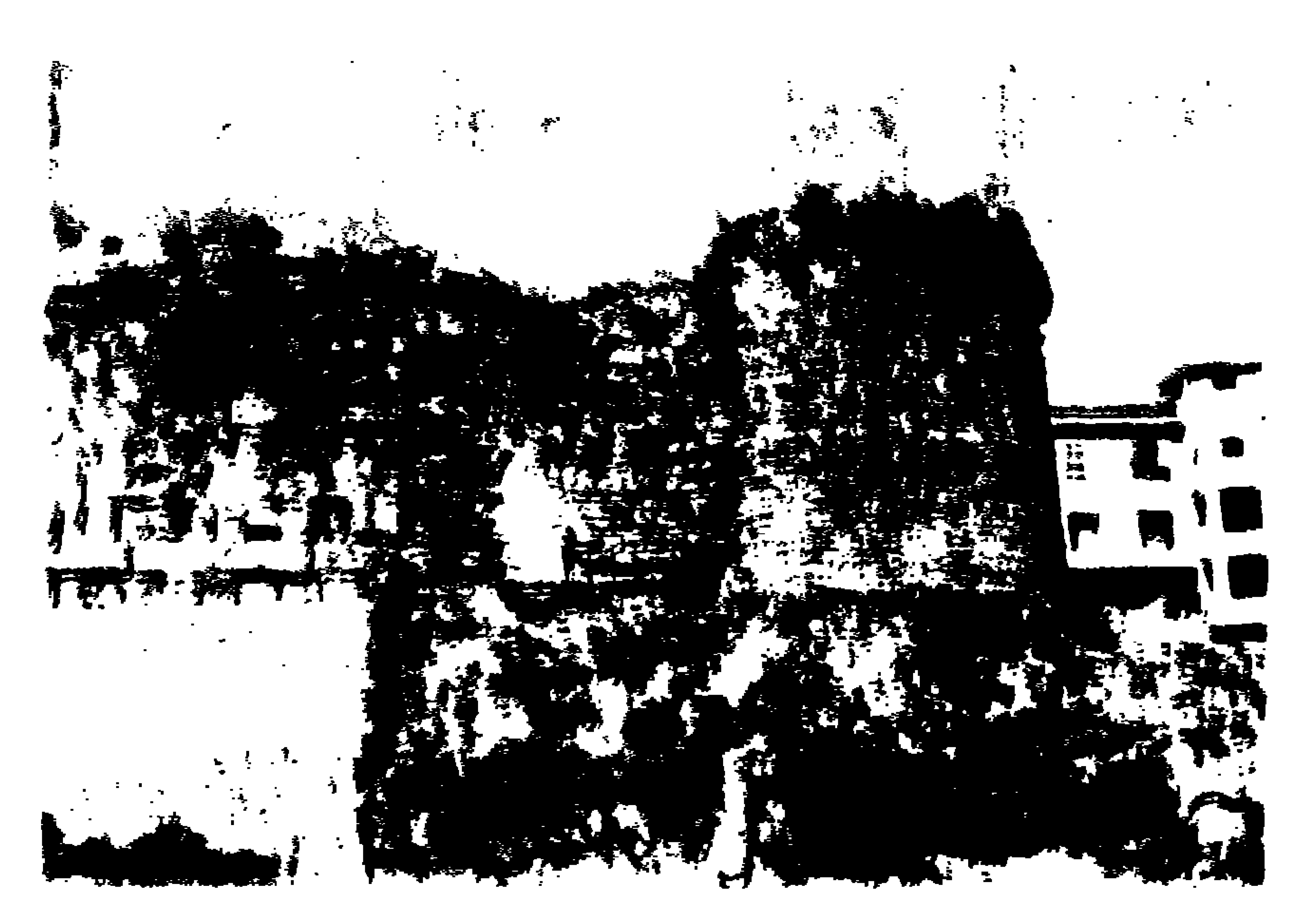
بالمدن الساحلية [١] أكدت تفوق دورها البحري وانتماء أهلها إلى البحر [٢] بهدف التجارة وتصريف منتجات البلاد. وقد ساعد على هذا النشاط التجاري وجود ميناءين رئيسيين استخدمهما الصيدانيون في العصر القديم لتصريف التجارة الفينيقية إلى دول حوض البحر المتوسط القديم، كالثياب الأرجوانية والزجاج، أولهما ميناء شمالي يحميه صفان من الصخور يشكلان حوضاً مغلقاً محمياً من الرياح، الصف الأول يمتد من الطرف الشمالي للنتوءات الصخرية البارزة أمام رأس المثلث العمراني شرقاً لعدة مئات من الأمتار [٣] ليقابل قرب نهايته تقريباً صفاً آخر من الحواجز الصخرية يمتد من الجنوب إلى الشمال، ويكاد يتصل بالصف الأول ولا ينفصل عنه إلا بمسافة ضيقة تتسع لمرور إحدى السفن، هذا الميناء الرئيسي الذي ما زال يقوم بوظيفته حتى اليوم بالنسبة لسفن الصيد والزوارق، كان مخصصاً لاستقبال السفن الصيداوية، وكان مدخله محاطاً بتحصينات من قلاع وأبراج أقيمت على صف من الصخور الطبيعية والنتوءات البارزة لحماية السفن من العواصف والأنواء، وكان المدخل المذكور يغلق بواسطة سلسلة ضخمة تمتد بين برجين متقابلين يتصل الجنوبي منهما بتحصينات مدينة صيدا. وكان هذا الميناء المغلق يتصل بالميناء الجنوبي عن طريق فتحة صناعية نقرت في صخور

---

(١) مثل طريق الجليل ويصل بين عكا وصفد والقنيطرة ودمشق، وهو الطبيعي الوحيد الذي يصل بين الساحل والبقاع (راجع محمد غلاب، ص ٣٥٢، ٣٦١). وقد كان لعزلة صيدا عن الداخل عن طريق المرتفعات التي تتحكم فيها قلاع أقيمت في العصور الوسطى، مثل قلعة شقيف تيرون المرقب الهام لحراسة مدخل صيدا والمتحكم في نقطة التقاء النهرين اللذين يكونان نهر الأولي، أعظم الأثر في تطلعها نحو البحر P. Deschamps, La défense du Royaume de Jerusalem, Texte, Paris, 1939, p. 220, 222). وهناك قلعة اخرى تحمي الوادي الذي تجري فيه مياه نهر الأولي هي قلعة أبي الحسن التي تحمي المدخل المباشر الى صيدا في الطريق المؤدي إلى دمشق (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، نشره فردناند وستنفلد، جوتنجن ١٨٤٦ ص ٣٥٧)

(٢) Poidebard, op. cit. P. V - حسن أبو العينين، ص ٣٦٦

(٣) Donald Harden, op. cit. p. 28



جانب من قلعة المعزة (قلعة لويس التاسع) بصيدا



جانب من البوائك المطلة على صحن خان الافرنج



قبة جامع صيدا الكبير



بوابة صيدا الفوقا (باب عكا)

فبعضهم يستند إلى أصل التسمية كما ورد في العهد القديم ، فينسبون صيدا الى صيدون الابن البكر لكنعان بن حام بن نوح[1] ، ويربطون بين تأسيسها وبين الكنعانيين الذين عرفوا أيضاً باسم الصيدونيين[2]. وقد أخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بهذا التفسير ، وأجمعوا على نسبتها إلى صيدون بن صدقاء ابن كنعان بن حام بن نوح[3]. ويعتقد إيوستاثيوس أن صيدون القديمة من بناء بيلوس ، وأنها سميت باسم ابنتـــه صيد ، ولكن الكتاب الإغريق (ومنهم ملالاس) أجروا تعديلاً على هذه الأسطورة ، فأبدلوا صيد بصيدوس ابن ايجيبتوس الذي بنى صيدون وسماهـــا باسم صيدوس . ويعلق المؤرخ فردريك كارل ايسلين بأن هذا التفسير الأخير يشبه إلى حـــد ما التفسير القديم الوارد في العهد القديم ، وأن هذا التفسير يربط المدينة واسمها باسم صيدون ، ويعترض على الأخذ بهذا التفسير الخيالي[4].

وهناك من يفسر اسم صيدا على أنه مشتق من الجذر السامي « صيد » بمعنى صيد الاسماك[5] ، ويعتقـــد البعض أنها كانت محلة صغيرة لصائدي الأسماك[6] ، على النحو الذي كانت عليه قرية راكوتيس التي أقيمت عليها مدينة الاسكندرية[7]. وقد أشار هومير إلى أن السمك في صيدون أوفر

---

(١) الكتاب المقدس ، العهد العتيق ، بيروت ١٩٦٠ : سفر التكوين ١٠ : ١٥ ، سفر أخبار الايام الاول ١ : ١٣

(٢) Schulim Ochser, The Jewish Ency, article Sidon يوسف مزهر ، ج ١ ص ٢٥

(٣) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ١٨ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٤٣٧ — القلقشندي ، صبح الاعشى مجلد ٤ ص ١١١ — الشيخ طنوس الشدياق ، بيروت ، ١٩٥٤ ج ١ ص ٧

(٤) Frederick p. 9

(٥) أنيس فريحة ، أسماء المـــدن والقرى اللبنانية ، ص ٢٠٣ — بطرس عبد الملك ، قاموس الكتاب المقدس ، ص ٥٦٥ - فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ١٣٢

(٦) محمد غلاب ، ص ٣٥٩ — منير خوري ، ص ٢٤ — The Jewish Enc., p. 614

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، تاريـــخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٢

من الرمال ، كذلك فسر جستان في القرن الأول اسم صيدون بكثرة أسماكها ، « على أساس أن الفينيقيون كانوا يسمون السمك صيدون »[١]. وقد أشار بعض الكتاب العرب الى شهرة صيدا في نوع من السمك يتوافر في مياهها ، فالإدريسي يذكر أن بصيدا عين ينشأ بها في الربيع سميكات على طول الإصبع منها ذكور وإناث ، وأن لها أيدي وأرجل صغار[٢]. وما زالت صيدا تشتهر في الوقت الحاضر بأسماكها ، وصيد الأسماك في يومنا هذا من أهم حرف سكان صيدا ، وميناؤها الحالي لا يعدو أن يكون مرمى لزوارق الصيد .

وقد تكون صيداء من الصيداء في العربية ، وهي حجر أبيض كان يصنع منه البرام[٣] ، ولعل لهذا التفسير صلة باسم محلة البرامية التي تشرف على صيدا ، واشتهرت بقدورها وبرامها الفخارية ، وقد تكون صيدا مشتقة من الصيداء بمعنى الأرض التي تتسم تربتها باللون الأحمر والحجارة الغليظة المستوية بالأرض[٤] ، أو بمعنى الحصى ، ومع ذلك فقد شك ياقوت في التفسير العربي لكلمة صيدا وقال : « وما أظنه إلا لفظة أعجمية إلا أن أصلها في كلام العرب على سبيل الاشتراك »[٥].

وقد اعترض المؤرخ فردريك كارل ايسلين على التفسيرات السابقة ورجح أن صيدون القديمة سميت باسم اله يحمل هذا الاسم ، ومنه اشتقت التسمية الصليبية ساجيتا أو ساجيت[٦] ، وإن كان يميل إلى ربط اسم ساجيتا

---

(١) Frederick Carl Eiselen. p. 11

(٢) الإدريسي، وصف فلسطين والشام من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره جوانيس جيلدميستر ، بون ١٨٨٥ ص١٥ — ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، دمشق ، ١٩٦٢ ص ٩٨

(٣) ياقوت ، معجم البلدن ، مادة صيداء ، مجلد ٣ ، ص ٤٣٧ — جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ ، مادة الصيداء ، ج ٣ ص ٢٦٢

(٤) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٣ ص ٨٤٨ — محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ج ٢ ص ٤٠٣

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٤٣٧

(٦) Frederick Carl, p. 14

باللفظة اللاتينية (Sagitta) بمعنى السهم ، بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي ، وكانت العملات التي سكت في صيدا في هذا العهد تحمل هذا الشعار[1] . ويرجح الاستاذ أنيس فريحة أن يكون صيد ، وهو الجذر الذي اشتقت منه صيدون وصيدا إلهاً سامياً قديماً يمثل الصيد ، ويعلل تسمية أهل صيدا للمزار الواقع في الجنوب الشرقي منها والذي يسميه الأهالي بمزار النبي صيدون بأنه مكان هيكل فينيقي قديم للإله السامي صيد إله الصيد[2] . ونعتقد بدورنا أن اسم صيدا مشتق من الجذر السامي صيد ، ويقصد به صيد السمك وهي الحرفة الرئيسية لسكان هذه البلدة منذ نشأتها . ولا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة فأطلقوها على مدينتهم بحيث أصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك ، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الديني القديم عند سكان صيدون ، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التي كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبيراً عن تفاؤلهم بها كما كان يفعل العرب في العصر الجاهلي عندما كانوا يتفاءلون بالطير كالحمامة[3] مثلاً . ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت لها صلات وثيقة بأسماء الآلهة . وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التي كان يمارسها الصيداويون قاصرة على السمك ، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصباغ الأرجوانية المشهورة ، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية[4] .

(٣)

طبوغرافية صيدا التاريخية

رأينا فيما سبق أن مدينة صيدا كانت مزودة بميناءين بالاضافة إلى

(١) Ibid. (٢) أنيس فريحة ، أسماء المدن والقرى اللبنانية ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠٨

(٤) محمد غلاب ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .



مسند بارز بقلعة صيدا



آثار صليبية في قلعة البحر

ميناء خارجي في الجهة الشمالية كان مخصصاً للسفن الأجنبية ، ومن المحتمل أن يكون المينائين المذكورين قـد اتصلا في فترة ما بحيث أصبح من السهل على السفن أن تنتقل من الميناء الشمالي إلى الميناء الجنوبي .

ويحد مدينة صيدا من الشمال أطلال قلعة البحر ، وهي بناء أقيم في العصور الوسطى على جزيرة صغيرة قريبة من الساحل الشمالي لصيدا ، في الفترة الواقعة ما بين شتاء سنة ١٢٢٧ إلى سنة ١٢٢٨ ، وشيدت من كتل ضخمة من الحجارة انتزعت من أطـلال بناء آخر أكثر قدماً كان مقاماً فيما يظهر في نفس الموضع . وتقع أكثر أحياء المدينة الحديثة ارتفاعاً إلى الجنوب الشرقي حيث تقوم أطلال قلعة البر التي شيدها الملك لويس التاسع في سنة ١٢٥٣ أثناء مقامه بهذه المدينة . وكان ينحدر من هذا النشز إلى البحر سوران : أحدهما يبدأ من باب عكا ثم يتجه شمالاً ، وينتهي بباب بيروت ، والآخر يتجه غرباً . وينتهي عند الميناء الجنوبي .

وتتميز مدينة صيدا بشوارعها الضيقة المتعرجة التي تتداخل فيما بينها على شكل شبكة معتمة من الأزقـة والدروب الملتوية تتلاحم المنازل على جوانبها ، وتتقنطر عليها بين الحين والحين ، وتظللها أحياناً قبوات متعارضة وحنايا أو تعترضها أنصاف العقود التي تنبت من دعامات جانبية ثم ترتكز أطرافها على الجدر المقابلة لتدعيمها . ومن الغريب أن معظم هذه الدروب والأزقة تمتد من الجنوب إلى الشمال بحيث تفضي جميعاً إلى الساحل ، وفي بعض الأحيان تتفرع منها أزقة وزنقات جانبية تمتد من الشرق إلى الغرب مؤلفة عند التقاطع ما يشبه الميادين الصغيرة أو الساحات(١). وعلى الرغم مما تتسم به هذه الأزقة من الضيق والتعرج والتشعب ، فإن بعض الدور التي تنتظم على جوانبها تتميز بالإتساع ، كما أن الكثير منهـا مبني من الحجارة ، لاسيما الدور الواقعة بحذاء السور الشرقي بالقرب من باب عـكا المعروف اليوم بالبوابة الفوقا ، هـذه الدور تتميز عن غيرها بساحاتها

(١) دليل صيدا الاثري ، ص ٣٤

الكبيرة وارتفاعها الواضح ، وكثير من هـذه الدور أقيم على خط السور نفسه ، وأصبحت تشكل جزءاً لا يتجزأ منه[١].

وإذا نظرنا إلى خريطة صيدا الحديثة أمكننا أن نحدد بوضوح تخطيط المدينة ، على الأقل في العصور الوسطى ، فشارع البوابة الفوقا الذي يبدأ من تل القلعة البرية وينتهي بالقرب من المسجد البراني[٢] الذي سمي كذلك لوقوعه خارج السور القديم ، يحاذي السور الشرقي للمدينة ، وقـد تبقت من هذا السور بقية استغلها الأهالي جدراناً لدورهم الممتدة في خط سيرها . ومن قلعة البر يمتد سور سبق أن أشرنا إليه ينتهي عند ساحل البحر . ويلي هـذا السور من الجنوب وعلى رمال الساحل أكوام من أصداف الموريكس المشهورة . وكان يحد صيدا من الجهة الغربية المطلة على البحر سور يتصل بأبراج الميناء الداخلي المعروف بالميناء الشمالي ، ويغلب على الظن أن هذا السور المحاذي للبحر كان يحدق بالمناطق المعمورة قبلي المدينة ، وان المسجد الجامع وأصله كنيسة اسبتارية لفرسان القديس يوحنا كان يدخل في نطاق السور أو على الأقل كان يلتصق بالسور من الجهة الجنوبية الغربية . ولا نشك في أنه كان ينفتح في هـذا السور المحاذي للميناءين بابان آخران أحدهما يؤدي الى الميناء الشمالي والآخر يفضي الى الميناء الجنوبي ، وإن كان ناصر خسرو يشير الى بوابات ثلاثة فقط كانت تنفتح في سور المدينة في زمنه[٣].

ومن أهم معالم مدينة صيدا الإسلامية الجامع الكبير الذي أشرنا إليه ، ويقع في القسم الغربي من المدينة ، وإلى جنوب هذا الجامع مباشرة يقع قصر الأمير فخر الدين المعني الثاني ، وإلى الشمال الشرقي وعلى بعد مئات الأمتار يقع مسجد أبو نكله الذي كان في الأصل كنيسة سان ميشال ،

---

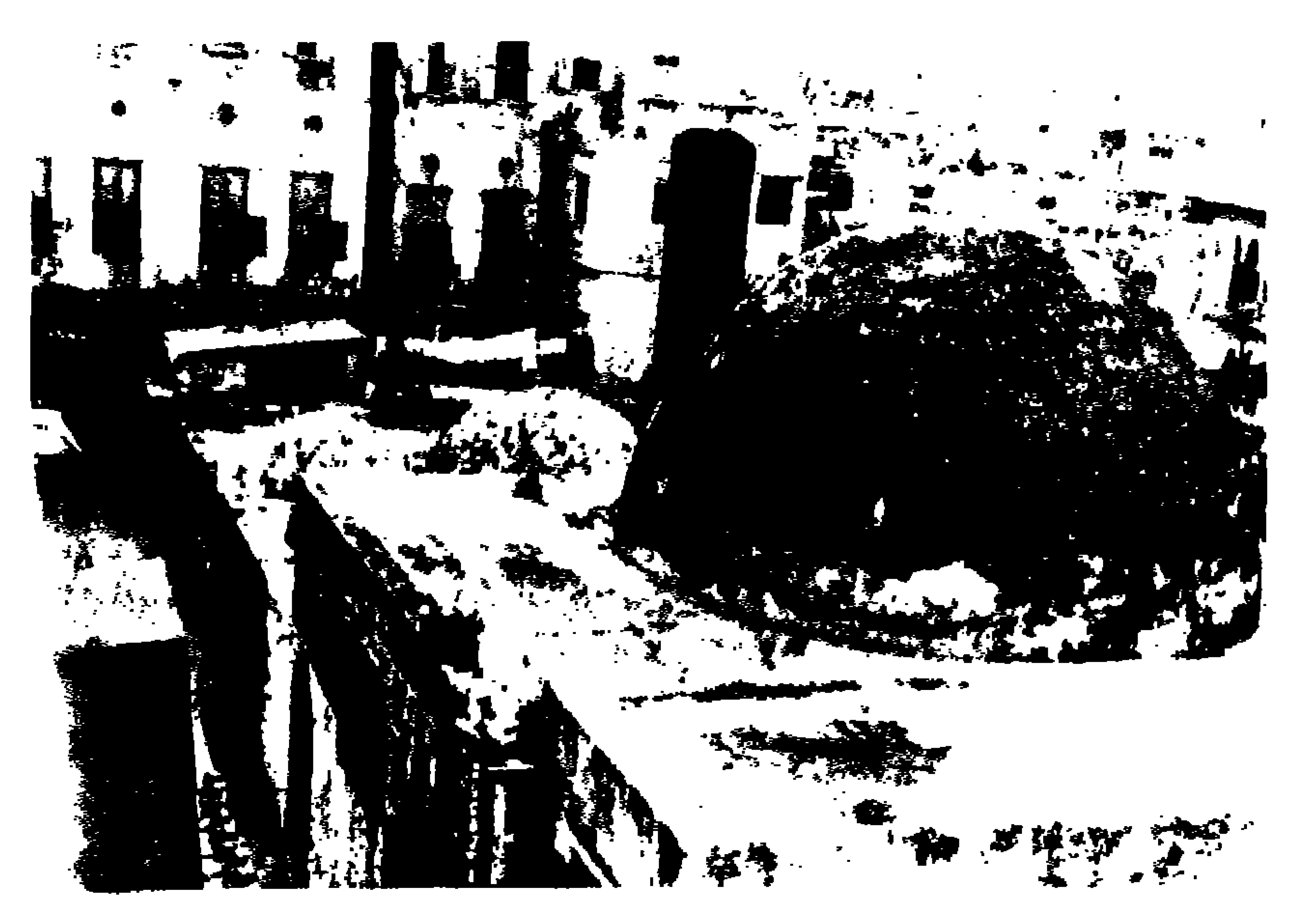
(١) Frederick Carl, p. 5

(٢) هذا المسجد من بناء المعنيين ، وفيه دفن الامير ملحم بن معن في سنة ١٠٦٨ هـ

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، طبع برلين ١٣٤٠ هـ ص ٢٠



مئذنة الجامع العمري بصيدا



قباب بحمام فخر الدين

وبالقرب من هـــذا المسجد ، وفي نفس الإتجاه الشمالي الشرقي يقوم خان الافرنج المشهور الذي شيده الأمير فخر الدين[1] ، وبالقرب منه من الجهة الغربية يقوم حمام المير . وهناك خان آخر من عصر فخر الدين أقيم إلى الشمال الشرقي من خان الافرنج يعرف باسم خان الرز .

ونلاحظ أن الآثار الفينيقية القديمة تقع في خارج المدينة الحديثة ، فعلى بعد نحو كيلومتر واحد إلى الجنوب الشرقي من باب عكا الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من سور المدينة تقع جبانــة الملك اشمنعازار الذي عثر على تابوتــه في يناير سنة ١٨٥٥ بالقرب من مغارة أبلون (أبولو) . وعلى بعد نحو كيلومتر ونصف من ساحل البحر شرقاً كشف عن جبانة ثانية بالقرب من قرية الهلالية ، وعلى بعد نحو سبعمائة متر جنوبي ضريح النبي صيدون مغارة تعرف بمغارة المقدورة تقع قريباً من قرية مغدوشة ، كانت فيما يظهر معبداً لعشتروت ، والى جنوب شرقي المدينة تقوم كنيسة مار الياس على نفس الموضع الذي كان يقوم فيه معبـد فينيقي لعله كان مخصصاً للاله اشمون .

ويواجه الباحث في طبوغرافية صيدا القديمة عـــدة عقبات أساسها الحقيقة بأن المدينة الحالية ليست امتداداً لصيدا القديمـة ، فمن المعروف أن تاريخ المدينة الحديثة يبدأ منذ نهاية العهد الصليبي ، زد على ذلك أن الحفريات الأثرية لم تزودنا بمادة كافية تعيننا على تحديـد طبوغرافية صيدا القديمة . على أنه من المحقق أن المدينة القديمة كانت تزيد في الاتساع عن المدينة الحالية ، فإن معظم الآثار التي أسفر عنهـــا الكشف الأثري تم

(١) بناه الامير فخر الدين ووهبه للتجار الفرنسيين في صيدا ، وهو بناء من الحجر مربع الشكل كبير المساحة، يتوسطه صحن مربع الشكل أيضاً في وسطه حوض تحيط به الاشجار، ويدور بالصحن أوبع مجنبات كل منها يتألف من ٧ عقود منكسرة مطولة مكونة بوائك تطل على غرف . وتستند مـــا بين العقود ركائز مستطيلة الشكل تنتهي من أعلى بسطحات مائلة . ويتقابل في وسط عقد كل من الجانبين الشمالي والجنوبي عقد تتناوب سنجاته على أساس كتل بيضاء وسوداء . والخان من طابقين : الاعلى للنزلاء والادنى تشغله مخازن وحظائر للخيـــل ، وللخان بابان أحدهما يطل على الميناء الشمالي والآخر يطل على ساحة السراي .



بوابة خان الافرنج بصيدا

الكشف عنها في البساتين المحيطة بصيدا ، مما يؤكد أن هذه البساتين استحدثت في مواضع كانت معمورة قديماً أو أقيمت على أطلال قديمة . ونستدل من الآثار المكتشفة حول صيدا على أن قلب المدينة كان يشغل منطقة تبعد بنحو ٧٣٠ متراً إلى الشرق من السور الشرقي الحالي ، وأن المدينة القديمة كانت تمتد إلى الشمال مسافة بعيدة تتجاوز نهر الأولي ، فقد تم الكشف عن أطلال معبد أشمون الذي كان يدخل في نطاق المدينة على الضفة القبلية من نهر الأولي ، وموضع هذه الأطلال يبعد بنحو ٢٥٦٠ متراً الى الشمال الشرقي من البوابة الشمالية لمدينة صيدا في العصر الوسيط .

ويشير النقش الفينيقي الذي عثر عليه بالقرب من ضريح الملك بودعشتارت ، ويرجع عهده إلى القرن الخامس ق. م. إلى وجود مركزين عمرانيين باسم صيدون : أحدهما صيدون يم أي صيدون البحرية ، وصيدون ساد[١] أي صيدون البرية ، والمقصود بها الأراضي المرتفعة الممتدة الى الشمال مع اتجاه المدينة نفسها ، تمييزاً لحرفتين رئيسيتين لأهل صيدا ، حرفة التجارة البحرية وحرفة الزراعة[٢]. ويشير النقش نفسه إلى ضاحية تسمى رشف كانت تمتد نحو الشمال والشمال الشرقي حتى نهر الأولي[٣]. وكان هذا التمييز واضحاً قبل ذلك في نص سنحريب الذي يتضمن وصفاً لحملته على بيت المقدس في طليعة القرن السابع ق. م. إشارة الى صيدون الكبيرة وصيدون الصغيرة ، والمقصود بالكبيرة صيدون البرية أما صيدون الصغيرة فهي المدينة البحرية[٤].

(١) Dussaud, Topographie historique de la Syrie antique et médievale, Paris, 1927, p. 39

(٢) Bruce Condé, See Lebanon, Beirut 1960, p. 245 - Frederick Carl, p. 8
وقد ذكر الدكتور محمد غلاب (في كتابه الساحل الفينيقي ص ٣٦٠) خطئاً أن هذا التمييز جاء ذكره في القرن العاشر قبل الميلاد ، كما تكرر الخطأ أيضاً بالنسبة لحملة سنحريب إذ جعلها في طليعة القرن الثامن قبل الميلاد مع أنها حدثت في طليعة القرن السابع ق. م.

(٣) Frederick, p. 8

(٤) Dussaud, op. cit. p. 40 – يوسف مزهر ، ج ١ ص ٢٠ – محمد غلاب ص ٣٦٠
منير الخوري ، ص ٢٧

الفصل الأول

التاريخ القديم والحضارة

١ – عرض عام لتاريخ صيدا القديم

(أ) أولوية صيدون في الحضارة الفينيقية

(ب) خضوع صيدون للأشوريين والبابليين

(ج) خضوع صيدون للفرس

(د) صيدون من الاسكندر إلى الفتح العربي

٢ – المظاهر الحضارية

(أ) تقدم الفنون الصناعية والحرف

(ب) النشاط التجاري

(ج) الحركة العلمية والأدبية

(د) الآثار الباقية

الفصل الأول

التاريخ القديم والحضارة

(١)

عرض عام لتاريخ صيدا القديم

(أ) أولية صيدون في الحضارة الفينيقية :

تعتبر صيدون أقدم مدن الكنعانيين[١] ، وهم فرع من الساميين الغربيين الذين نزحوا من بلاد العرب ونزلوا في سوريا ، وسماهم الاغريق وخاصة المقدونيون الذين تبادلوا معهم التجارة بالفينيقيين[٢]. وقد ذكرنا فيما سبق أن صيدون ، اسم صيدا القديم ، هو اسم مؤسسها صيدون بكر كنعان بن حام حسبما ورد في التوراة ، وبذلك يصبح الكنعانيون الذين عرفوا عند الإغريق بالفينيقيين ، وفي أسفار العهد القديم[٣] وفي أشعار الإلياذة بالصيدونيين ، هم الذين أسسوا صيدون ، وتصبح صيدون لهذا السبب أهم المدن الفينيقية جميعاً بما فيها صور[٤]. وقد احتفظت صيدون بزعامتها على المدن الفينيقية منذ تأسيسها فيما يقرب من سنة ٢٨٠٠ ق.م. بفضل براعة أبنائها في المجال التجاري وتفوقهم على غيرهم فيما يختص بالتجارة البحرية عبر مرافئ البحر المتوسط القديم ، وبفضل احتفاظها باستقلالها عن مصر

---

(١) Schulim Oshser, The Jewish Encyclopaedia, p. 064

(٢) نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٣ : سوريا ، الاسكندرية ، ١٩٦٤ ص ٤٩ — فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ١١٨ — يوسف مزهر ، ج ١ ص ٣٠

(٣) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣١

(٤) سفر أشعيا ٢٣ : ١٢

في كثير من مراحل تاريخها القديم . ثم أخـذت صيدون تتنازل تدريجياً عن مكانتها لمدينة صور ، بسبب الضربات التي تعرضت لها منذ أن افتتح يشوع بن نون ، الذي تولى قيادة شعب اليهود ، بلاد الكنعانيين ، وطرد سكانها ، ودمر مـدنها الصغيرة التي كانت مصدر ثروة صيدون . وتسجل هجرة قبائل البلست الذين وفدوا إليها من كريت منذ سنة ١٢٠٠ ق. م. ، واحتلالهم لأراضيها عنوة ، وتدميرهم لعمرانها نهاية عصر تفوقها وازدهارها القديم [١].

ثم ورثت صور عظمة صيدون وزعامتها منذ بداية القرن العاشر قبل الميلاد وفي الوقت الذي شهدت فيه صور عصرها الذهبي في ظـل ملكها حيرام الأول (٩٦٩ – ٩٣٦ ق. م.) بن أبي بعل صديق [٢] الذي أسس سورها العظيم وجعل منها أكثر مـدن البحر المتوسط الشرقي حصانة ومناعة [٣] ، كانت صيدون تناضل من أجل الوقوف في وجه الاضمحلال المحتوم وتعمل على النهوض من عثرتها ، فقد شاركت في تزويد سليمان بن داود ملك اليهود بما يلزمه من أخشاب الأرز وصناع لبناء هيكله وأسطوله [٤] ، وسنرى فيما بعد أنها كانت تبيع أخشاب الأرز لليهود لبناء الهيكل الذي شيده زروبابل والي يهوذا في زمن كورش ملك فارس [٥].

---

(١) أمين خليفة ، تاريخ سوريا قبل الفتح الاسلامي ، بيروت ١٩٣٠ ص ١٠٧ لبنان في التاريخ ، ص ١٢٠ يوسف مزهر ، ج ١ ص ١٠ محمد غلاب ، الساحل الفينيقي ، ص ٣٠٠

(٢) تصادق حيرام مـع الملك سليمان وتعاون معه تعاوناً وثيقاً (Robin Fedden, Syria, London,1956 p. 43)

(٣) يعتبرها استرابو أكبر وأقدم مدن الفينيقيين ، وانها تنافس صيدون في الاتساع والشهرة وكثرة الآثار (Strabo, The geography of Strabo, trans. Horace Leonard Jones, London, 1961, t. VII, p. 267)

(٤) نجيب ميخائيل ، سوريا ص ٢٥١ – منير الخوري – ص ٥٩

(٥) قاموس الكتاب المقدس ، ص ٥٦٦

(ب) خضوع صيدون للأشوريين والبابليين :

ظلت صور تحتفظ لنفسها بالزعامة على سائر المدن الفينيقية إلى أن تعرضت سواحل فينيقيا لغزوات الأشوريين منذ أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان ذلك إيذانا بأفول نجم صور وزوال عظمتها ، وقـــدر لصيدون أخيراً أن تسترجع تفوقها على المـدن الفينيقية منذ سنة ٦٠٠ ق. م ، وأن تصبح من جديد على رأس المدن الفينيقية ، لا سيما بعد أن دمر نبوخذ نصر قوة صور في سنة ٥٧٤[١] ق. م.

وتبدأ غزوات الأشوريين على السواحل الفينيقية منـــذ سنة ١٠٩٤ ق. م عندما تمكن تجلات بلاسر الأول من احتلال أرواد وفرض الجزية على جبيل وصيدون[٢] ، ولكن غزوته تلك لم تتخذ الطابع العسكري العنيف الذي اتخذته حملة أشور نصر بال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق. م) الذي أخضع المدن الفينيقية صور وصيدا وجبيـل في سنة ٨٧٦ ق. م وأرغمها على أن تدفع له الجزية وأن يقدم له سكانها الذهب والفضـــة والنحاس والقصدير والحديد والمنسوجات الملونة وكميات من خشب الأبنوس والأرز والصندل ، بالإضافة إلى كميات من العاج[٣] ، وأقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية عند نهر الكلب[٤] .

ثم أعاد الأشوريون الكرة على المدن الفينيقيـة مرة أخرى في عصر شلمنصر الثالث (٨٥٩ — ٨٢٤ ق. م) الذي أرغم أهالي صور وصيدا في سنة ٨٤٢ ق. م على دفع الجزية[٥] . واستمرت صيدا وصور تدفعان

---

(١) Donald Harden, p. 51 — لبنان في التاريخ ، ص١٢١

(٢) لبنان في التاريخ ، ص ١٧٣

(٣) Frederick, p. 43 – Dimitri Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, p. 28 — لبنان في التاريخ ص ١٧٤ — يوسف مزهر ، ج ١ ص ٤٦

(٤) نجيب ميخائيل ، ص ٧٥

(٥) لبنان في التاريخ ، ص ١٧٥ — يوسف مزهر ، ص ٤٧

الجزية للأشوريين في عهد أددنيراري الثالث الذي قدم إلى فينيقيا مرتين في سنة ٨٠٤ ، ٨٠٣ ق. م[١] ، وتجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق. م) وشلمنصر الخامس (٧٢٧ — ٧٢٢ ق. م) الذي ألزم صور البرية وصيدا وعكا بوضع أسطول من ٨٠٠ نوتي تحت تصرفـــه بقصد إحكام الحصار من البحر حول صور البحريـــة في سنة ٧٢٢ ق. م. وفي عهد سنحريب (٧٠٥ — ٦٨٠ ق. م) حملت صور راية الثورة على الأشوريين ، فبادر سنحريب بإعادة فتح المدن الفينيقية والسورية ومدن الساحـــل الفلسطيني ، وخرب صور ، وتمكن في سنة ٧٠٠ ق. م من إخماد الحركة ونصب أتوبعل الثاني الموالي للأشوريين ملكاً على صيدا والمدن الفينيقية[٢] ، بدلاً من ملكها الصوري ، وبذلك انهار سلطان صور .

ثم ثار عبـد ملكوت ملك صيـــدا على أسرحدون الأشوري الذي خلف أباه شلمنصر الخامس ، وأعلن عبد ملكوت استقلال بلاده في سنة ٦٧٨ ق. م ، فأسرع أسرحدون بمهاجمة صيدا ، وافتتحها قهراً ، ففر عبد ملكوت بحراً ، ولكنه اقتيد أسيراً « وصيد كالسمكة من البحر » ثم أعدم ، وانتقم أسرحدون من أهل صيدا أبشع انتقام لتجرؤهم على مناهضته ، ودمر عمران صيدون ، ودك بيوتها ، وأطاح بتحصيناتها وأسوارها ، وقذف بأحجارها في مياه البحر . وكانت هذه الكارثة أول الكوارث التي توالت على صيدا العظيمة عبر التاريخ . ثم أمر أسرحدون سكان صيدا بالانتقال عنها إلى بلاده ، وأحل محلهم أقوامـاً من الخليج العربي (خليج فارس قديماً) أو من شرق الأمبراطورية الأشورية[٣] ، وأمر بتعمير مدينة جديدة في موضع صيدون سماها كار أسرحدون أي مدينـــة

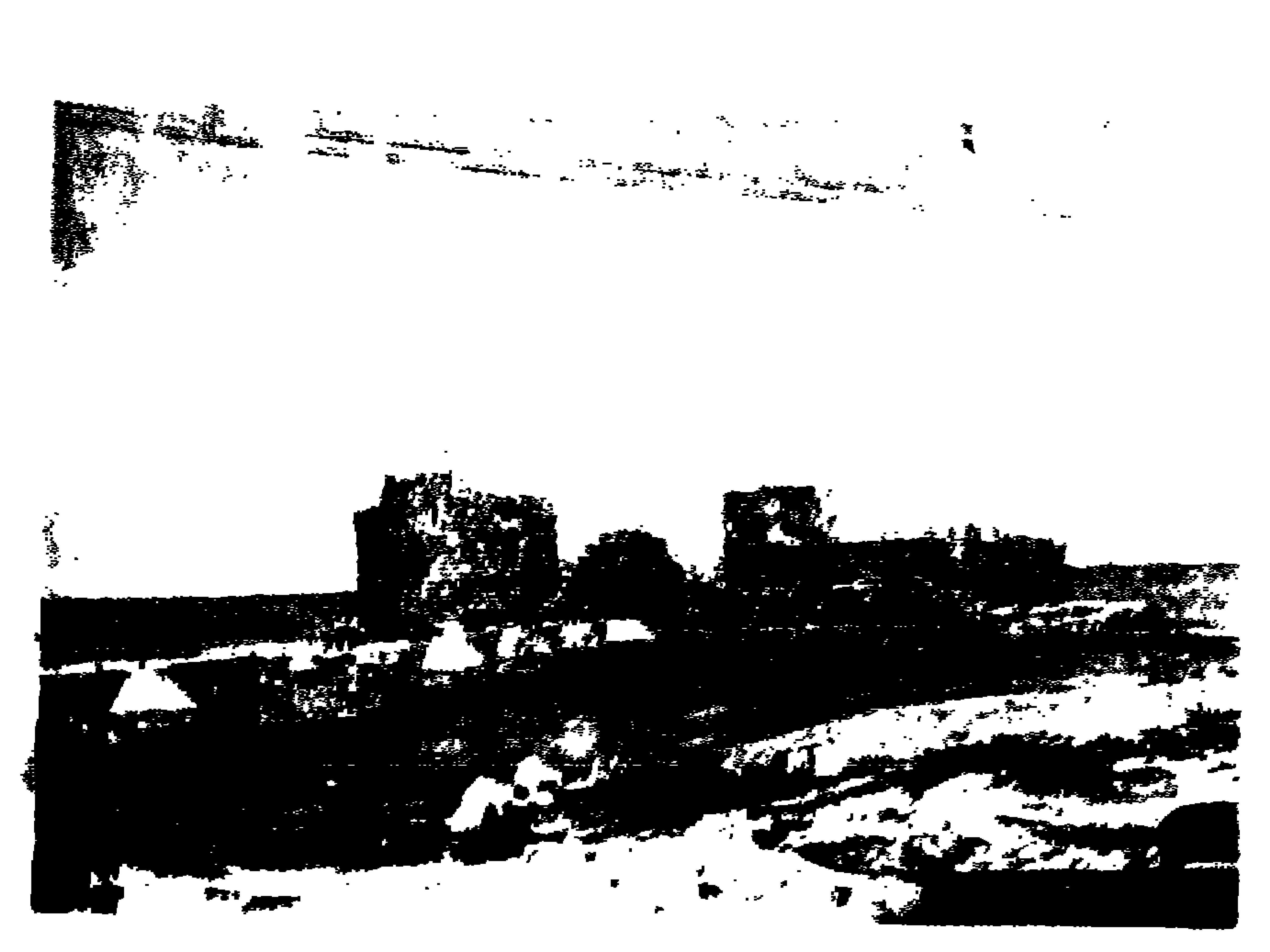
(١) نجيب ميخائيل ص ١١٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٤ منير الخوري ، ص ٦١ .

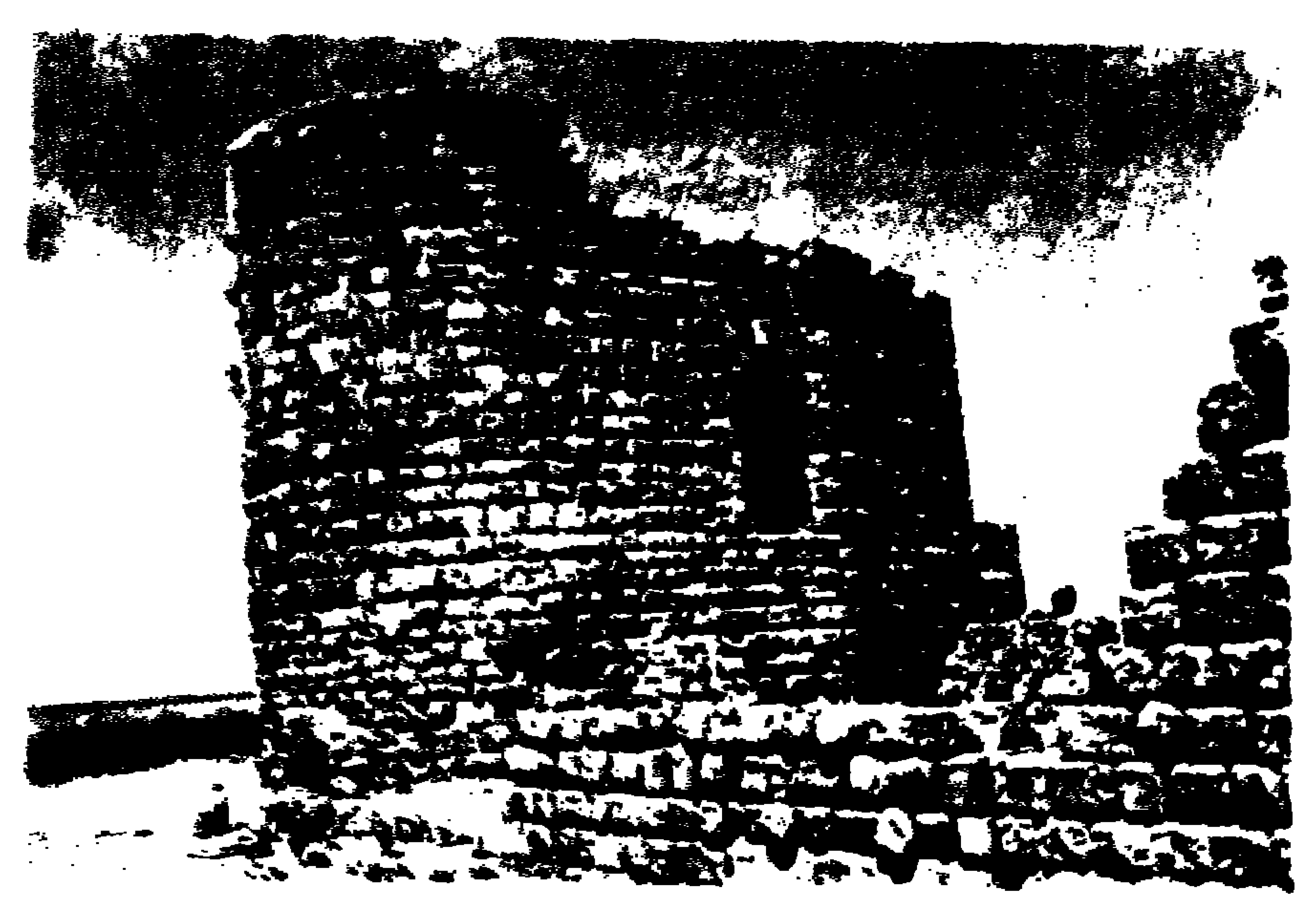
(٣) Baramki, Phœnicia, p. 29 . سيقلده معاوية بن أبي سفيان بعد ذلك عندما افتتح صيدا وبعلبك .



احد دروب مدينة صيد



منظر عام لقلعة البحر والجسر



البرج الإسلامي الكبير بقلعة البحر

أسرحدون[١] . ثم عقدت مدن فينيقيا بزعامة صور حلفاً مع ملك مصر ومملكة يهوذا ضد البابليين ، فقدم نبوخذنصر (٦٠٤ – ٥٦١ ق. م) على رأس حشود هائلة في سنة ٥٩٠ ق.م وفتح أورشليم وهدم هيكلها ، ثم هاجم صيدون وحاصرها حتى مات عدد كبير من أهلها بسبب الجوع والوباء فاستسلمت له ، أما صور فقد تحدته بمقاومتها الباسلة ، واستطاعت هذه المدينة أن تصمد أمامه زهاء ١٣ سنة تحطمت مقاومتها بعدها ، فاستسلم ملكها اتبعل الثالث . وعندئذ دخلتها جيوش الكلدانيين ودمرت مبانيها ، وسوتها بالأرض ، ومنذ ذلك الحين تخلت صور عن مكانتها السامية ، وفقدت استقلالها هي وصيدون[٢] ، ولكن صيدون حلت محلها ، واستعادت زعامتها على المدن الفينيقية من جديد[٣] .

(ج) خضوع صيدون للفرس :

سقطت الدولة البابلية الثانية على أيدي الفرس في سنة ٥٣٨ ق. م ، وورث قمبيز بن كورش ملك فارس تركة البابليين ، فتحولت سورية إلى ولاية فارسية ، ودخلت صيدون في فلك الأمبراطورية الفارسية في سنة ٥٢٦ ق. م ، كما دانت لها صور وغيرها من المدن الفينيقية ، فمنحها قمبيز كثيراً من الامتيازات ، واتخذ صيدون حاضرة لمدن الساحل الفينيقي ، وأسس فيها الفرس قصراً ملكياً تحيط به المتنزهات والجنان لنزوله[٤] ، كما أقام والي صيدون الفارسي قصراً لنفسه ، وأبقى قمبيز على النظام

---

(١) نجيب ميخائيل ، ص ١١٥ – فيليب حتي ، ص ١٧٨ – يوسف مزهر ج١ ، ص ٥٠ .

(٢) نفس المرجع ص ١١٩ – Donald Harden, p. 54 – يوسف مزهر ، صفحة ٥٢ .

(٣) Baramki, op. cit. p. 30 .

(٤) عثر في جبانة عين حلوة في صيدا على بعض تيجان أعمدة تنسب إلى القصر المذكور مصنوعة على الطراز السومي الفارسي على شكل رؤوس ثيران . (راجع : Donald Harden, p 55 موريس شهاب ، الاسكندر الأكبر في صيدا ، مجلة المشرق ، السنة ٢٧ ، بيروت ١٩٢٩ ص ٣٣٩ – Helga Seeden, Coastal Lebanon: The ancient sea-ports of Phœnicia, in cultural Resources in Lebanon, Beirut, 1969, p. 64.)

الملكي في صيدون في ظل الحكم الفارسي ، ونصب ملكها قائداً عاماً للأسطول الفينيقي ، وقد قام هذا الملك بمساعدة قمبيز في فتح مصر في سنة ٥٢٥ ق. م . وتمتعت المدن الفينيقية في عهد قمبيز بنوع من الاستقلال ، وكان ملوكها يضربون العملات المحلية بأسمائهم ، وأذن لها أن تعقد اجتماعات سنوية في طرابلس للبحث في شؤونها[١] .

وعلى هذا النحو أصبحت صيدون في العصر الفارسي تحتل المكانة الاولى بين المدن الفينيقية ، ويتجلى ذلك في العملات الصيدونية التي ترجع الى أيام ستراتون وتنس ، فعلى وجه العملات تظهر صور سفن صيدونية نستدل منها على أن سفن صيدا كانت دعامة البحرية الفارسية ، أما ظهر العملة فتبدو فيه صورة ملك فارس في عربته الحربية يرمي سهماً أو يذبح أسداً[٢] . وفي ظل هذا العهد السلمي استعادت صيدون ازدهارها وعظمتها ، وفي عهد قمبيز باع الصيدونيون كميات كبيرة من أخشاب الأرز لليهود لبناء الهيكل الذي أقامه زروبابل بإذن من ملك الفرس نفسه ، فأعطى اليهود « فضة للنحاتين والنجارين ، وطعاماً وشراباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب الأرز من لبنان إلى بحر يافا بموجب إذن كورش ملك فارس لهم »[٣].

وفي عهد ابنه وخليفته أحشويرش اشترك الصيدونيون في الحرب الفارسية اليونانية ، وزودوا الأسطول الفارسي بعدد من سفنهم[٤] ، وخاضوا مع الفرس معركتين بحريتين هما معركة ميلاتس ومعركة سلاميس التي برز من أبطالها البحريين شخصية تترام نستوس بن أنيسوس الصيدوني[٥] ،

(١) فيليب حتي ، ص ١٨٥ – يوسف مزهر ، ص ٥٥ .
(٢) Hill, Catalogue of the Greek coins of Phoenicia, P. C. - Harden, p. 167
(٣) العهد العتيق ، سفر عزرا ، فصل ٣ : ٧
(٤) Frederick Carl, p. 61
(٥) Ibid.

ولعب الاسطول الصيدوني دوراً هاماً في حروب الفرس مع الإغريق في عهد الملك الفارسي ارتحششتا الاول في سنة ٤٦٥ ق. م. وفي سنة ٣٩٦ ق. م. قاد ملك صيدون جيشاً في ثمانين سفينة حربية ضد الاسبرطيين الذين كان يمدهم ملك مصر بالمؤن[1].

ثم سئم أهـل صيدا حكم الفرس الغاشم وضاقوا ذرعاً بتبعيتهم لهم ، وتمنوا الخلاص من نيرهم ، ففي سنة ٣٥١ ق. م. انعقد مجلس المدن الفينيقية في طرابلس ، وأفصح ستراتون الاول ملك صيدا عن عزمـه في التحرر من الفرس ، مستغلاً اضمحلال الامبراطورية الفارسية بعـد وفاة داريوس الابن الاكبر لارتحشستا الثاني وتولية ابنه الاصغر ارتحششتا الثالث اوخوس ، فلقيت هذه الرغبة استجابة إجماعية من الحاضرين ، وعندئذ جهز ستراتون جيشاً شاركت اسبرطة في إعداده بالمال والسلاح والرجال . وبدأت الثورة الفينيقية على الفرس في الحي الصيدوني بطرابلس ، ولم تلبث أن امتدت نيرانها الى صيدون في ظـل ملكها الجديد تنس ، فهاجم الثوار القصر الملكي ، ودمروا بساتينه وجناته ، وأضرموا النيران في مخازن العشب اليابس المخصص لخيول الفرس ، وجهزوا أسطولاً مؤلفاً من مائـة سفينة حربية ذوات مجاذيف متعددة الطوابق ، ونظموا الدفاع عـن مدينتهم استعداداً لخوض المعركة التي يتقرر فيها مصير بلادهم . وما إن علم أوخوس بذلك حتى استثاره الغضب فزحف في جيش كثيف[2] من الخيالة والمشاة متجهاً نحو الساحل الفينيقي في سنة ٣٥١ ق. م. ، وعندما بلغ تنس ضخامة الحشود الفارسية استنجد بمصر ، فأرسل إليه ملكهـا قوة صغيرة من المطوعة اليونان بقيادة منتور قدمت من رودس[3]. وإذ أدرك تنس أمام قلة عسكره النتيجة المحتومـة ، خاف على نفسه ، فسعى الى التقرب إلى

---

(١) Hill, Catalogue of the Greek coins of Phœnicia, London 1910, p. XCIV

(٢) بلغ عدد الرجالة ٢٠٠ ألف مقاتل ، والخيالة ٣٠ ألفاً ، وعدد السفن التي سيرها الى صيدا ٣٠٠ سفينة حربية ، وخمسمائة تجارية (فيليب حتي ، ص ١٩٠ – مزهر ، ج ١ ص ٥٧)

(٣) نجيب ميخائيل ، ص ١٢٧

الملك الفارسي بأن أرسل تساليون أحد نوابه الى معسكر الفرس ، ليعد ملكهم ببذل العون له في اقتحام صيدا عن طريق الخديعة ، وبالاشتراك في الحملة التي يجهزها ملـك الفرس ضد مصر . ولم يلبث ملك مصر ان تظاهر بعزمه على التوجه الى طرابلس في طائفة من رجاله بحجة التشاور مع ممثلي المدن الاخرى ، واصطحب معه مائة من خيرة شباب المدينة ، وبدلاً من أن يمضي الى طرابلس كما أعلن من قبل اتجه الى معسكر الفرس ، وسلمهم من كان بصحبته من شباب صيدا ، فقتلهم الفرس باعتبارهم المحرضين على الثورة . ثم زحف أوخوس بعد ذلك نحو المدينة ، فخرج اليه خمسمائة من ممثـلي المدينة يحملون الاغصان التماساً لطلب السلم والإبقاء على أرواح أهل صيدا ، ولكن أوخوس بادر بالحكم عليهم بالموت ، وقضى بذلك على الأمل في التفاوض مـــع أهل صيدا الذين أدركوا ما ينتظرهم على أيدي الفرس من سوء المصير ، ولما لم يكن في مقدورهم مقاومة الغزاة لا سيما بعد ان خانهم تنس ملك صيدا ، وغدر بهم عند ملك فارس ، فقد عزموا على تدمير المدينة وحرقها حتى لا يتركوا للفرس فرصة يشبعون فيها انتقامهم منهم . وبدأوا بإحراق الاسطول الصيداوي الراسي بمرفأ صيـدا حتى لا يفكر أحد منهم في النجاة بنفسه ، ثم أغلقوا أبواب بيوتهم عليهم وأشعلوا النيران في أثاث بيوتهم ، فاحتدمت النيران وارتفعت ألسنتها في عنـان السماء ، وأتت النار على دورهم بما تحتويه من أثاث ورياش وتحف وثروات وأنفس ، واحترقت دور الكتب بما فيها من مخطوطات نفيسة وديوان المحفوظات بوثائقه[١] ، وهلك في هذا الحريق البشع العدد الاعظم من أهل المدينة المنتحرة ، وصل عددهم إلى ما يقرب من الاربعين ألف شخص ، تفحمت جثثهم بين الانقاض والرماد . أمـــا الخائن تنس فقد أمر ملك الفرس بقتله ، فحاول الانتحار ولكنه جبن وأحجم ، وعندئـذ أجهزت عليه زوجه وقتلت نفسها فوق جثته[٢]. وهكذا أتت النيران على معظم

(١) Baramki, op. cit. p. 31

(٢) Frederick, p. 65,66 – أمين خليفة ، ص ١٩٧ – فيليب حتي ، ص ١٩٠ – نجيب ميخائيل ، ص ١٢٩ – منير الخوري ، ص ٧٣

عمران صيدون القديمـــة وخربت دورها للمرة الثانية في تاريخها القديم وأمست أطلالاً دارسة [1].

أما الناجون من أهل صيدا فقد عكفوا على تضميد جراح مدينتهم التعسة ، فرمموا بنيانها [2] ، ولكن حصون المدينة وأسوارها لم تبن من جديد الا في العصر الوسيط ، وأخذوا يتربصون السوء بالفرس منتظرين فرصة مواتية يثبون فيها عليهم فيشبعون انتقامهم . وجاءت اللحظة التي تخلص فيها الصيداويون من حكم الفرس البغيض ، فبعد أن انتصر الاسكندر الأكبر على داريوس الفارسي في معركة إيسوس في اكتوبر سنة ٣٣٣ ق. م زحف بحذاء الساحل نحو الجنوب ، وكانت صورة ضحايا أوخوس مـا تزال ماثلة في أذهان الفينيقيين جميعاً ، ولذلك رحبوا بدخول الاسكندر في البلاد ، وكانت مدينة أرواد أول مدينة فينيقية تعلن ولاءهـا للاسكندر ، وابتهاجها بالتخلص من نير الفرس . وتبعتها طرابلس ومدن الساحل : البترون وجبيل وبيروت ، الحـاقدة على الفرس ، وأرسلت صيدا رسلها للترحيب بالإسكندر الفاتح والمخلـّص ، ودعوته للدخول فيها ، وفتحت أبوابها لجيوشه ودانت له بالطاعـــة في نفس العام . فعزل الاسكندر ستراتون الثاني ملك صيدا الموالي للفرس ، وأقام مكانه أحد أقرباء هذا الملك وهو عبدولونيم ، كان يعمل بستانياً في القصر الملكي ، وأعاد إليها الاسكندر ممتلكاتها ودستورها الخاص [3] . وهكذا استسلمت المدن الفينيقية للاسكندر باستثناء مدينة صور التي حملت وحدهـا لواء المقاومة وتحدته في عناد ، معتزة بمناعتها وحصانة أسوارها ، كما ان ملكها كان متحالفاً مع الفرس ، فأحكم الاسكندر عليها الحصار زهـاء سبعة أشهر ، وساعده الصيدانيون في هـذا الحصار ، واشتركوا مع المدن

(١) تعرضت صيدا للتدمير لاول مرة في زمن أسرحون عندما هـــدم بيوتها حتى أسسها ودمر سورها في سنة ٦٧٥ ق. م.

(٢) أحمد عارف الزين ، تاريخ صيدا ، ص ٤٤ .

(٣) Baramki, p. 33 - أسد رستم ، تاريخ اليونان ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٧ .

الفينيقية الشمالية في تزويده بثمانين سفينة لتطويق صور من البحر[1] . ويبدو أن أهالي هذه المدن وقفوا هذا الموقف من صور بسبب تقاعس أهلها عن نصرة صيدا عندما دهمتها جيوش الفرس . ومع ذلك فعندما سقطت صور في يد الاسكندر ، وتعرض أهلها للقتل والتعذيب ، أشفق الصيداويون على إخوتهم الصوريين من بطش الاسكندر وتنكيله بهم ، فساعدوا الكثير منهم على الفرار الى صيدا . وبينما جعل الاسكندر صور حصناً مقدونياً وانتزع من حاكمها صفة الملك ، وجعله مجرد محافظ عليها ، نراه يبقى على الملكية في صيدا ويؤكد زعامتها على مدن فينيقيا .

(د) صيدون من الاسكندر الى الفتح العربي :

في الوقت الذي آلت فيه سورية والمدن الفينيقية بعد وفاة الاسكندر الى القائد اليوناني لاوميدون كان يحكم المدن الفينيقية حكام وطنيون ، ولكن بطليموس بن لاجوس المعروف بسوتر – وكان قد ظفر بحكم مصر – لم يلبث أن طمع في امتلاك الساحل الفينيقي بعد أن ضم اليه برقة في سنة ٣٢٢ ق.م ، اذ كان يسعى الى السيطرة على غاباته الغنية بأشجار الأرز والصنوبر لاستخدام أخشابها في بناء أسطوله ، تمهيداً لاصطناع سياسة بحرية[2] . ولم يلبث أن استولى على الساحل الفينيقي وسهل البقاع في سنة ٣١٩ ق.م ، وهكذا دخلت صيدا في فلك دولة بطليموس . غير أن هذا الوضع كان قصير الأمد ، فلم تكد تمضي خمس سنوات على ذلك حتى تمكن أنتيجوناس حاكم آسيا الصغرى من انتزاع فينيقيا من بطليموس ، واتخذ صيدا مركزاً له . ولم يكتف بذلك بل حاصر مدينة صور ، وتمكن من الاستيلاء عليها في سنة ٣١١ ق.م ، كما ارسل اسطوله الى قبرص واسترجعها من بطليموس . ثم عاود بطليموس

---

(١) Frederick, p. 69 – يوسف مزهر ، ج ١ ص ١١١ – فيليب حتي ، ص ١٩٨ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ١٩ .

الكرة ، فاستولى على المدن الفينيقية باستثناء صيدا التي ظلت موالية لأنتيجوناس ، ولكنها آلت بعد وفاته الى أملاك بطليموس ، وظلت تابعة للبطالمة زهاء ٨٨ سنة على الرغم من الصراع القائم بين هؤلاء والسلوقيين حول السيطرة على فينيقيا[١] . ومع أن صيدا لم تنعم إبان هذه المرحلة من الصراع بين البطالمة والسلوقيين بشيء من الاستقرار ، فإنها كانت تحتل المركز الأول بين المدن الفينيقية ، وكانت تضرب العملات باسمها ، ويتولى حكمها افراد من ابنائها[٢] . وظل الأمر كذلك إلى أن تمكن السلوقيون من السيطرة عليها في عهد أنطيوخوس الثالث الذي انتصر على البطالمة في موقعة بانياس سنة ١٩٨ ق. م ، وبادر بمحاصرتها ، وأرغمها على الاستسلام بعد أن عجزت عن مقاومته[٣] .

وعندما بدأ الإعياء والاضمحلال يسري في كيان الدولة السلوقية اخذت صيدا وغيرها من المدن الفينيقية تسعى الى الاستقلال عنها ، منذ سنة ١٢٥ ق. م حتى سنة ٦٧ ق. م ، ويسجل هذا التاريخ الأخير عودتها من جديد إلى الحكم السلوقي لأمد قصير . ونستدل من العملات الصيداوية التي وصلت الينا أن صيدا تحررت من سيطرة السلوقيين في سنة ١١١ ق. م[٤] .

ثم ظهر الرومان على المسرح السياسي في سورية ، فيما يقرب من سنة ٦٥ ق. م ، ولم تلبث سورية أن تحولت منذ سنة ٦٤ ق. م الى إقليم من أقاليم الامبراطورية الرومانية عاصمته أنطاكية[٥] . واحتفظت صيدا باستقلال جزئي في ظل حاكم عام يمثل الامبراطورية . وفي عهد يوليوس

---

(١) Frederick, p. 72 – فيليب حتي ، ص ٢٠٢ – منير الخوري ، ص ٨٢ .
(٢) فيليب حتي ، ص ٢٠٤ .
(٣) أسد رستم ، تاريخ اليونان ، ص ٩٦ .
(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٤ .
(٥) نجيب ميخائيل ، ص ٧٧ .

قيصر نعمت صيدا بالاستقرار وازدهرت من جديد . غير أنها لم تلبث أن فقدت أهميتها السياسية منـــذ أن حرم الامبراطور أغسطس صيدا وصور من حريتها في سنة ٢٠ ق.م ، ومع ذلك فقد واصلت المدينتان العريقتان نشاطهما التجاري والصناعي ، وكانت السفن الصيداوية والصورية تجوب البحر بلا خوف وتملأ مخازن التجار بما كانت توسق به من السلع والمتاجر[١] . وفي سنة ٢٠٣ م منح الامبراطور سبتميوس سفروس مدينة صيدا لقب مستعمرة ، ودخلت منذ سنة ٢٦٨ م في أملاك دولة تدمر العربية التي كان يحكمها وهب اللات بن أذينة عن طريق أمه زينوبيا ، ومن المعروف أن زينوبيا استغلت فرصة اضطراب أحوال الرومان ، بعد أن وقع الامبراطور فالريان أسيراً في قبضة شابور الأول بن أردشير الساساني في سنة ٢٦٠ ، وبعد مصرع الامبراطور جالينيوس في سنة ٢٦٨ ، وانتقال العرش الامـبراطوري الى أوريليوس كلوديوس ، وارتباك الاحوال السياسية في رومـــا بسبب غزو البرابرة للقسم الغربي من الامبراطورية الرومانية ، واخذت تطبق سياسة توسعية في آسيا الصغرى والشام ومصر[٢] ، ولكن تبعية صيدا لتدمر كانت موقوتة ، فلم تلبث أن عادت الى سلطـــان الرومان بعـــد أن انهزمت جيوش تدمر على أيدي جيوش الامبراطور أورليان في سنة ٢٧١ وسقوط تدمر في أيدي الرومان في سنة ٢٧٣ م .

وكانت المسيحية إذ ذاك قـــد انتشرت في البلاد السورية ورسخت قواعدها ، وأقبل الكثير من سكان الشام على اعتناقها ، ومن المعروف أن صيدا كانت من أولى المدن الفينيقية التي استجابت لتعاليم السيد المسيح ، يدل على ذلك أن قوماً من مسيحيي صيدا تكلفوا مشقة السير الى الجليل لسماع بشارة يسوع ومشاهدة معجزاتـــه ، « فانصرف يسوع الى البحر ليصحبه تلاميذه ، فتبعه جمع كبير من الجليـــل وجمع كبير من اليهودية

(١) Frederik, p. 77 – نجيب ميخائيل ، ص ٧٧ .
(٢) سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٨٣ .

ومن أورشليم وأدوم وعبر الأردن ونواحي صور وصيدا »[١] . وورد في الكتاب المقدس ما يشير الى أن السيد المسيح جـــاء الى نواحي صور وصيدا[٢] ، كما ورد أن العذراء قدمت الى مشارف صيدا واقامت في موضع قريب منها في انتظار وصول السيد المسيح الى صيدا ، وفي هذا الموضع أقيمت كنيسة للروم الكاثوليك سميت بكنيسة سيدة المنطرة ، وتقع على بعد خمس كـ . م جنوب شرقي صيدا في قرية مغدوشة[٣] . وفي سنة ٥٨ مر بصيدا القديس بولس الرسول وهو في طريقه الى ايطاليا[٤] .

ثم أصبحت صيدا في بـــداية القرن الرابع الميلادي مقراً أسقفياً ، واشترك أسقفها ثيودوروس في المجمع المسكوني الأول الذي انعقـــد في نيقية في سنة ٣٢٥ م[٥] . وفي سنة ٣٢٨ زارها الامبراطور قنسطنطين الأول ، وشاهد المغارة التي اقيمت عليها كنيسة سيدة المنطرة[٦] . وفي عهد الامبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠١ — ٤٠٥) انفصلت المناطق الشرقية المرتفعة من فينيقيا عن المناطق الساحلية لتسهيل عملية ضبطها ، وسميت المنطقة الساحلية بفينيقيا الأولى وعاصمتها صور ، ومن مدنها عكا وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعرقة وأرواد . أما فينيقيا الداخلية ، فقد سميت بفينيقيا الثانية أو فينيقيا اللبنانيـــة وعاصمتها حمص ، ومن أهم مدنها بعلبك ودمشق وتدمر[٧] .

---

(١) الكتاب المقدس : الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل ، بيروت ١٩٦٧ ، انجيل لوقا ، فصل ٦ : ١٧ ، ١٨ .

(٢) الكتاب المقدس : انجيل متى ، فصل ١٥ : ٢١ — ٢٨ ، انجيل مرقس ، فصل ٧ : ٢٤ — ٣١ .

(٣) فيليب حتي ، ص ٢٥٤ — منير الخوري ، ص ٩٢ .

(٤) الكتاب المقدس ، أعمال الرسل ، فصل ٢٧ : ٣ .

(٥) Frederick, p. 79 — فيليب حتي ، ص ٢٥٦ .

(٦) منير الخوري ، ص ١٠٣ .

(٧) فيليب حتي ، ص ٢٣٤ — يوسف مزهر ، ص ١٦٤

ولم نعد نطالع اسم صيدا بعد ذلك إلا فيما يختص بأساقفتها الذين كانوا يشتركون في المجامع الكنسية المسكونية ، وهكذا أخذت صيدا التي طحنتها النوائب والاحداث التاريخية تتوارى في ظلام النسيان ، وبدأت ساريبتا (الصرفند) التي تقع الى جنوبيها تزدهر وتتألق . ثم تعرضت صيدا في سنة ٥٥١ لزلزال عنيف سبب لها بعض الاضرار ، ولكنه لم يؤثر فيها كما أثر على بيروت التي دمرتها الزلازل تدميراً تاماً بحيث انتقلت إلى صيدا مدرسة الحقوق البيروتية لفترة عشرين عاماً . ويذكر أنطونيوس مارتير في رحلته إلى الاراضي المقدسة في سنتي ٥٦٠ ، ٥٧٠ أن صيدا كانت مخربة في أجزاء منها[١]. ثم تعرضت صيدا في سنة ٥٧٣ م من جديد لزلزال أشد عنفاً دمرها وقضى على البقية الباقية من عمرانها الزاهر، ولم يمض على هذا الزلزال ما يقرب من اثنتين وأربعين سنة حتى دخلتها الجيوش الفارسية بقيادة شهرباز في طريقها الى بيت المقدس في سنة ٦١٤ ، وظل الفرس يحتلونها حتى سنة ٦٢٨ عندما حررها الامبراطور هرقل ، ولكنها لم تبق طويلاً في أيدي البيزنطيين ، إذ افتتحها العرب في سنة ٦٣٧ م.

(٢)

المظاهر الحضارية

ذكر بومبونيوس ميلا في القرن الاول الميلادي أن الفينيقيين « كانوا جنساً حاذقاً ، نجحوا في الحرب والسلم ، ونبغوا في الكتابة والأدب وبعض الفنون الاخرى كقيادة السفن والحروب البحرية وفن حكم امبراطورية » ، ولا تتجلى شجاعتهم في الحروب في صراع القرطاجنيين الطويل مع روما فحسب بل في المقاومة الضارية التي بذلتها كل من صور وصيدا ضد البابليين والفرس واليونان ، وفيما بذله البحريون الفينيقيون

(١) Frederick, p. 79

الذين استخدمهم الفرس لمحاربة اليونان[١] من براعة في القتال البحري وما أبدوه من ضروب البسالة والإقدام.

أما الصيدانيون (أو الصيدونيون) فقد طبقت شهرتهم الآفاق في المجالين الصناعي والتجاري في كل من العصرين اليوناني والروماني، كما ذاعت شهرتهم في العلوم والمعارف، ونافسوا اليونان والرومان، فظهر منهم الشعراء والأدباء والفلاسفة وعلماء الرياضة والفلك.

(أ) تقدم الفنون الصناعية والحرف:

تذهب الأسطورة الشعبية في تفسير اسم صيدا إلى القول بأنها مدينة الصيد، على أساس أن أهلها اشتهروا عبر التاريخ بصيد السمك، وما زالت هذه الحرفة من الحرف الرئيسية عندهم في الوقت الحاضر. والحقيقة أن أهل صيدا عرفوا حرفاً أخرى صناعية هامة، وعلى الأخص ثلاث صناعات كان لها مكانة هامة بين صناعاتهم: صناعة النسيج، وصناعة التحف المعدنية، وأخيراً صناعة الزجاج[٢]. ونضيف إلى هذه الصناعات الثلاث صناعة أخرى اقترنت باسم الفينيقيين هي استخراج الأصباغ الأرجوانية من محارات الموريكس التي كانت تتوفر على الساحل قريباً من المدينة حيث ما تزال توجد على ساحلها الجنوبي اكوام منها. أما صناعة النسيج فقد ازدهرت في صيدا في الألف الأول قبل الميلاد، بل استمرت في العصرين الروماني والبيزنطي والعصر الإسلامي. لقد برع الصيدونيون في انتاج المنسوجات الصوفية التي كانوا يستوردون مادتها الخام من اقليم البقاع والأسواق العربية، والمنسوجات الكتانية التي كانوا يستوردون أتيالها من مصر. كذلك حذقوا صناعة الحلل الحريرية التي امتدحها هوميروس، فقد ورد في الإلياذة الكثير من العبارات التي تشير

---

(١) Donald Harden, pp. 19, 20

(٢) Frederick, pp. 121 - 122

الى القماش المطرز بالحليات والمصبوغ باللون الارجواني الذي كانت تنتجه صيدا ، منها أن « هكتور يدخل في قصر أبيه قادماً من ساحة المعركة فيخبر أمه هيكوبا بأن تقدم أجمل ثيابها الى الالهــة أثينا حتى ترحم مدينة طروادة وترحم نسائها واطفالهــا الأبرياء وتنقذهم من الإيجيين. فنزلت هيكوبا في المخزن المعطر الذي تودع فيه الحلل الجاهزة عمل نساء صيدون ، وهي الثياب التي احضرها الكسندروس بنفسه الى طروادة من ارض صيدون عابراً بها البحر الفسيح ... فالتقطت هيكوبا حلة منهـــا وأهدتها الى الإلهة أثينا ، وكانت أجمل الحلل رسماً واكثرها اتساعاً بحيث كانت تتألق كالنجم الساطع »[1] . كذلــك نوه هوميروس بشهرة صيدا في عمل الحرير وتزيينه بالنقوش وتصديره بعد ذلك عبر البحار[2]. وظلت المنسوجات الحريرية من السلع الرائجة في مدن الساحل السوري في العصر البيزنطي ، واشتغل ورثــة الفينيقيين بتصديره الى دول أوروبا : ففي القرن الخامس اشار سان جيروم الى أنهم كانوا تجاراً شجعاناً ، طــافوا العالم ، ولم تحد من نشاطاتهم الأخطار التي كانوا يواجهونها بسبب الغزوات البربرية ، وعندما شاع الترف في الغرب الأوروبي في الكنيسة وفي البلاط الميروفنجي (٤٤٥ — ٧٥١ م) بحث الرجال والنساء عن المنسوجــات الحريرية المصبوغة باللون الأرجواني لارتدائها ، ووجــد سكان سوريا في ذلك مجالاً مناسباً ليجنوا أرباحاً طائلة ، ولم يكتفوا بمجرد الطواف في البلاد ، وإنما استقروا في مدن الجنوب مثل بوردو وأربونة ومدن الشمال مثل أورليان وتور ، واختلطوا بالسكان ، واعتبروا هناك من أهل البلاد ، وفتحت نشاطاتهم أسواقاً جديدة لتجارة المنسوجات الحريرية[3] . وكانت صيدا الى جانب ذلك تزود القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطيــة

---

(١) Helga Seeden, Coastal Lebanon, p. 62

(٢) Homère, Iliade, t. IV, trad. Paul Mazon, Paris, 1938, ch. XXIII, p. 127

(٣) Maurice Chehab, Rôle du Liban dans l'histoire de la Soie, Beyrouth, 1967, pp. 17 — 18.

في زمن جستنيان بالمصنوعات المختلفة كالنسيج[١] ، لا سيما المنسوجات الحريرية المصنوعة في الصين والهند والتي كانت تصبغ باللون الارجواني ، فيقبل عليها الأباطرة انفسهم ورجال الكنيسة[٢] . ثم عرف البيزنطيون سر صناعة الحرير الطبيعي ، وأقاموا مصانع لتحويل شرانق الحرير الى نسيج حريري في سوريا وسواحل فينيقيا . وعندما فتح العرب الشام وجدوا دور طراز لصناعة المنسوجات الحريرية في بيروت وصيدا وأرواد[٣] .

كذلك يمتدح هوميروس ذوق الصيدونيين ومهارتهم في الأعمال اليدوية الدقيقة خاصة في صناعة الأقداح الفضية التي لا نظير لجمالها في العالم[٤]. ومن المعروف أن الفضة والذهب كانا يردان من الحبشة واليمن عن طريق المعينيين والسبئيين . وذاعت شهرة الصيدونيين في استخراج الأصباغ الارجوانية والقرمزية والحمراء والبنفسجية من محارات الموريكس والباكسينيوم المشهورة التي تكثر على سواحل صور وصيدا وساريبتا ، فأسسوا المعامل لتصنيعه واستخدامه في صباغة المنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية ، وما زالت بقايا اصداف الموريكس متراكمة في أكوام على طول الساحل الجنوبي من صيدا . وكانت تقع الى شمال صيدا مدينة تسمى فورفيريون أي مدينة الارجوان تخصص اهلها في تصنيع الأصباغ الارجوانية[٥] . ولم تكن عملية صيد القواقع واستخراج الاصباغ منها وتثبيت ألوانها بالمواد الكيميائية أمراً هيناً ، ومن هنا ارتبط اسم الصيدونيين بالفينيقيين في العصر القديم ، بل إن كلمة فينكس Phœnix وهي المقطع الأول من لفظة فينيقيا تعني اللون الأحمر ، كما أن كلمة

---

(١) E. Gibbon, The history of the decline and fall of the Roman empire, London, 1903, vol. V, p. 56.

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ٣٠٦ .

(٣) جستون دوكوسو ، تاريخ الحرير في بلاد الشام ، مجلة المشرق ، السنة ١٥ ، بيروت ١٩١٢ ص ٢٨٥ .

(٤) Dictionnaire de la Bible, p. 1705

كينع في الفينيقية وكنعان في العبرية وكناجي في الحورية تعني الحمرة الارجوانية[1]. وكانت هذه الصناعة من الاهمية بحيث كانت سبباً في اشتهار صيدون بصناعة المنسوجات . ومن المعروف أن الثياب الارجوانية كانت من افخر ما يلبسه علية القوم والكهنة والقادة في العصر الروماني والبيزنطي .

كذلك برع الصيدونيون في صناعة الزجاج الشفاف غير الملون ، والملون ، والقاتم الذي يشبه الخزف ويسمح بنفاذ الضوء ، والزجاج الذي لا يخترقه الضوء[2]. وكان زجاج صيدا في معظمه من النوع المصبوب صباً لأن طريقة النفخ لم تكن قد عرفت عندهم بعد ، وعندما شاعت طريقة النفخ ظلت الطريقة التقليدية الاولى تسير جنباً الى جنب مع الطريقة الجديدة[3]. ويؤكد بلنيوس سيجندوس هذه الشهرة التي حظيت بها صيدا في صناعة الزجاج بل إنه ينسب إليهم ابتكار الزجاج والمرايا الزجاجية[4]. ولكن ما أسفرت عنه الحفريات الأثرية في مصر تدل على أن المصريين القدامى عرفوا هذه الصناعة قبل الفينيقيين بعهود طويلة[5]. ويعتقد الدكتور محمد غلاب أن مادة النطرون التي تدخل في صناعة الزجاج كانت متوفرة في مصر ولم تكن تتوفر في فينيقيا ، ويرجح أن الفينيقيين تعلموها من مصر وأنهم كانوا يستوردون هذه المادة من مصر ثم توسعو في صناعة الزجاج على نطاق واسع حتى أصبحت صيدا والصرفند وصور اكبر مراكز صناعة في حوض البحر المتوسط[6]. ويعلق الاستاذ رينيه

---

(١) نجيب ميخائيل ، ص ٤٧ — محمد غلاب ، الساحل الفينيقي ، ص ١٧

(٢) Joseph Michel Chami, De la Phénicie, 1967, p. 74

(٣) فيليب حتي ، ص ٢١٥

(٤) Pliny, Natural history, vol. X, libri XXXVI, éd. E. Eichholz, London, 1962, p. 153

(٥) Frederick, p. 122

(٦) محمد غلاب ، ص ٤٤٢

ديسو على ما ذكره بلنيوس من ابتكار صيدا للزجاج بقوله : « إذا كان المصريون قد ابتكروا عجينة الزجاج القاتمة ، فإن الزجاج الرقيق الشفاف من ابتكار الفينيقيين » ، ويضيف أن أهل صيدا ابتكروا الزجاج المنفوخ الذي يزودنا بتحف زجاجية رقيقـــة وشفافة ، ويشير الى أن الصناع الصيداويين في العصر الروماني سجلوا أسماءهم على تحفهم ، ومن هـــذه التوقيعات عرفنا أسماء صناع صيداويين أمثال أريستون وأرتاس وايرانيوس وابنيون وميجيس ونيكون وتريفون وجازون[١]. وقد أشار استرابو إلى أنه « يوجد بين عكا وصور ساحل رملي يتوفر فيه رمــل من نوع معين يستخدم لصناعة الزجاج ، وكانت هذه الرمال تحمل إلى صيدا وتصهر هناك. ويقال إن الصيدونيون تتوفر لديهم الرمال المخصصة لصناعة الزجاج وإن كان هناك من يقول بأن الرمال في أي مكان تصلح لهذه الصناعة »[٢]. وكانت مصانع الزجاج الصيدوني يكثر وجودها في ساريبتا ، وقــد عثر فيها على كميات كبيرة من قطع الزجاج الملون ، ومن المعتقد أن كثرة هذه القطع في هذا الموضع يؤكــد أنها كانت بقايا مصنع للزجاج أقيم في تلك البلدة[٣].

وعرف أهــل صيدا أيضاً صناعة التحف الخزفية ، ولكنهم لم يصلوا في إجادة صناعتها إلى ما وصلت إليه الشعوب الأخرى التي اشتهرت بهذا النوع من الصناعة كالصينيين واليونان والمصريين ، وذلك لعدم توافر مواد صلصالية جيدة في متناول أيديهم[٤].

وإلى جانب هـــذه الفنون الصناعية برع الصيدونيون في فن الملاحة البحرية ، وزودتهم غابات الأرز والشربين في سفوح جبال لبنان بما كانوا

(١) René Dussaud, un nom nouveau de verrier sidonien, dans Syria, t. I, Paris, 1920 p. 230

(٢) Strabo, VII, p. 273

(٣) Frederick, p. 122 – محمد غلاب ، ص ٤٤٢

(٤) محمد غلاب ص ٤٤٣ – منير الخوري ، ص ٣٢

يحتاجون إليه من أخشاب لصناعـــة السفن[1]. وكانوا يقطعون أخشاب الأرز من أعالي الجبال ، ويلقون بها إلى مجاري الانهار ، فتجرفها السيول أمامها في موسم الشتاء لتصل الى مصاب الانهار ، فيستخدمونها لصناعـة مراكبهم[2]. ويشير هيرودوت إلى شهرة صيـــدا قديماً في فن الملاحة ، فيذكر أنه اشتهر من بينهم القائد تترامنستوس الصيداوي بن أنيسوس[3]، وفي موضع آخر يذكر أن الملك الفارسي أحشويرش انتقل من عربته إلى سفينة صيداوية وجلس تحت خيمة مذهبة[4].

(ب) النشاط التجاري :

ساعـد موقع صيدا البحري وكثرة مرافئها على أن تصبح في التاريخ مركزاً هاماً للتجارة البحرية ، كما ساعـد توفر أخشاب الأرز والصنوبر والشربين أهل صيدا على احتراف الملاحة البحرية ، وهي ضرورة لازمة للشعوب التجارية وكان لذلك نتائج هامة في توجيه أهل صيدا إلى الطواف في مرافئ البحر المتوسط واحتكاكهم بالشعوب المجاورة واتصالهم بالجزر البحرية الهامة مثل كريت وقبرص وصقلية . وكانت التجارة هي الحرفة الرئيسية للفينيقيين وعلى الأخص الصيداويين والصوريين ، فمن المعروف أن تجار صيدا وصور كانوا وسطاء عالميين للتجارة ، انتشروا في العالم القديم شرقاً وغرباً ، وحملوا معهم إلى الأسواق الاوروبية سلع الشرق كالعطور العربية اليمنية والتوابل الهندية والمنسوجات الحريرية الصينية والمنسوجات الصيداوية الصوفية والكتانية المصبوغة باللون الأرجواني والقرمزي ، والتحف المصنوعة من الزجاج والتحف المعدنية المصنوعة من الفضة والذهب والنحاس ، والتحف العاجية . وقـــد عثر على بعض التحف الزجاجية تحمل توقيعاً

---

(١) يوسف مزهر ، ج ١ ص ٢١

(٢) فيلب حتي ، ص ١٣٦

(٣) Herodotus, t. III, Book VII, trans. Godley, London, 1963, p. 98

(٤) Ibid. p. 100

للصانع الصيداوي اينيون في مواضع مختلفة مثـــل مصر وقبرص وشمال إيطاليا بل في جنوبي الروسيا[1].

ويشير هوميروس في أشعاره الى أهمية صيدا كمدينة تجارية ، ويمتدح تجارتها في المنسوجات والنحاس والرقيق ويذكر أنها من اختصاص مدينة صيدا[2] . كذلك تشير أشعار هوميروس الى الصلات التجارية التي تربط فينيقيا باليونان ، فيذكر أن سفن صيدا كانت تعبر البحر المتوسط في كل اتجاه . أما ديودور الصقلي فينوه بثروات أهل صيدا الفاحشة التي جنوها من الاشتغال بالتجارة[3] .

وظلت صيدا تمد الأسواق العالمية بزجاجها الذي حاز شهرة تجاوزت كل تقدير ، ومنسوجاتها الحريرية والصوفية ، وفي نفس الوقت واصل أهل صيدا ممارسة حرفتهم الرئيسية كوسطاء للتجـارة بين الشرق والغرب ، فكانوا هم والصوريون والأرواديون وغيرهم من اهـــالي الساحل الفينيقي يحملون السلع القادمة من اليمن عبر الطريق التجاري البري الذي يربط اليمن بالشام ومصر ماراً بتيماء ومدين وديدن ومعون كالطيوب واللبان والذهب الأثيوبي والجزع اليمني والعقيق والعاج والأبنوس والتوابـــل واللآلىء[4] . وكانوا يحملون هذه السلع الى بلاد غالة وايطاليا ودلمـاسيا وأوستيا وغيرها ، وقد عثر على كتابات يونانيـــة ولاتينية تؤكد وجود تجار من صور وصيدا وبيروت في هذه المناطق في العصر الروماني[5] .

(ج) الحركة العلمية والأدبية :

والى جانب شهرة صيدا في الفنون والصناعات وما ناله أهلهـــا من

(١) فيليب حتي ، ص ٢٤٣

(٢) فيليب حتي ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) Frederick, p. 116

(٤) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ٨٧ وما يليها .

(٥) يوسف مزهر ، ج ١ ص ١٤٦ .

شهرة في التجارة ، كانت مركزاً علمياً زاهراً خاصة في العصرين اليوناني والروماني ، ففيها تقدمت الآداب ، وتألقت الحياة العقليــة ، وبرع من أبنائها شخصيات بارزة في علوم الفلك والرياضيات واللاهوت والفلسفة .

أما فيما يختص بالآداب فقد نبع فيها الشاعر انتيباتر الصيداوي الذي عاش في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان في نفس الوقت فيلسوفا أبيقوريا[١] . ومن شعراء صيدا وفلاسفتها البارزين في القرن الأول قبل الميلاد بوثيوس الذي تلقى استرابو على يديه فلسفة أرسطو[٢] . وفي مجال الفلسفة ظهر في القرن الثاني الفيلسوف بوثيوس الصيداوي الذي أسهم في نشر الأفكار الرواقية ، وريبون الصيداوي في أواخر القرن الثـــاني ، وكان من اشد أنصار المدرسة الأبيقورية في أثينا ، وبوثيوس الصيداوي الشاعر الفيلسوف وكان من أتباع المدرسة الأرسطوطالية[٣] . وفي ميدان الفلك والرياضيات يمتدح استرابو مهارتهم التي ساعدتهم فيما نالوه من شهرة في مجال الملاحة البحرية والتجارة[٤] ، وفي العلوم الدينية ظهرت شخصية القديس زنوبيوس أسقف صيدا الذي صنف كتاباً عن سورية المقدسة[٥] .

وعندما دمر زلزال سنة ٥٥١ م مدينة بيروت وخرب معهد الحقوق المشهور الذي اسسه الامـــبراطور سبتميوس سفروس انتقلت الدراسات القانونية الى صيدا حيث قام اساتذة القانون البيروتيون بتدريسها فيهـــا فترة من الوقت[٦] . أما في الطب ، فالظاهر أنه كان متقدماً بصيدا ، بحيث اتخذت مركزاً لعبادة الإله أشمون إله الطب والشفاء ، وقد رمز له بثعبانين يلتفان حول عصا ، والثعبان يرمز الى الحياة الطويلة والصحة ،

---

(١) فيليب حتي ، ص ٢٢٣
(٢) Strabo, VII, p.271
(٣) فيليب حتي ، ص ٢٢٢
(٤) Strabo, VII, p. 269
(٥) منير الخوري ، ص ١٠١
(٦) فيليب حتي ، ص ٢٨٤

وقد اقترن اسم أشمون بالإله اسكلبيوس ، بـل إن اسم اسكلبيوس من الاسماء التي عرف بها نهر الأولي ، حيث اقيم في جنوب هذا النهر قرب مصبه معبد لأشمون يرجع تاريخه الى القرن الخامس ق. م ، عثر على بقاياه في سنة ١٩٠٠ ، واكتشفت في هذا المعبد عدة تماثيل غاية في الروعة والجمال تمثل أطفالاً تم شفاؤهم في صيدا[١] .

(د) الآثار الباقية :

اكتشفت في منطقة صيدا ونواحيها آثار عديدة ذات طـابع ديني وجنائزي وأخرى مدنية أن نحددها في ثلاثـة مواضع رئيسية هي : الجبانة الجنوبية ، والجبانة الشرقية ، وموقع معبد أشمون . أما الجبانة الجنوبية فقد تم الكشف عنها في يناير سنة ١٨٥٥ بمحض الصدفة ، فبينما كان بعض الوطنيين يقومون بالحفر بالقرب من مغارة أبلون الواقعـة في عين الحلوة جنوب غربي المدينة ، عثروا على تابوت نقشت على غطائـه كتابات فينيقية تتألف من ٢٢ سطراً ، تتضمن اعمـال أشمونعزار الثاني ملك صيدا فيما بين عامي ٤٢١ – ٣٩٦ ق. م[٢] الهامة مثل تشييد معبد عشتروت ومعبد بعل . وقد اهتم علماء الآثار وقتئذ بهـذا الاكتشاف ، وقدم العالم الفرنسي رينان الى صيدا في سنة ١٨٦٠ ، وأجرى في الموضع الأثري حفريات اسفرت عن كشف عدد من التوابيت . ثم تتـابعت الحفريات بعد ذلك بإشراف مكريدي بك والعالم الفرنسي كونتينو .

أما الجبانة الشرقية فقد تم الكشف عنها في محلة قياعة الواقعة الى الشرق من صيدا ، واستخرج منها في سنة ١٨٨٧ عدد كبير من التوابيت القيمة من بينها تابوت الملك تبنيت بن أشمونعزار الأول (٤٥٧ – ٤٢١ ق. م) واربعة توابيت يونانية من الرخام اروعهـا جميعاً تابوت يسمى

---

(١) Joseph Michel Chami, de la phénicie, p. 81

(٢) Frederick, p. 138 – منير الخوري ، ص ٦٧

بتابوت الاسكندر[1] ، وسمي كذلك لأن النقوش التي تزدان بها جوانب التابوت تمثل حروب الاسكندر ، والتابوت الثاني يعرف بتابوت المرزبان، والثالث بالتابوت الليقي والرابع بتابوت النائحات[2] .

أما معبد أشمون فقد أسسه أشمونعزار للإله أشمون إله الشفاء ، وقد كشف عنه في سنة ١٩٠٠ على الضفة الجنوبية من نهر الأولي بالقرب من مصبه ، في بستان يسمى بستان الشيخ[3]. وفي هذا المعبد عثر على ١٣ تمثالاً من المرمر الوردي لأطفال قدموا الى معبد أشمون وهم مرضى وتم شفاؤهم هناك . ويتألف المعبد من جدار مستطيل الشكل مبني من كتل حجرية ضخمة ، ولكنها مصقولة ، يبلغ طوله من الشرق الى الغرب ٦٠ متراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٤٤ متراً . وفي وسط البقعة التي يضمها السور كان يقوم هيكل الإله أشمون ، ومن المعروف أن الملك بدعشترت أضاف إلى معبد أشمون إضافة إلى أعمال جده[4]. وقد تعرض هذا المعبد للتخريب في عهد الملك الفارسي ارتحششتا الثالث أوخوس الذي تسبب في إحراق أهل صيدا لمدينتهم .

وبالاضافة إلى الآثار السابقة كشف في صيدا أيضاً عن آثار فورم روماني وبازيليكية ، كما كشف كذلك عن مبنى للمجلس البلدي[5].

(١) موريس شهاب ، الاسكندر الكبير في صيدا ، مجلة المشرق، السنة ٢٧ ، بيروت ١٩٢٩
(٢) غالب الترك ، ص ٨٨ - دليل صيدا الاثري ، ص ٦١ .
(٣) Baramki p. 109
(٤) مزهر ، ج ١ ص ٨٤
(٥) Bruce Condé, See Lebanon, p. 245

الفصل الثاني

العصر الاسلامي الأول

١٦-٥٠٤ هـ / ٦٣٨-١١١٠ م

١ – صيدا من الفتح العربي حتى الفتح الفاطمي

(أ) الفتح العربي وتحصين صيدا بالقلاع .

(ب) صيدا في العصرين الأموي والعباسي الأول .

(ج) صيدا في العصرين الطولوني والإخشيدي .

٢ – العصر الفاطمي : أزهى عصور صيدا الاسلامية

(أ) موقف صيدا من الأحداث السياسية في الشام بعد الفتح الفاطمي .

(ب) صيدا بين شقي رحى .

(ج) استقرار الأوضاع في صيدا في عصر العزيز بالله والحاكم بأمر الله.

(د) اضطراب الأحوال في صيدا من ٤١٥ هـ إلى ٥٠٤ هـ .

(هـ) ازدهار صيدا في العصر الفاطمي .

الفصل الثاني

العصر الاسلامي الأول

١٦-٥٠٤هـ / ٦٣٨-١١١٠م

(١)

صيدا من الفتح العربي حتى الفتح الفاطمي

(أ) الفتح العربي وتحصين صيدا بالقلاع :

تعتبر مدينة صيدا في مقدمة مدن الساحل الشامي التي افتتحها يزيد ابن أبي سفيان بعد أن استخلفه أبو عبيدة بن الجراح على دمشق. وكانت صيدا من أعمال دمشق ولذلك عهد إليه أبو عبيدة بفتحها مع غيرها من المدن الساحلية التي تتبع إقليم دمشق مثل عرقة وجبيل وبيروت ثم طرابلس التي افتتحت فيما بعد في خلافة عثمان بن عفان[1]. أما سواحل الأردن فقد تعاون في فتحها كل من يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، واشترك معهما معاوية، وأبلى في ذلك بلاءً حسناً[2]. وتشير المصادر العربية إلى

---

(١) استعصت طرابلس على المسلمين في ولاية يزيد بن أبي سفيان لمناعتها ووثاقة تحصيناتها، فأرجأ يزيد فتحها الى فرصة أخرى مواتية. فلما توفي يزيد في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق والساحل، وجه معاوية لفتح طرابلس القائد سفيان بن مجيب الازدي في خلافـــة عثمان بن عفان، فافتتحها فيما يقرب من سنة ٢٥ هـ (راجع : السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٥،٣٦)

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجـــد، القاهرة ١٩٥٧ ج ١ ص ١٣٩

أن معاوية بن أبي سفيان اشترك في فتح صيدا وسواحل دمشق ، وأنه كان في مقدمة الجيش العربي الاسلامي الذي وجه لفتح الساحل ؛ فالبلاذري يذكر أن « يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل ، وعلى مقدمته أخوه معاوية ، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها »[1] . ويورد ابن الأثير نفس النص مع بعض التغيير الطفيف ، فيشير فقط الى مضي أبي عبيدة إلى فحل وقيام يزيد بغزو صيدا وصور وسواحل دمشق الاخرى[2] . ويؤكد البلاذري أن يزيد ابن أبي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق ، باستثناء طرابلس التي لم يكن يطمع فيها وقتذاك ، ففتح معاوية هذه السواحل فتحاً يسيراً ، « فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة ، فربما قوتل قتالاً غير شديد ، وربما رمى ، ففتحها »[3] .

ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ فتح صيدا ، فابن الأثير يذكر هذا الحدث في جملة حوادث سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م.) والبلاذري لا يذكر تاريخ قيام يزيد بن أبي سفيان بهذا الفتح ، وإنما يشير إلى أن ذلك تم بعد فتح دمشق . ومن المعروف أن فتح دمشق تم في رجب سنة ١٤ هـ[4] (٦٣٥ م) . أما فيما عدا ذلك فليس لدينا من النصوص ما يشير الى تأريخ محدد لهذا الفتح . ومن الثابت أن فتح سواحل دمشق باستثناء طرابلس ، تم الفراغ منه في آخر سنة ١٦ هـ[5] ، أو أوائل سنة ١٧ هـ ، لأن عام

(١) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ص ١٥٠

(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ مجلد ٢ ص ٤٣١

(٣) البلاذري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥٢

(٤) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ٢ ص ١٤٠ . وذكر الطبري نقلاً عن ابن إسحق والواقدي أن دمشق فتحت في سنة ١٤ هـ (تاريخ الامم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، ج ٤ بيروت ، ص ٥٩)

(٥) صالح بن يحيي ، تاريخ بيروت ، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي ، دار المشرق ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٢

١٨ هـ (٦٣٩ م) شهد طاعون عمواس الذي توفي بـه نحو خمس وعشرين ألفاً من المسلمين ، ولذلك لا نستبعد أن يكون يزيد قـد فرغ من فتح صيدا في سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م)[١] .

ولم يلبث البيزنطيون في عهد قنسطانز الثـاني أن تغلبوا على بعض سواحل الشام في بداية خلافة عثمان بن عفان (سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٤ م) ، ولكن معاوية ، تصدى لهم واستردها ، ثم رمم قلاعها ، وشحنها بالمقاتلة ، ووزع عليهم القطائع[٢] . وليس لدينا ما يؤكد أن صيدا كانت في جملة هذه المدن الساحلية التي تغلب عليها البيزنطيون ، ثم استردها معاوية ، على أننا لا نشك في أن صيدا حظيت باهتمام معاوية ، فعني بتحصينها في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، فما إن توفي أخوه يزيد في عام عمواس حتى أسند اليه الخليفة الراشد عمر ولاية دمشق بسواحلها بالاضافة الى فلسطين ، ولكن عمر فصل القضاء عن السلطـة الادارية ، فولي مع معاوية ابا الدرداء الصحـابي قضاء دمشق والاردن وصلاتها ، وعبادة بن الصامت قضـاء حمص وقنسرين وصلاتها[٣] . وكانت معظم سواحل دمشق قد تخربت قلاعها ودثرت تحصيناتها ، فكتب معاوية الى عمر بعد أن اسندت اليه ولاية الشام بطبيعة الحال في سنة ١٨ هـ يصف له حال السواحل ، وما تحتاج اليه حصونها وقلاعهـا من مرمة وتجديد ، فأمره عمر بترميم حصونهـا « وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها »[٤] . ويبدو ايضاً أن معاوية تباطأ في ترميم هذه القلاع ، وأنه لم يكن قد فرغ من هذه المهمة عندما دهمـه

(١) يخص السيد منير الخوري في كتابه « صيدا عبر حقب التاريخ » صيدا بالذات عند تعرضه لذكر تغلب الروم على السواحـل ، كما يخصها بالذكر عند حديثه عن استرداد المسلمين لها (ص ١٢٦) . ولا ادري من أي مصدر استقى المؤلف هذه الاخبار عن صيدا .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٠ – ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٣١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٦٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

البيزنطيون بغزوهم لهذه السواحل في بداية خلافة عثمان بن عفان . فلما تمكن معاوية من إجلائهم عنها كتب اليه عثمان بن عفان يأمره « بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياه القطائع ففعل »[١] . ومنذ ذلك الحين كثر وفود المسلمين الى السواحل الشامية للرباط .

وهكذا التزم معاوية بادىء ذي بدء بتطبيق سياسة دفـــاعية عن السواحل لمواجهة الخطر البيزنطي على الثغور الشامية تمهيداً لتطبيق سياسة بحرية هجومية دعامتها الأساطيل ، فاهتم بتحصين السواحـل متوسلاً في ذلك بوسائل برية ، عن طريق مرمة حصونها واسوارهـا وترتيب المقاتلة فيها ، وتنظيم الحراس على مناظرها[٢] ، وإقامة الاربطة او المسالح او المناظر وشحنها بالمرابطة لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون في البحر والانذار باقتراب العدو ليلاً عن طريق ايقاد النار في مواقيـــد بأعلاها ، تنبيهاً للمرابطة والحراس بالخطر الوشيك[٣] .

وليس لدينا من النصوص التاريخية ما يشير الى قيامه بترميم تحصينات صيدا بوجه خاص ، ولكننا نفهم ضمناً أن صيدا كانت من بين المدن الساحلية التي حظيت باهتمامه ، فقد كانت على الأقل من أهم ثغور دمشق ، على أن البلاذري عندما يعدد اسماء المدن التي رممها معـــاوية لا يذكر صيدا من بينها ، وإنما يذكر مدينتين رئيسيتين همـا عكا وصور[٤] اهتم بترميم قلاعها قبيل ركوبه البحر غازيـاً الى قبرص . ولعل إغفاله لذكر صيدا يرجع الى أنها لم تكن على مستوى مدينتي عكا وصور من حيث الأهمية الدفـــاعية ومن حيث الاتساع العمراني ، وإن كان يعمم نزول جند العرب في جميع سواحل الشام .

---

(١) البلاذري ، نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

(٢) Cheira, la lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 85

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ٦٤ .

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ .

ونستخلص من كل ما سبق أن صيدا – شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الساحل الفينيقي القديم – لقيت اهتماماً خاصاً من الخليفتين الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بترميم قلاعها وابراجها، وأن ذلك تم بنظر معاوية وهو بعد عامل على الشام. ولا ينبغي أن ننسى أن صيدا بالذات تعرضت للتخريب والتدمير في كثير من مراحل تاريخها القديم، وأنها ظلت بدون اسوار تحميها فترة طويلة من الزمن منذ أن احرقها اهلها في سنة ٣٤٦ ق. م. أما صور فقد تركها الاسكندر الأكبر في سنة ٣٣٢ ق. م اطلالاً دارسة بعد أن خرب بنيانها ودمر تحصيناتها. ثم إن الصراع طويل الأمد الذي نشب بين خلفائه في مصر وسورية من اجل التنافس في السيطرة على الساحل الفينيقي واستمر حتى قدوم الرومان في سنة ٦٤ ق. م، وتعرض صيدا للغزو من قبل السلوقيين حيناً والبطالمة حيناً آخر لم يفسح المجال امام ولاتها ليرمموا ما خربته الحروب ويعيدوا بناء المدينة التعسة التي نزلت في العصر الروماني من عداد المدن الكبرى الى مصاف المدن الصغرى، وفقدت اهميتها، وذابت شخصيتها حتى الفتح العربي عندما ألحقت بكورة دمشق واصبحت من الثغور الهامة في العصر الاسلامي. ولا يمكننا أن نقبل بأي حال من الأحوال مزاعم بعض الباحثين الذين يجردون من العرب كل فضل في إعادة تحصينها، ومن بينهم الأستاذ فيليب حتي الذي يؤكد أن حصونها لم تبن ثانية منذ استحالة المدينة الى ركام من رماد في عهد ارتحشستا الثالث أوخوس حتى زمن الصليبيين[1]، وروبين فيدين الذي يذهب الى القول بأن صيدا الفينيقية «في رقعة ارضها بنيت وأعيد بناؤها قرناً بعد قرن وتخربت مراراً، ولكن درجات تخريبها ووسائل ذلك تغيرت عبر التاريخ، فالأشوريون سووها بالأرض، والفرس أحرقوها بالنار والعرب في حالتين ازالوا اسوارها»[2]. وليس لدينا ما نرد به على هذه الافتراءات

(١) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص ٦٤.

(٢) Robin Fedden, Syria, London, 1954, p. 48

والأقوال الظالة سوى أن نذكر نصاً كتابياً هاماً عثر عليه في صيدا يشير الى بناء برج بأمر من الوزير الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمي المستعلي بالله على يد الأمير سعد الدولة ابو منصور اشتكين الافضلي في سنة ٤٩١ هـ[١] (١٠٩٧ م) أي قبل وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام بعام واحد ، او الرجوع الى نص المقدسي البشاري الذي يؤكد أنها مدينة حصينة على الساحل في زمنه[٢] (ت ٣٨٧ هـ) ، او الى نص ورد في سفر نامة للرحالة الفارسي ناصر خسرو في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أي قبل وصول الحملة الصليبية الأولى بنحو نصف قرن يذكر فيه أن لصيدا سور حجري محكم[٣] ، او الى ما ذكره الجغرافي المغربي الإدريسي (ت ٥٦٠) الذي شاهد على صيدا سوراً من الحجارة[٤] .

(ب) صيدا في العصرين الاموي والعباسي الاول :

دخلت صيدا منذ أن افتتحها المسلمون حتى نهاية عصر المماليك في نطاق إقليم دمشق ، واصبحت كورة من إقليم دمشق الذي كان يضم إقليم سنير وكورة جبيل وبيروت وصيدا وبثنية حوران وجولان وظاهر البلقاء وجبرين الغور ، وكورة مآب وكورة جبال وكورة الشراة وبصرى عمان والجابية والقريتان والحولة والبقاع[٥] ، كما أن ساحلها كان من بين

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t. 8, p. 40

(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة ليدن ، ١٩٠٦ ص ١٦٠ — Le Strange, Palestine under the Moslems, Beirut, 1965, p. 32 . وراجع ايضاً ما ذكره الدمشقي الذي كتب في سنة ١٣٠٠ م اذ يذكر أن مملكة دمشق كانت تضم تسعين إقليماً من بينها صيدا (الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن ، ليبزج ١٩٢٨ ص ٢٠١)

(٣) ناصر خسرو علوي ، سفرنامة « النص الفارسي » طبع برلين ، ١٣٤٠ هـ ، ص ٢٠.

(٤) Idrisi, Palaestina and Syria. p. 15

(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٦ ص ١٠٥ — ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥، ص ١٠٥

سواحل المدن الست التي تتبع دمشق وهي صيدا وبيروت وطرابلس وعرقة وصور[1]. وذكر المقدسي من مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس وعرقة وناحية البقاع ومدينتها بعلبك[2].

نزل صيدا منذ الفتح جماعة من قريش ومن اليمن[3]، وهو أمر كان يحدث في معظم المدن التي افتتحها المسلمون عندما كانت تختط فيها القبائل العربية التي أسهمت في الفتح. أما البلديون من أهل صيدا القدامى فقد حرص معاوية على إجلائهم عن المدينة إلى مواضع أخرى عيّنها لهم، على أن يحل محلهم قوم من الفرس استقدمهم معاوية من فارس، وفي ذلك يقول اليعقوبي: «إن جبيل وصيدا وبيروت وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان»[4]. والظاهر أن صيدا لم تكن وحدها التي طبق فيها هذا التبديل السكاني، لأن البلاذري يشير إلى حركة تبديل سكاني أخرى حدثت وهو خليفة، إذ نقل «قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها سنة اثنتين وأربعين، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة، فكان من قواد الفرس مسلم بن عبدالله، جد عبدالله بن حبيب بن النعمان ابن مسلم الانطاكي»[5]. ونستنتج من هذا النص أن بعلبك وحمص استوطنها قبل سنة ٤٢ هـ أقوام من الفرس. والظاهر أيضاً أن معاوية حذا في سياسته السكانية، إذ أحل عناصر فارسية وعراقية محل عناصر وطنية، حذو

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان ص ١٠٥

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٤

(٣) اليعقوبي، كتاب البلدان ص٣٢٧ – Marmardji, Textes géographiques arabes sur la Palestine, Paris 1951, p. 125

(٤) اليعقوبي، ص ٣٢٧ – Marmardji, op. cit. p. 125 – صلاح الدين المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣٢٧

(٥) البلاذري، ج ١ ص ١٣٩

أسرحدون الأشوري عندما افتتح صيدا بالسيف في سنة ٦٧٨ ق. م ودمر منازلها ، ونقل قسماً كبيراً من أهلها الى بلاده ، وأحل محلهم قوماً من الفرس استقدمهم من شرقي الامبراطورية الأشورية[١]. ولعل معاوية كان يهدف من وراء هذه الحركة إلى تمييع الشعور القومي عند سكان هذه السواحل الموالين للبيزنطيين حتى لا ينتقضوا مجدداً على المسلمين كما حدث في الاسكندرية في سنة ٢٥ هـ[٢] (٦٤٥ م) ، وكما حدث في طرابلس في أول خلافة معاوية[٣]. مما اضطره الى اصطناع سياسته السكانية التي أشرنا إليها ، أو لعله كان يسعى الى تمكين الدفاع البري عن السواحل أو لحراسة هذه السواحل من غزوات المردة الذين دفعهم أباطرة بيزنطة على غزو إقليم البقاع والتنغيص على المسلمين في بلاد الشام ، ولهذا السبب استقدم جماعات الفرس والأساورة المذكورة وأنزلهم في السواحل ، ومنهم الأمراء الارسلانيون والتنوخيون الذين حكموا بيروت والساحل[٤] ، وإن كان هناك من ينسب أعيان التنوخيين والأرسلانيين[٥] الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي ، ويرجعون تاريخ قدومهم من العراق في صحبة خالد بن الوليد الى سنة ١٣ هـ التي قدم فيها الى بصرى لنجدة أبي عبيدة بن الجراح[٦]. وقد

---

(١) Frederick p. 81 — نجيب ميخائيل ، ص ١١٥ — يوسف مزهر ، ج ١ ص ٥٠

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٦٣

(٣) طرابلس الشام ص ٣٧

(٤) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٤١

(٥) ينتسب التنوخيون الى تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن طي ابن تيم بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، والارسلانيون الى أرسلان بن مالك بن بركات ابن المنذر التنوخي بن مسعود بن عون بن المنذر المغرور آخر ملوك الحيرة (الشدياق ، أخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٩٠٤ ج ١ ص ١٣٣) وقد أسهم التنوخيون والارسلانيون ومن قدم معهم من الجذاميين واللخميين في المعارك التي خاضها العرب في الشام ، واشتركوا في فتح دمشق سنة ١٤ هـ (٦٣٥) وفي فتوح قيسارية ومصر (الشدياق ، ج ١ ص ١٤١)

(٦) الشدياق ، ج ١ ص ١٤٠ ، ٢٦٦ — محمد عزة دروزة ، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري ، دمشق ١٩٥٩ ، ج ١ ص ١٥٤

يكون هدف معاوية من إنزال هؤلاء الفرس على السواحل مجرد الرغبة في إعادة تعمير هذه السواحل بسكان جدد بعد ان جلا عنها سكانهـا الأصليون عقب هزائم البيزنطيين في الشام ، فأقطعهم الأخائذ التي خلت من سكانها ، او مجرد التشجيع على انتقال المسلمين الى السواحل من كل ناحية بهدف الرباط ومدافعة البيزنطيين .

وليس هناك في المصادر العربية ما يؤكد أن معاوية اقام داراً لصناعة الاسطول في صيدا[1] ، على الرغم من أن صيدا كانت لها دار صناعتهـا البحرية في العصر القديم . وتشير النصوص العربية الى أن معاوية عندما اضطر الى اصطناع سياسة بحرية مجاراة للبيزنطيين عمل على إنشاء اسطول في دار الصناعة بعكا[2] ، وهي دار صناعة قديمة كانت قائمة منذ العصر السابق على الفتوحات العربية الاسلامية . ولا نشك في أنه استعان بملاحين من اهل صيدا وصور[3] في تسيير السفن الاسلاميـة لسابق خبرتهم ودربتهم في ممارسة البحر ، ولم تكن صناعة عكا وحدها كافيـة لانتاج اسطول بحري يناهض القوى البحرية البيزنطية التي كان لها التفوق حتى ذلك الحين على المسلمين ، ولذلك نراه يرسل اخشاب الأرز من لبنان في السفن الى الاسكندرية لتصنيعها هناك سفناً . وظلت دار الصناعة في عكا المركز الوحيد في الشام لصناعة السفن الى أن نقلها الخليفـة هشام بن عبد الملك الى صور ، واتخذ بصور فندقاً ومستغلاً[4] . ونخرج من ذلك بأن صيدا لم تكن دار صناعة في العصر الأموي ، وإن كنا لا نستبعد قيامها بإنشاء سفن صغيرة وزوارق للصيد .

وعلى الرغم من ان ذكر صيدا لم يرد كثيراً خلال احداث تاريخ الدولة

---

(١) ذكر السيد منير خوري أنه ابتنى أسطولاً في صيدا وصور ، وهو قول لا يستند على أي سند أو دليل تاريخي .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا .

(٣) غالب الترك ، ص ٩١ .

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ .

الأموية الا انه يمكننا ان نستنتج من بعض الأخبار الثانوية التي وردت صدفة في المصادر العربية ان صيدا ازدهرت في العصر الأموي ، وكانت مركزاً علمياً هاماً في بلاد الشام ، فقد نسب اليها الفقيه العالم المحدث هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشي الصيداوي المتوفي سنة ١٥٦ هـ (٧٧٢م) وقد روي عن مكحول ونافع وابن المبارك ووكيع[١] ، والعالم المطران بولس الأنطاكي الذي توفي في صيدا في سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م)[٢] .
ونستدل ايضاً من نقش كتابي اثري كشف عنه في صيدا ان الخليفة الأموي مروان بن محمد امر بإصلاح ميناء صيدا وترميمه في سنة ١٣٢هـ ، وان ذلك تم على يدي زياد بن ابي الورد[٣]. وهذا النص له اهميته الخاصة لأنه يشير الى ان ميناء صيدا اصبح محل اهتمام الخلفاء باعتباره قاعدة بحرية هامة للسفن التجارية والغزوانية على السواء . وقد ازداد اهتمام الخلفاء العباسيين بسواحل الشام : فقد اهتم ابو جعفر المنصور بتحصين سواحل الشام كلها بالحصون والمراقب وترميم ما يحتاج منها الى المرمة ، واتم المهدي ما لم يستكمل في ايام المنصور منها وزاد في شحنها بالجند[٤] . وفي سنة ٢٤٧هـ (٨٦٢ م) امر المتوكل على الله بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل[٥] وشحنها بالمقاتلة ومن جملتها صيدا بطبيعة الحال ، وذلك كإجراء وقائي بعد الغارات البحرية المدمرة التي وجهها البيزنطيون على دمياط في سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) عندما هاجمها اسطول من ٣٠٠ من الشلنديات في غيبة واليها بالفسطاط ، فدخلوا المدينة ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها ، واحرقوا جامع دمياط وعدة كنائس[٦] . ومنذ هذه الغارة ازداد اهتمام المتوكل بأمر الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر[٧] .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة صيدا ، ص ٤٣٨ . (٢) منير الخوري ، ص ١٣٥.
(٣) Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t. I , p. 29 .
(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٣ . (٥) نفس المصدر ، ص ١٤٠ .
(٦) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، حوادث سنة ٢٣٨ - الشيال ، الجمل في تاريخ دمياط ، الاسكندرية، ١٩٤٩ ، ص ١٠ — السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٨٧ .
(٧) المقريزي ، الخطط المقريزية ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ج ١ ص ٣٧٨ .

ويبدو ان الدولة العباسية كانت تسند ولاية صيدا الى افراد من البيت الأرسلاني او التنوخي امراء الغرب استمراراً للسياسة التي جرى عليها الأمويون ، ففي سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) تولى الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني الذي يرتفع نسبه الى المنذر بن النعمان من ملوك الحيرة مدينة بيروت بالإضافة الى صيدا وجبلها بأمر أماجور التركي عامل دمشق واعمالها من قبل الخليفة العباسي[١] المعتمد على الله ، ولقبه أماجور بأمير الدولة . وظل الأمير النعمان يتولاها الى ان توفي أماجور في سنة ٢٦٤هـ (٨٧٩ م) ، فآلت الى احمد بن طولون والي مصر . والظاهر أن ابن طولون اقر الأمير النعمان على صيدا وبيروت لما اشتهر به من شجاعة وكياسة وفصاحة وعلم حتى وفاته في ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) فخلفه عليها ابنه الأمير المنذر[٢] .

(ج) صيدا في العصرين الطولوني والاخشيدي :

خضعت صيدا ومدن الساحل للطولونيين بحكم تبعيتها لدمشق ، ومن المعروف أن ابن طولون اهتم بتحصين المدن الساحلية ، وتشير المصادر العربية الى أنه حوط عكا بسور منيع وشد مينائها سلسلة لمنع السفن من اجتيازه[٣] على مثال السلسلة التي اشتهرت بها المهدية[٤] وصور[٥] ، والسلسلة التي اقامها صلاح الدين خليل بن عرام والي الاسكندرية في سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) بعد غزوة القبارصة[٦] .

(١) الشدياق ، أخبار الاعيان ، ج ٢ ص ٢٨٣ - داود خليل كنعان ، بيروت في التاريخ ، ج ١ ، بيروت ١٩٦٣ ص ٢١

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٨٦

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٦٠٦

(٥) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٤

(٦) تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٣٧٦

وفي متحف بيروت قطعة من الحجر نقش عليها بالخط الكوفي نص تاريخي مؤرخ سنة ٢٨٤ هـ يسجل إنشاء بناء لم نستطع تحديد نوعه بسبب الفراغات غير المقروءة في النص ، ونطالع في النص المذكور ما يلي : (أمير المؤمنين اطال الله بقاءه ... كم الله و ... لا ... بناه وانفقه ... سنة اربع وثمانين ومائتين ... وأر ...) . وفي متحف بيروت ايضاً نقشان كتابيان على قطعتين من الحجر من مدينة صيدا يرجع تاريخها الى عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله[١] (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ، ولكن ما تبقى عليها من الكلمات لا يدل على عمل إنشائي بصيدا . ومن الملاحظ أن اسم الأمير الطولوني ابو العساكر جيش لم يذكر في النقش الكتابي الأول ، كما أن اسم الأمير الطولوني هارون بن خمارويه لم يذكر في النصين الآخرين ، ويرجع السبب في ذلك الى خروج الشام عليها .

ثم اصبحت بلاد الشام الجنوبية بما فيها دمشق وبعلبك ومدن الساحل : صور وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة للبيت التركي الإخشيدي في مصر[٢] بعد أن حصل محمد بن طغج بن جف الإخشيد على تقليد من الخليفة المتقي بالله في سنة ٣٣٣ هـ بولاية مصر والشام وتوريث إمارتها لأبنائه من بعده[٣] ، واستقر الوضع على هذا النحو في عصر الأسرة الإخشيدية ، على الرغم من المشاكل التي أثارها الحمدانيون ، والتي اقتضت من الإخشيديين أن يدفعوا لهم جزية سنوية[٤] .

وقد ازدهرت صيدا في هذا العصر في المجال العلمي والأدبي ، فظهر من علمائها أبو طاهر بن ذكوان البعلبكي المؤدب نزيل صيدا ومحدثها

---

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe, t. II , p. 270, 271

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, Paris 1934, t. I , p. VIII

(٣) محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١١ .

(٤) أبوالمحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ ج ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٨٢

(ت ٣٦٠ هـ)[١] ، والحافظ الصيداوي أبو الحسن محمد بن أحمـــد بن يحيي ابن جميع الغساني (٣٠٥ – ٤٠٦ هـ / ٩١٧ – ١٠١١ م) وكان قد رحل في طلب الحديث إلى مصر والعراق والجزيرة وفارس ، وسمع فأكثر السماع ، وجمع لنفسه معجماً لشيوخه سمـــاه المسند[٢] ، وأبو نصر على بن الحسين ابن أحمد بن أبي سلمة الوراق الصيداوي ، وعبد الغني بن سعيد الحافظ ، وقد رويا عن ابن جميع[٣] ، وأبو عبدالله الحسن بن علي بن كوجك من أهــل الأدب (ت فيما يقرب من ٣٩٤ هـ) ، الذي أمـلى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه ، وكان يعقد الاجتماعات في محرس « غرق » بصيدا ويجلس في قبة نقشت عليها أشعار وأسماء من يحضر حلسته من أصحابه[٤] .

ولم تزودنا المصادر العربية بأي مادة تعيننا على تصور الحالة الاقتصادية والعمرانية في صيدا في هذه المرحلة من تاريخها الإسلامي ، ولكننا نستنتج من وصف المقدسي البشاري (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م) أنها كانت مدينة عامرة حصينة[٥] وان لم تكن تصل في الحصانة والمنعـــة الى ما وصلت إليه مدينة صور التي وصفهـا ابن حوقل بقوله أنها من « أحصن الحصون التي على شط البحر عامرة خصبة »[٦] ، كما نستنتج ممـا أورده المقدسي عن اقتصاديات صور التي كانت تشترك مع صيدا في الإنتاج الزراعي والصناعي بحكم التاريخ المشترك وبحكم الجوار الى حـد أن اسمها اقترن كثيراً باسم صيدا ، أن الصناعات التي عددها المقدسي كانت لهـا نظائر في صيدا ،

(١) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق الاستاذ فؤاد سيد ، الكويت ١٩٦١ ج ٢ ص ٣١٨
(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة صيداء ص ٤٣٧ محمد مرتضى الزبيدي . تاج العروس ، ج ٢ ص ٤٠٣
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٣٨
(٤) ياقوت ، معجم الادباء ، طبعة دار المأمون ، ج ١٧ ص ٩٠
(٥) المقدسي ، ص ١٦٠ – Marmardji , op. cit. p. 125
(٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، ص ١٦٠ ، ويشير المقدسي إلى أنها « مدينة حصينة على البحر بل فيه ، يدخل إليها من باب واحد على جسر واحـــد ، قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة ، ثم تجر السلسلة »

كالسكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات[١] . أمـــا السكر فلأن ناصر خسرو الذي زار صيدا في سنة ١٠٤٧ م يؤكد توافر قصب السكر بها[٢] ، وأما الزجاج فلأن صناعته من التقاليد الشعبية المحلية التي ارتبطت باسم صيدا في التاريخ القديم والوسيط .

(٢)

العصر الفاطمي : أزهى عصور صيدا الإسلامية

(أ) موقف صيدا من الاحداث السياسية في الشام بعد الفتح الفاطمي :

لم يمض عام واحد على دخول القائد جوهر مصر فاتحاً حتى سير حملة الى بلاد الشام في اواخر سنة ٣٥٩ هـ بقيادة القائد البربري جعفر بن فلاح الكتامي لانتزاعها من سلطان الخلافة العباسية ، وتأمين حـدود مصر من ناحية الشام . وتمكن جعفر بن فلاح من الاستيلاء على دمشق ودخولها في المحرم سنة ٣٦٠ هـ (٩٦٨ م) بعد موقعتين حاسمتين : الأولى في الرملة ، والثانية في طبرية ، تغلب في الأولى على الحسن بن عبد الله بن طغج[٣] ، وأسره وبعض قواده وسيرهم الى المعز الفاطمي بافريقية[٤] ، وفي الثانية على فاتك غلام ابن ملهم[٥] . وقد أقر جعفر بعـــد دخوله دمشق على إقليم الغرب بما فيه طرابلس وبيروت وصيدا الأمير سيف الدولة المنذر ابن امير الدولة النعمان بن عامر التنوخي الذي قدم ولاءه للفاطميين[٦] ،

---

(١) المقدسي ، ص ١٨٠
(٢) ناصر خسرو ، ص ٢٠ - Le Strange, op. cit. p. 346
(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٣
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٥٩١
(٥) جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي ، ص ١٨
(٦) الشدياق ، أخبار الاعيان ، ج ٢ ص ٢٨٦

ولكن سيف الدولة المنذر لم يطل به العهد أميراً على صيدا من قبـــل الفاطميين ، إذ لم يلبث أن توفي في سنة ٣٦٢ ﻫ (٩٧٠ م) بعد عـامين فقط من توليه الإمارة ، فخلفه ابنه تميم الملقب بعز الدولة .

وكان أهل دمشق قد ثاروا على عسكر جعفر بن فلاح لعبثهم بالنظام وانتهاكهم حرمة بيوتهم بالإضافة الى مشاعر الكراهية التي كان يحفظها لهم أهل دمشق باعتبارهم سنيين ، ثم تمكن أبو محمد بن عصودا وظالم بن موهوب العقيلي والى حوران من قبل الإخشيديين من الفرار من دمشق ومضيا الى القرامطة في الأحساء يـــدعوانهم لنصرتهم[١] . ولم يتردد القرامطة في إجابتها خاصة وقد انقطعت الإتاوة التي كان يدفعهـــا الإخشيديون لهم ، وبادر زعيم القرامطة بالاتصال بعز الدولة بختيار طالباً منه المساعدة بالمال والسلاح ، فأجابه الى طلبـه ، ومضى الى دمشق في حشد كبير من القرامطة ، وتضامن أهل دمشق مع بني عقيل وبني طيء والقرامطة ضد الفاطميين ، ونجح المتحالفون في ايقاع الهزيمة بهم في وقعة الدكة التي لقي فيها جعفر بن فلاح مصرعه[٢] ، وتولى على دمشق ظالم بن موهوب[٣] . ثم زحف القرامطة الى الرملة فاستولوا عليها ، كما استولوا على المناطق الواقعة بينها وبين دمشق[٤] ، وبعد ان حقق ابو محمـــد الحسن القرمطي ما حققه من انتصارات عاد الى بلاد هجر . وعلى الرغم من انحسار نفوذ الفاطميين عن الشام نتيجة للهزيمة التي اوقعها القرامطة بهم فقد ظلت صيدا على ولائها للفاطميين لانعزالها عن مدن الداخـل ، وكان يتولاها وقتئذ من قبـل المعز الفاطمي وال يقال له ابو الفتح بن

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفـا ، ج ١ نشر الدكتور الشيال ، ١٩٤٨ ص ١٧٦

(٢) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٤

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٥٨

(٤) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦١٥

الشيخ لعله من سلالة عيسى بن شيخ الربعي[1] ، ثم تمكن الجيش الفاطمي بقيادة ابي محمود بن إبراهيم بن جعفر بن فلاح من استرجاع دمشق واعمالها في سنة ٣٦٣ هـ واقام عليها القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً[2] .

ثم تغير الموقف في الشام بعد ظهور أبي منصور التركي المعروف بأفتكين[3] على مسرح الاحداث في سنة ٣٦٤ هـ ، فاستولى على دمشق بفضل ما بذله أهلها له من عون ، وذلك في سنة ٣٦٤ ، وأعاد الدعوة العباسية الى دمشق ، ولم يكتف أفتكين بذلك بل عزم على أن يبسط نفوذه على سهل البقاع ومدن الساحل ، فزحف نحو بعلبك لمحاربة ظالم ابن موهوب ، ونجح في إنزال الهزيمة به ، وفر ظالم واختبأ عند الأمير تميم بن المنذر بن النعمان الارسلاني ، وكتب الى المعز يخبره بجلية الأمر ، فأمره المعز بالإقامة في صيدا[4] التي كانت ما تزال تابعة للفاطميين ، أما

(١) لعله ينتسب الى عيسى بن شيخ بن الشليل الربعي عامل فلسطين من قبل الخليفة العباسي المستعين ، ثم خرج على المعتز وحاربه أماجور التركي عامل دمشق، فهزمه أماجور ، فانتقل ابن شيخ الى صور في سنة ٢٥٥ هـ ، ثم تغلب ابن شيخ على فلسطين ، واضطر الخليفة المعتمد العباسي الى الصفح عما سلف منه وولاه أرمينية في سنة ٢٥٧ هـ بعد أن سلم ما بيده في فلسطين الى أماجور التركي (اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ج ص ٥٠٠ – ٥٠٨) .

(٢) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٤٠

(٣) هو أفتكين او هفتكين او الفتكين ابو منصور التركي المعزي (ت ٣٦٨ هـ) وكان غلاماً لمعز الدولة احمد بن بويه وترقى في الخدمة حتى غلب على بغداد عند عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، ثم خرج من بغداد قاصداً الشام مع فرقة من جنده عدتها ٣٠٠ فارس عقب انهزامه في معركة وقعت بين الاتراك والديلم ، وأمده سعد الدولة ابو المعالي بن سيف الدولة الحمداني صاحب حلب بفرقة من العسكر ، وعزم على دخول دمشق ، فاضطر ظالم بن موهوب الى الخروج الى بعلبك لمصادمته ومنعه من التقدم . وفي هذه الاثناء شغل عسكر دمشق الفاطميون بلقاء البيزنطيين الذين قدموا الى طرابلس ، فتمكن افتكين من دخول دمشق من غير حرب في شعبان سنة ٣٦٤ هـ (المقريزي، الخطط ، ج٢ ص ٤١٣ — جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي ، ص ٣٨ - ٤٠) .

(٤) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٧

أفتكين فتمكن من دخول بعلبك . وحدث أن استغـــل الامبراطور البيزنطي حنا تزيمسكس (ابن الشمشيق) فرصة النزاع القائم في الشام بين الفاطميين وبين الاتراك والقرامطة للشروع في غزوة صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين في الشام هدفها فتح بيت المقدس ، فخرج في ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) الى الثغور فاستولى على أكثرها ، ثم زحف من انطاكية الى حمص فافتتحها ثم استولى على بعلبك وانتهبها ، وانتشر جيشه في إقليم البقـــاع ينهب ويأسر ويحرق ، واتجه بعد ذلك الى دمشق ، فاضطر أفتكين الى الدخول في طاعته وأعلن له الولاء ، وجبي من أهـــل دمشق ثلاثين ألف دينار قهراً حملها الى الامبراطور البيزنطي[1] ، وتعهد له بدفع مائة ألف درهم . ولكن تزيمسكس — وقد أعجبه منه إخلاصه وولاءه — أعفاه من هذا المـال[2] . وزحف الامبراطور البيزنطي الى الجنوب ماراً بطبرية حيث قدم إليه أهلها الهدايا ومبلغاً من المال ، ثم مضى الى الناصرة فبيسان فعكا وقيسارية ، ثم ارتد منها الى الشمال نحو بيروت بعد ان عدل عن التوجه الى بيت المقدس لسبب لا نعرفه ، وعاد فانحـدر جنوباً الى صيدا[3] . وقد أتاح تزيمسكس بهذه التحركات الفرصة لأفتكين في دمشق لـكي يقيم بها الدعوة للخليفة العباسي الطائع أبي عبد الكريم بن المطيع . أما تزيمسكس فقد بدأ بمنازلة صيدا ومحاصرتها ، فخرج إليه أبو الفتح بن الشيخ في وفد من شيوخ البلد لطلب الصلح ، فهاداه ابن الشيخ وهادنه على مال ، ويعبر ابن القلانسي عن ذلك بقوله : « وسار ابن الشمشيق على طريق الساحـل فنزل على صيدا ، وخرج إليه أبو الفتح بن الشيخ ، وكان رجلاً جليل

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٤١٣

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ص ١٢

(٣) ذكر تزيمسكس في رسالته التي اوردها المؤرخ الارميني متى الرهوي الى الملك أشوط الثالث ملك أرمينية أنه - أي تزيمسكس - رحل بعد صيدا الى جبيل وطرابلس وجبلة وبلنياس وصهيون وبرزويه (راجع : عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي: الامـــبراطور حنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ملحق ١ ص ١٨٣) .

القدر ، ومعه شيوخ البلد ولقوه ، وقرروا معه أمرهم على مال أعطوه إياه ، وهدية حملوها إليه ، وانصرف عنهم على سلم وموادعة وانتقل الى ثغر بيروت »[1]. وورد في كتاب حنا تزيمسكس إلى آشوط الثالث ملك أرمينية السبب الذي دعاه الى موادعة أهل صيدا فيقول : « إن هؤلاء الشيوخ أقبلوا متوسلين لجلالتنا وملتمسين أن يصيروا رعايانا وعبيدنا الخاضعين على الدوام ، وإزاء هذه التأكيدات ارتضينا الاستجابة لرجائهم وتحقيق رغباتهم ، وحتمنا عليهم دفع جزية ، وفرضنا عليهم حكاماً »[2].

(ب) صيدا بين شقي رحى :

بعد ان تمكن أفتكين من السيطرة على دمشق ، وأقام بها الدعوة للخليفة العباسي الطائع بن المطيع العباسي خاف أن يدخل في حرب سافرة مع الفاطميين في مصر ، إذ لم تكن لديه طاقة بمحاربتهم ، دون أن يعتمد على قوة تنصره ودعم يقويه ويحقق أغراضه ومراميه . فكاتب القرامطة في الاحساء يستدعيهم لنجدته والانضمام إليه عند قيامه بمحاربة عسكر المعز ، فاستجاب له القرامطة ، ووافاه منهم اسحق وكسرى وجعفر[3] من كبار قادتهم ، فنزلوا على ظاهر دمشق ، ووافى معهم عدد كبير من العجم ، وطائفة من أنصار افتكين كانوا قد تشردوا في البلاد وتشتتوا فتقوى بهم ، وأكرمهم ، وأحسن وفادتهم . فأقاموا بدمشق اياماً ، ثم زحفوا نحو الرملة حيث كانت تعسكر قوات ابي محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح امير دمشق السابق ، ولكن أبا محمود عجل بالانسحاب

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤ – محمد جمال الدين سرور ، دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣١ – عمر كمال ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ – طرابلس الشام ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) Grousset, H. des croisades, t. I , p. XIX – عمر كمال ، العدوان الصليبي ، ملحق رقم ١ ص ١٨٣ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٥

الى يافا ، وتحصن في اسوارها عندمـــا بلغه نبأ مسيرهم نحوه وقصدهم لمحاربته . وعلى اثر ذلك نزلت قوات القرامطة في الرملة ، وتأهبوا لمقاتلة الفاطميين المتحصنين في يافا[١] . وعندئذ واتت افتكين الفرصة لتحقيق هدفه في السيطرة على مدن الساحل وفي مقدمتها مدينة صيدا ، وذلك بعد أن أمن على نفسه من ناحية مصر ، بسبب وفـــاة الخليفة المعز واستخلاف ولده العزيز بالله من بعده ، ومن ناحية الرملة بسبب جـلاء قوات الفاطميين عنها وانسحابهم الى يافا . فخرج في حشد من أتباعـــه ومن انضم اليه ونزل على صيدا ، وكان يتولاها وقتئذ « ابن الشيخ »[٢] ومعه رؤوس من المغاربة وفيهم ظالم بن موهوب العقيلي الذي كان قـد صرف من ولاية دمشق بعد انهزامه على ايدي القرامطة في سنة ٣٦٣ هـ ، فخرج اليه (أي الى افتكين) الوالي ابن الشيخ وحاميـة صيدا ، وكان عسكرها يفوقون عسكر افتكين من حيث الكثرة العددية ، فطمعوا في التغلب على افتكين وقواته ، فتظـــاهر افتكين بالانهزام ، واستدرجهم لمطاردته حتى نزل على نهر ، وخرجت جموع كثيفة من أهل صيدا وراء حامية المدينة ، فأمر افتكين قواته الأتراك باتخاذ طريق بانياس ، فتبعهم أهل صيدا والحامية الفاطمية ، وعندئذ كر عليهم الأتراك ، وأقبلوا عليهم باللتوت[٣] « وداسوهم بالخيل عليها التجافيف »[٤] ، فانهزم أهل صيـدا والحامية الفاطمية ، وأخذتهم سيوف الأتراك ففتكت بهم ، وفر ظالم بن

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٥ — المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) اللتوت أي الدبابيس أو الاعمدة ذات الرؤوس المستطيلة المضرسة (عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، ص ٦٥) .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٥ — المقريزي ، المصدر السابق . والتجافيف مفردها تجفاف وهي كسوات من النسيج محشوة تبطن بها جواشن الفرسان والخيول (Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t. I, Beirut, 1968, p. 200) او دروع توضع على اجسام الخيل (عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القـــاهرة ١٩٦٣ ، صفحة ٦٧) .

موهوب الى الأمير تميم وقيل الى بلدة صور[١] ، واحصي عدد القتلى من أهل صيدا وعسكر الفاطميين فبلغ اربعة آلاف قتيل[٢] ، ثم أمر افتكين بقطع أيدي القتلى من عسكر الفاطميين وسيرها الى دمشق حيث طيف بها .

ثم ترك أفتكين صيدا ورحل الى عكا بقصد الاستيلاء عليها ، وأغار على طبرية وقتل من اهلها ونهب مثلما فعل في صيدا[٣] . وعندئذ سير العزيز بالله القائد جوهر في عسكر كثيف لقتال افتكين والقرامطة ، فعندما بلغ القرامطة وهم في الرملة نبأ وصول جوهر ومسيره إلى أفتكين وهو يحاصر عكا ، انسحبوا من الرملة ، فنزلها جوهر . أما القرامطة فقد رحل معظمهم الى الأحساء بينما رفع افتكين الحصار وارتد الى طبرية حيث عسكر وأقام متأهباً للقاء جوهر ، واخذ في نفس الوقت يجمع الأقوات من بلاد حوران والثنية ويدخلها الى دمشق استعداداً لحصار طويل ، ثم ما لبث أن تراجع الى دمشق بعد أن زودها بجميع ما تحتاج اليه أثناء الحصار المرتقب ، وتحصن بها . فنزل جوهر على ظاهر دمشق في ٨ ذي القعدة سنة ٣٦٥ هـ ، ولم تلبث قوات جوهر أن اشتبكت مع قوات افتكين ، وجرت معارك امتدت نحو شهرين الى ١١ من ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ ، استنجد خلالها بالقرامطة ، وبدت له ملامح الهزيمة ، فهم بالفرار في الوقت الذي وردت اليه الأنباء بقدوم الحسن بن احمد القرمطي ، زعيم القرامطة ، الى دمشق . وبوصول القرامطة تبدل الوضع وانقلب رأساً على عقب ، وأصبح جوهر وقواته محصورين بين الأتراك والقرامطة ، فطلب الصلح على أساس أن يرحل من دمشق دون أن يقوم القرامطة بمطاردته ، إذ أدرك صعوبة المواجهة بسبب قلة أمواله ، وهلاك عدد كبير من عسكره في المعارك التي خاضها ضد افتكين . فمضى جوهر الى طبرية ، ثم اضطر

(١) كان الامير تميم الارسلاني موالياً للفاطميين في مصر .
(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥ - ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٥٧ . ويذكر المقريزي أن هذا العدد يشمل قتلى الفريقين (الخطط ، ج ٢ ص ١٣ ٤) .
(٣) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٥٧ .

الى الرحيل عنها الى الرملة عندما بلغه قدوم القرامطة وأفتكين في أثره في خمسين الف فـــارس وراجل[1] ، ثم تراجع جوهر من الرملة الى عسقلان ، حيث تحصن داخل اسوارها ، وتبعته حشود القرامطة والأتراك وأحكمت عليه الحصار . ولما قلت لديه المـيرة وعدمت الأقوات واشتد عليه الأمر كتب الى افتكين يفاوضه في الصلح وحقن الدماء واتفق معه على أن يرحل من هنـــاك الى مصر ، وفي نفس الوقت أبحر الأمير تميم الارسلاني متولي الغرب ومعه ظالم بن موهوب من بيروت الى مصر .

ورأى العزيز بالله بعد عودة جوهر أن يخرج بنفسه على رأس جيش ضخم لاستعادة النفوذ الفاطمي على الشام ، فأعد جيشاً ضخماً زحف بـه إلى الشام ، فنزل بظاهر الرملة ، واشتبك مع أفتكين والقرامطـــة في معركة عنيفة وقعت في المحرم سنة ٣٦٧[2] (٩٧٧ م) ، وانتهت بانتصار الفاطميين ووقوع افتكين في أسرهم ، واشترك في هذه الوقعـة المشهورة الأمير تميم الارسلاني مع الجيوش الفاطمية وأبدى من الشجاعة وضروب البسالة والاقدام ما جعل العزيز بالله يكافأه بإسناد إمارة الغرب وبيروت وجبلها اليه[3] ، وهكذا استعاد الفاطميون دمشق ومدنها الساحلية .

(ج) استقرار الاوضاع في صيدا في عصر العزيز بالله والحاكم بأمر الله :

أصبحت صيدا تابعة للخلافة الفاطمية في مصر ، وتولاها من قبـــل الخليفة العزيز وال لم يرد الينا اسمه في المصادر العربية ، ولكننا نرجح أن يكون من الأمراء الارسلانيين الذين اشتركوا مع العزيز بالله في إنزال الهزيمة بجيش أفتكين في موقعة الرملة ، فقد ذكر الشيخ طنوس الشدياق

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٦٥٨
(٢) ابن القلانسي ، ص ١٩ - ابن الاثـــير ، ج ٨ ص ٦٦٠ - المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٤١٤
(٣) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٨

أن الخليفة العزيز أعجب بشجاعته ، فلما عزم الخليفة على الإياب الى مصر منحه توقيعاً بإمارة الغرب وبيروت[1].

وحاول العزيز بالله منذ سنة ٣٧٣ هـ انتزاع حلب من صاحبها سعد الدولة الحمداني عن طريق بكجور التركي غلام سعيد الدولة في مقابل توليه إمارة دمشق ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل بسبب هزيمة بكجور ومصرعه في سنة ٣٨١ هـ . وفي عهد سعيد الدولة أبي الفضائل الذي خلف أباه سعد الدولة الحمداني في سنة ٣٨١ ، عاود الفاطميون محاولتهم فتح حلب ، فأسند الخليفة العزيز بالله ولاية الشام إلى منجوتكين التركي ، وأمره بمحاربة الحمدانيين[2] ، فكتب منجوتكين الى الامير تميم الأرسلاني يدعوه الى الانضمام إليه ، فتقاعس تميم عن نصرته ، في حين بادر الامير ناصر الدولة منصور بن الأمير فخر الدولة درويش الارسلاني بالاشتراك مع إخوته في حملة منجوتكين ، فكافأه هذا الاخير بأن ولاه جبل الغرب وبيروت ، وأسند ولاية صيدا الى اخيه الامير مذحج ، وولاية صور الى ابن عمه الامير هارون[3] . فأناب الامير منصور أخاه مذحجاً على ولاية الغرب وبيروت بالاضافة الى صيدا ، وهكذا آلت ولاية صيدا الى الامير مذحج الارسلاني في الفترة ما بين عامي ٣٨٣ ، ٣٨٦ هـ (٩٩٣ — ٩٩٦م) . ثم أسندت ولاية صيدا من بعده الى الامير غالب بن مسعود بن المنذر الارسلاني من قبل منجوتكين[4] ، ويبدو انه لم يرض عنه بعد ذلك ، فصرفه عن ولايتها في العام التالي ، وأسندها الى أبي الفتح بن الشيخ والي صيدا السابق ، وذلك في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) .

واتفق ان ثار أهالي صور في هذه السنة على الحاكم بأمر الله وولوا عليهم ملاحاً من البحريين يعرف بالعلاقة ، فوثب العلاقة ورفاقه على

(١) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٨
(٢) راجع التفاصيل في ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١١٧ وما يليها .
(٣) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٨٨ – ابراهيم الاسود ، ذخائر لبنان ، ص ١٧٣
(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٢٨٩

الحامية الفاطمية في صور وقتلهم ، ثم استقل بالمدينة ، فندب برجوان الخادم القائد أبا عبدالله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني ، وياقوت الخادم ، وطائفة من عبيد الشرا في جيش لمهاجمة صور من البر ، واستنزال الثوار ، وسيّر في البحر عشرين مركباً حربية مشحونة بالرجال والعـدد الى ثغر صيدا لمحاصرته بحراً ، كما كتب الى عـلي بن حيدرة والي طرابلس وابن شيخ والي صيدا بالمسير الى صور في أسطوليهما ، واحتشدت قوات كثيفة من قوى الفاطميين على باب صور ، وحاصرتها الاساطيل من البحر فاستنجد العلاقة بالامبراطور البيزنطي بسيل الثاني ، فأنفـــذ إليه بسيل أسطولاً مشحوناً بالمقاتلة ، واشتبك هذا الاسطول مع الأسطول الفاطمي في معركة بحرية عنيفة دارت في مياه صور ، وانتهت بهزيمـة الاسطول البيزنطي ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على إحدى سفنه ، وقتلوا ملاحيها وعدتهم ١٥٠ رجلاً ، وانهزمت سائر السفن البيزنطية . ثم افتتح الفاطميون المدينة عنوة ، وقبضوا على العلاقة وجماعة من انصاره ، فحملوا الى مصر ، حيث سلخ حياً ، وصلب ، وقتل أصحابه صبرا[1] . ونستنتج من ذلك أن الاوضاع في صيدا استقرت تماماً منذ خلافة العزيز بالله بدليل أن واليها لم يتردد في إطاعة الاوامر الصادرة إليه من دار الخلافة بالقاهرة ، بالاشتراك مع القوى الفاطمية البحرية والبرية في استنزال العلاقة ، كما نستنتج أن صيدا كان لها أسطولها الخاص ، بدليل اشتراكه في الحصار البحري الذي فرضه الفاطميون على صور .

وتصمت المصادر العربية عن إمدادنا بأي مادة تاريخية عن صيدا في الفترة الواقعة ما بين حركة العلاقة التي حدثت سنة ٣٨٧ هـ وقيام الحاكم بأمر الله بإقطاع صور وصيدا وبيروت للفتـح القلعي[2] ، مولى مرتضى

(١) ابن القلانسي، ص ٥٠ ، ٥١ – ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٢ ج ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٦ – طرابلس الشام ، ص ٥٩

(٢) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٢٣٠ – صالح بن يحيي ، تاريخ بيروت ، ص ١٥

الدولة أبي نصر منصور بن لؤلؤ صاحب حلب عوضاً عن حلب في سنة ٤٠٥ هـ ، ونميل الى الاعتقاد بأن ابن شيخ ظل يتولى إمارتها في هذه المرحلة .

ثم اسند الفتح القلعي الذي لقبه الحاكم بأمر الله بلقب مبارك الدولة وسعدها ولاية صيدا وصور وبيروت في سنة ٤٠٦ هـ لمرتضى الدولة بعد أن أخرجه من حلب ، وسلمها لسديد الدولة أبي الحسن علي في رجب سنة ٤٠٦ . وظل مرتضى الدولة يقوم بشؤون صيدا الى أن توفي في مصر في سنة ٤٠٨ هـ[1] . غير ان ابن العديم الحلبي يذكر ان مرهف الدولة بحكم التركي كان والياً على صيدا في سنة ٤٠٧ هـ[2] ، الامر الذي يدعونا الى الإعتقاد بأن مرتضي الدولة لم يستمر في ولايتها اكثر من عام واحد ثم رحل الى مصر حيث توفي في سنة ٤٠٨ هـ .

(د) اضطراب الاحوال في صيدا من ٤١٥ الى ٥٠٤ هـ :

ظلت صيدا تنعم باستقرار نسبي فترة قصيرة الأمد استمرت حتى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤م) ، وفي هذه السنة اضطربت احوال الشام على أثر وفاة الحاكم بأمر الله (ت ٤١١ هـ) ، وقامت فيها الحركات الانفصالية في شمال البلاد وجنوبها ، وتآمر المتنزون لإزالة النفوذ الفاطمي كله من بلاد الشام : فبنو الجراح الطائيين بفلسطين ، الذين كانوا قد فقدوا سلطانهم على هذا الاقليم في سنة ٤٠٤ هـ حاولوا استرداد نفوذهم القديم في ظل زعيمهم حسان بن مفرج بن الجراح وذلك في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي ، وتمكنوا من الاستيلاء على الرملة وعلى اكثر فلسطين ، وبنو مرداس الكلابيين نجحوا في إمارة زعيمهم أسد الدولة صالح بن مرداس في التغلب على حلب في سنة ٤١٤ هـ وانتزعوها من واليها ابن

---

(١) ابن شداد ، المصدر السابق ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢

(٢) ابن العديم الحلبي ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، ج ١ دمشق ، ١٩٥١ ، ص ٢١٥

ثعبان الذي كان يتولاها من قبل الظاهر الفاطمي[1]. ثم عقد ابن مرداس في سنة ٤١٤ هـ اتفاقاً مع حسان بن الجراح، وسنان بن عليان أمير الكلبيين، بمقتضاه يتضامن الحلفاء الثلاثة فيما بينهم ويتماسكوا لإخراج الفاطميين من الشام[2]، واقتسامها فيما بينهم[3]. وذكر ابن العديم الحلبي أن صالح استولى على حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس في سنة ٤١٦ هـ[4] بالإضافة الى الرحبة ومنبج وبالس ورفنية[5]، وفي العام التالي توجه صالح الى صيدا[6]. وفي سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) استولى صالح بن مرداس وحسان بن الجراح على اعمال الشام، وانتهيا الى غزة، فجهز الظاهر لحربهما جيشاً بقيادة امير الجيوش أنوشتكين الدزبري التركي[7]، فالتقى معهما في معركة دارت بالأقحوانة قريباً من

---

(١) ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٣٠ — النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٢٤٨ — محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي، ص ٤٤ — ٥٨.

(٢) يحيى بن سعيد الانطاكي، صلة كتاب سعيد بن بطريق، لنشره الأب لويس شيخو، بيروت ١٩٠٩، ج ٢ ص ٢٤٤ — ابن الاثير، ج ٩ ص ٢٣٠.

(٣) ابن القلانسي، ص ٧٣ — النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ٢٥٢.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٢٣٠.

(٥) يحيى بن سعيد، ص ٢٤٨ — ابن العديم، ص ٢٣٠.

(٦) ابن العديم، ج ١ ص ٢٣٣.

(٧) هو الامير المظفر امير الجيوش ابو منصور انوشتكين التزبري او الدزبري التركي، ولد في بلاد ما وراء النهر في بلدة ختل، وسبي منه وحمل الى كاشغر، ثم هرب الى بخارى، واشتراه احد الاعيان، ثم حمل الى بغداد، ومنها نقل الى دمشق في سنة ٤٠٠ هـ، فاشتراه القائد تزبر بن اونيم الديلمي. وندبه تزبر لحماية املاكه والدفاع عنها، فأدى عمله على خير وجه، وعرف بصرامته، وشاع ذكره، وسئل مولاه ان يهديه الى الخليفة الحاكم، وقيل بل امر بحمله الى الخليفة، فحمل في جملة غلمانه في سنة ٤٠٣ هـ. ولكنه اصطدم مع الغلمان الآخرين وقهرهم، فأخرج من الحجرة في سنة ٤٠٥ هـ ولزم الخدمة، فحظي برضى الحاكم، فقوده مع سديد الدولة الضيف في الحملة التي سيرها الحاكم الى الشام في سنة ٤٠٦ هـ ودخل دمشق. ثم عاد الى مصر، ثم نصب والياً على بعلبك، فذاع امره، وصادق ولاة الاطراف، واتصل بوالي حلب وهاداه، ولقب بلقب منتخب الدولة، ثم نقل الى ولاية قيسارية، ثم أسندت اليه ولاية فلسطين كلها في سنة ٤١٤ هـ، واختاره الوزير الجرجرائي ليقود حملة الى الشام للقضاء على الفتن التي سببها انتزاء بني جراح وبني مرداس، ولقب بالامير المظفر منتخب =

طبرية ، انهزم فيها عسكر المتحالفين واخـــذتهم السيوف ، ولقي صالح وابنه الأصغر مصرعهما ، في حين افلت نصر الابن الأكـــبر لصالح الى حلب ، بينما فر حسان بن المفرج بن الجراح الى الأراضي البيزنطية ، واسترد الفاطميون بعض المواقع مثل بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن عكار[1] ، ونزل الدزبري على دمشق[2] . أما جثة صالح فقـد ارسلت الى صيدا حيث صلبت على بابها بينما سيق رأسه الى القاهرة[3] .

وظلت صيدا تابعة للفاطميين فترة طويلة دامت حتى سنة ٤٣٣ ﻫ التي توفي فيها أنوشتكين الدزبري ، فلما توفي فسد النظام في بــلاد الشام ، واضطربت احوال البلاد ، وعــاد العرب الى العيث في نواحيها بقصد استرجاع نفوذهم ، فظهر معز الدولة ثمال أخو شبل الدولة صالح ، وكان مقيماً في الرحبة منذ هزيمة اخيه ومقتله ، وحــاصر حلب وتمكن من الاستيلاء عليها[4] ، كما ظهر حسان بن المفرج بن الجراح بفلسطين واعلن فيها الثورة على الفاطميين ، وظل معز الدولة ثمال المرداسي يحكم حلب حتى سنة ٤٤٣ ﻫ عندما سئم من مدافعة الفاطميين المرة بعد الأخرى ، فتنازل عنها في هذه السنة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وفي مقابل ذلــك اقامه المستنصر والياً على بيروت وجبيل وعكا . أما صيدا فقـد كانت بمنأى عن هذه الفتن ، وكانت تتبع إمارة دمشق التي تناوب الحكم فيها

= الدولة . ولما انتصر على صالح بن مرداس في الاقحوانة وهي الموقعة التي قتل فيهـا صالح وولده الاصغر نزل بدمشق . أمـا نصر بن صالح فقد نجح في السيطرة على حلب وتلقب بشبل الدولة ، وظــل يحكم حلب حتى خلافة المستنصر . ثم زحف أنوشتكين على حلب في سنة ٤٢٩ والتقى بنصر بن صالح عند حماة ، فانهزم نصر وقتــل ، وتقلد أنوشتكين ولاية حلب ، وظل يتولاها حتى توفي في سنة ٤٣٣ (ابن القلانسي ، ص ٧١ — ٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣١) .

(١) الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٧٧٧ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٧٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٩ ص ٥٠٢ .

عدد كبير من الأمراء والقواد يصل الى ١٤ والياً من سنة ٤٣٣ هـ الى ٤٦٢ هـ لم تشهد خلالها البلاد أي نوع من الاستقرار ، وفي هذه المرحلة استجد النزاع بين الفاطميين وبين محمود بن نصر بن صالح المرداسي المعروف بابن الروقلية الذي تملك حلب بعد أن انتصر على عسكر ناصر الدولة بن حمدان في موقعة الفنيدق في سنة ٤٥٢ هـ[١] ، واستقل بنو عمار بطرابلس في سنة ٤٦٢ هـ[٢] ، واستقل القاضي عين الدولة ابو الحسن محمد بن عبد الله بن ابي عقيل بصور في سنة ٤٦١ هـ[٣] ، وابن حمدان بالرملة والساحل[٤] . واضطربت الأحوال في دمشق منذ سنة ٤٥٥ هـ ، واستولى عليها القفي مختص بن ابي الجن اخو حيدرة بن منزو في سنة ٤٦٢ هـ ، وطرد نواب امير الجيوش بدر الجمالي واعلن استقلاله بها[٥] .

وهكذا تقلص ظل الخلافة الفاطمية في الشام ، ولم يبق لأمير الجيوش بدر الجمالي الوفي للفاطميين[٦] سوى عكا وصيدا[٧] . أما صيدا فلم تسلم من هذه الفتن والاضطرابات ، حقيقي أنها ظلت وفية للدولة الفاطمية ، مرتبطة بولائها لها ، ولكن العواصف والأنواء لم تلبث أن عصفت بها وهزتها هزاً شديداً . وكان بدر الجمالي قد ارسل ثقله واهله الى صيدا

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١٢ . وذكر ابن القلانسي انه تغلب عليها بعد محاولات ثلاث في سنة ٤٥٧ (ص ٩٣٧) .
(٢) ابن القلانسي ، ص ١١٢ طرابلس الشام ، ص ٦٦
(٣) نفس المصدر ، ص ٩٨ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٦٠
(٤) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، حاشية ١
(٥) نفسه ، ص ٩٦ طرابلس الشام ، ص ٦٦
(٦) هو ابو النجم بدر الجمالي ، كان مملوكاً ارمينياً لجمال الدولة بن عمار ، فعرف لذلك بالجمالي ، واخذ يتنقل في الخدمة حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر في ١٣ ربيع الآخر سنة ٤٥٥ ، ثم فر منها في ١٤ رجب سنة ٤٥٦ ، ثم وليها ثانية في ٦ شعبان سنة ٤٥٨ ، وخرج منها بعد ان بلغه مقتل ابنه في عسقلان في سنة ٤٦٠ ، وتقلد ولاية عكا . (راجع المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٨) .
(٧) ابن القلانسي ، ص ٩٧

واستقر بها[1] ، وسعى الى انتزاع صور من قاضيها عين الدولة بن ابي عقيل المتغلب عليهـا ، فسار في العساكر المصرية وحاصرها ، وضايق اهلهـا وأضر بهم ، فكاتب القاضي ابن ابي عقيل « الأمير قرلو مقـدم الأتراك بالشام مستصرخاً له ومستنجداً به ، فأجابه الى طلبه ، واسعفه بأربه ، وسار بعسكره منجداً له ومساعداً ، ووصل الى ثغر صيدا ، ونزل عليه في ستة آلاف فارس فحصره وضيق عليه وعلى من فيه ، وكان في جملة ولاية امير الجيوش المذكور »[2] ، ويبـدو أن قرلو كان يهدف من وراء حصاره لصيدا أن يرغم بدر الجمالي على رفع الحصار عن صور ، ونجح في خطته ؛ فعندما بلغ بدر الجمالي قدوم قرلو الى صيدا وشروعه في حصارها ، رغم على الرحيل عن صور مؤقتاً ، وهو ينوي العودة اليه بعد رحل قرلو عن صيدا ، فما كاد قرلو يعود ادراجه هو وقواتـه الأتراك حتى عاد بدر الى صور وأحكم الحصار حولها براً وبحراً لمـدة عام حتى غلت فيها الاسعار لنفاذ الاقوات ، ووصـل ثمن رطل الخبز الى نصف دينار ، ولكنها صمدت كما كانت تصمد دائماً في كل مرة يحاصرها الغزاة والفاتحون ، فاضطر بدر الى رفع الحصار عنها[3] .

وفي هـذه الفترة الحرجة في تاريخ صيدا ظهر الاتراك السلاجقة على مسرح أحداث الشام ، وشجع على تدخلهم الفوضى المستحكمة في البلاد الشاميـة وضعف الدولة الفاطمية بسبب استبداد ناصر الدولة الحسين ابن الحسن بن حمدان بأمور المستنصر ، ونزاعه مع أسد الدولة الدكز مقدم الاتراك وشيعتهم ، ونشوب المعارك في القاهرة بين العرب والاتراك ، كل ذلك مع عظم الغلاء ، وقلة الاقوات ، وانتشار المجاعة في البلاد ، وانقطاع الطرقات في البر والبحر الا بالحراسة الشديدة . وانفسح المجـال أمام

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٩٦ ، حاشية ١

(٢) ابن القلانسي ، ص ٩٨ . وذكر ابن الاثير ان قرلو قدم في ١٢ الفاً .

(٣) نفسه ص ٩٨ ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٦٠

السلاجقة للتدخل السافر عندما استدعي الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٦٦ (١٠٧٤ م) بعد أن اقدم الدكز على قتل ابن حمدان في سنة ٤٦٥ وتتبع اقاربه وذويه بالقتل واستبد بدوره[١] . وبينا شغل بدر الجمالي في مصر بإصلاح ما أفسدته الفتن في البلاد ، فيقبض على الدكز ويقتله في سنة ٤٦٧ هـ ، ويحاصر الاسكندرية ويفتتحها عنوة ، ويقتل طائفة العسكر الملحيين الثائرين فيها[٢] ، ويوقع بلواته البربرية ، ويستصفي ما كان لرؤسائها في الوجه البحري ، ويسرف في قتلهم ، ويستعيد دمياط من الثوار[٣] ، كان السلاجقة يمكنون نفوذهم في بلاد الشام : ففي سنة ٤٦٣ أعلن محمود بن صالح المرداسي أمير حلب ولاءه للسلاجقة واستجاب لطلب السلطان السلجوقي ألب أرسلان فأقام الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي ، واستولى أتسز التركاني[٤] مقدم الاتراك لحسابه الخاص على الرملة وبيت المقدس ، وشن الغارات على دمشق وأعمالها وقطع عنها الميرة ، ومنع عنها غلاتها عدة سنين حتى اضطرب امرها ، وقلت الأقوات فيها ، وجلا اكثر اهلها عنها ، واضطر من بقي فيها من اهلها الى تسليمها بالأمان لأتسز في ذي القعدة سنة ٤٦٨ هـ[٥] ، وخضعت له صيدا وعكا ، وتغلب على اكثر بلاد الشام . ثم سمت همته الى فتح مصر ، فزحف نحوها في سنة ٥٦٩ في حشود ضخمة ، فتصدى له بدر الجمالي في ظاهر القاهرة ، وأنزل به هزيمة نكراء أفلت بعدها في نفر يسير من أصحابه الى الرملة ، ثم رحل من هناك الى دمشق . وفي سنة ٤٧٠ هـ وصل تاج الدولة أبي سعيد تتش بن السلطان السلجوقي ألب أرسلان الى

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٨٧ - المقريزي ، اتعاظ الحنفا (مخطوطة) ورقة ١٠١ أ ، ١٠٦ ب المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٠٨ - النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠

(٢) الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ص ٢٦٣ - المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤٨

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا (مخطوطة) ورقة ١٠٧ ب

(٤) هو القائد أتسز بن أوق مقدم الاتراك الغز في الشام ، وقيل أتسز بن أبق ، أحد أتباع السلطان ألب أرسلان .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ - ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٠٠

الشام لفتحها لحسابه ، فنزل في حلب وحاصرها بمساعدة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل . وكان بدر الجمالي قد سير الى دمشق جيشاً ضخماً بقيادة نصر الدولة الجيوشي ، فحاصرها واستولى على أعمالها واعمال فلسطين ، فاضطر أتسز الى الاستنصار بتاج الدولة تتش ، ووعده أن يسلمه دمشق ويكون في خدمته ، فقدم تتش لنجدته ، فانسحب الجيش الفاطمي الى الساحل (نحو صيدا) ، وكان ثغرا صور وطرابلس ما زالا مستقلين في أيدي قاضييهما قد تغلبا عليهما . على أن تتش ما كاد يدخل دمشق حتى غدر بأتسز فقتله في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٩ م) وقتل أخاه واستأثر بدمشق[١] . وأخذ تتش يستولي على سواحل الشام ، فافتتح صيدا في سنة ٤٧١ هـ وانتزعها من نواب المستنصر[٢] ، كما افتتح انطرطوس وبعض الحصون في سنة ٤٧٤ هـ[٣] .

ولكن بدر الجمالي لم يرض عن هذا الوضع ، وعز عليه أن ينتزع السلاجقة مدينة صيدا ، فسير إليها جيشاً بقيادة نصير الدولة الجيوشي في سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) ، وحاصرها ، ونجح في استرجاعها ، وأخرج منها نواب تاج الدولة تتش ، وولى عليها نائباً من قبله ، وظفر فيها بذخائر وأموال تتش[٤] . كذلك استرجع بدر الجمالي ثغر صور ، وكان بها اولاد القاضي عين الدولة بن أبي عقيل بعد وفاته ، ولم تكن لديهم قوة يدفعونه بها ، فسلموها إليه ، وبالاضافة الى هاتين المدينتين تمكن بدر من افتتاح ثغري جبيل وعكا[٥] .

وظلت صيدا موالية لمصر من سنة ٤٨٢ هـ حتى ٣ ربيع الآخر سنة

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١١٢ ، ١١٣ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١١١
(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٨
(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١٢١
(٤) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٢٨
(٥) ابن القلانسي ، ص ١٢٠ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ١٧٦ . ولكن ابن شداد يذكر أن بدر الجمالي استرجع صيدا في سنة ٤٧٢ (ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٩)

٥٠٤ عندما استولى عليها بلدوين ملـــك بيت المقدس . أما صور فقد استقل بها واليهـا من قبل المستنصر وهو منير الدولة الجيوشي في سنة ٤٨٦ هـ[١] ، فسير إليه بدر الجمالي جيشاً استنزله واسترجع المدينة ، وتولى عليها وال يسمى الكتيلة لم يلبث أن اعلن استقلاله بها عن الفاطميين في سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، فارسل إليه الأفضل شاهنشاه وزير الخليفـــة المستعلي بالله الفاطمي جيشاً لإستنزاله ، وتمكن هـذا الجيش من دخولها والقبض على واليها الثائر[٢] . ويذكر الشيخ طنوس الشدياق أن شمس الملوك دقــاق بن السلطان تاج الدين تتش[٣] ، الذي تولى دمشق في سنة ٤٨٨ هـ ولى الأمير عضد الدولة شمس المعالي أبا المحاسن الارسلاني على صيدا وبيروت في سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) مكافأة له لتصديه لجيش ريمـــون الصنجيلي عنــد نهر الكلب ، وأمره بتحصينهما ، فأناب عضد الدولة عنه في ولاية صيدا الامير مجد الدولة محمد بن عدي بن سليمان من بني عبدالله ، الذي تولى تحصين صيدا[٤] .

(هـ) ازدهار صيدا في العصر الفاطمي :

على الرغم من قصر أمد فترة الاستقرار التي نعمت بها صيدا في العصر الفاطمي ، وشمول الفوضى والقلاقل والفتن في ربوع البلاد الشامية بسبب تصارع القوى الاسلامية المختلفة ، وتنازع الولاة على السلطان ، فإن مدينة

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٢٤

(٢) نفسه ، ص ١٣٤ . وبهذه المناسبة ينبغي أن نشير هنا إلى أن الاستاذ منير الخوري مصنف كتاب « صيدا عبر حقب التاريخ » كثيراً ما يربط أحداث صور بصيدا ويخلط بين المدينتين فيذكر أن القاضي عين الدولة بن أبي عقيل استقل بصور وصيدا ، ويذكر أيضاً أن بدر الجمالي اسند ولاية صور وصيدا الى منير الدولة ، وهو قول غير صحيح ولا يستند على أسانيد تاريخية (راجع منير الخوري ، ص ١٤٩)

(٣) استشهد تاج الدولة في سنة ٤٨٧ هـ

(٤) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٤ - ذخائر لبنان ، ص ١٧٨

صيدا شهدت في هذا العصر الفاطمي ذروة ازدهـــارها ، ونستدل من وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو لصيدا في سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٧ م) على أن صيدا كانت تعتمد في ثروتها الاقتصادية على زراعة قصب السكر بالإضافة الى زراعة اشجار الفاكهة ، كما نستدل ايضاً من وصفـه لسوق صيدا ، وبهائه وحسن منظره على ازدهار التجارة في صيدا ، وهو امر طبيعي باعتبارها ثغراً بحرياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموانئ الشام الاخرى وموانئ مصر . كذلك نستدل من وصفه لها على أن المدينـــة كانت مسورة بسور حصين تنفتح فيه ثلاثة ابواب ، وأنها كانت حصينة مزودة بقلعة قوية من الحجر لعلها كانت مقامة في نفس الموضع الذي تقوم عليه اليوم قلعة البر ، وأنها كانت مزودة ايضاً بمسجد جامع نعتقد أنه كان يقوم في نفس البقعة التي اقيمت فيها الكنيسة الاسبتارية في عهد الاحتلال الصليبي ، ثم تحولت هذه الكنيسة فيما بعد الى مسجد جامع بعد أن استرد الأشرف خليل مدينة صيدا في سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١ م) ، يقول ناصر خسرو : « وبعد ذلك وصلنا الى مدينة صيدا وهي ايضـــاً على ساحل البحر ، وفيها يزرع القصب بكثرة ، ولهـا سور حجري محكم ، وثلاث بوابات ، ومسجد رائع تقام فيه صلاة الجمعـــة بخشوع تام وروح عالية ، وقد فرش الجامع كلـــه بالحصير المنقوش . وللمدينة سوق جميلة مزينة ، بحيث أنني ظننت حين رأيتها أن المدينة قد زينت لاستقبـال السلطان ، أو للاحتفال بإحدى المناسبات ، فلما سألت عن السبب قيل لي : التقليد في هذه المدينة أن تكون دائماً على هذا النحو . وفيهـــا بساتين ذات اشجار منسقة حتى لتقول إن ملكاً له ولــــع بالبساتين قد غرسها . وفي هذه البساتين جوسق ، واكثر الاشجار هناك مثمرة »[١] .

ولم تتغير صورة صيدا التي وصفهـــا ناصر خسرو في سنة ٤٣٨ هـ

(١) ناصر خسرو علوي . سفرنامة ، طبعة برلين (بالفارسية) ص ٢٠

(١٠٤٧ م) كثيراً عنها في زمن الشريف الإدريسي الجغرافي الذي زارها في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) بعد أن دخلها الصليبيون ، فمن المعروف أن التطور العمراني والفني يستلزم زمناً اطول بكثير من التطور التاريخي ، ولذلك فإن وصف الإدريسي لصيدا يمكن أن ينطبق على المدينة في العصر الفاطمي المتأخر . يصف الإدريسي صيدا بقوله : « وأما مدينة صيدا فهي على ساحل البحر الملح ، وعليها سور حجارة ينسب الى امرأة كانت في الجاهلية[١] ، وهي مدينة كبيرة عامرة الأسواق رخيصة الاسعار ، محدقة بالبساتين والأشجار ، غزيرة المياه ، واسعة الكور ، لها اربعة اقاليم ، وهي متصلة بجبل لبنان[٢] » .

ولقد عني ولاة صيدا من قبل الخليفة الفاطمي بتحصينها ، وقد رأينا أن الأمير عضد الدولة شمس المعالي ابا المحاسن الارسلاني عهد بتحصينها الى نائبه عليها مجد الدولة فتم ذلك في سنة ٤٩٤ هـ . ويبدو أن اعمال التحصين بدأت قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات واستكملت في سنة ٤٩٤ هـ بدليل أننا عثرنا على نص كتابي محفوظ بمتحف اللوفر يسجل تاريخ إنشاء برج حربي في مدينة صيدا على يد الامير سعد الدولة ابي منصور استكين الافضلي ، الذي نعتقد أنه كان يتولى هذه المدينة في التاريخ المذكور . والنص يتألف من عشرة اسطر من الكتابة الكوفية المزهرة ، نطالع فيه ما يلي : « بسمله لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ، علي ولي الله ، صلوات الله عليهما وعلى آلهما ، أمر بعمارة هذا البرج فتا مولانا وسيدنا احمد ابي القاسم الإمام المستعلي بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الاكرمين ، السيد الاجل الافضل ، شرف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين

(١) لعل فيما ذكره الحميري في الروض المعطار في خبر الاقطار في قوله إن صيدا تحمل اسم امرأة (القلقشندي ، ج ٤ ص ١١١) علاقة بما ذكره الادريسي قبله .

(٢) Idrisi, Palaestina et Syria, p. 15

وهادي دعاة المؤمنين ابي القاسم شاهنشاه المستعلي بن السيد الاجل امير الجيوش عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، على يد مملوكه الامير ... سعد الدولة ابو منصور استكـين الافضلي ... سنة احد وتسعين واربع ماية »[١] .

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t. 8, p. 39

الفصل الثالث

صيدا في عصر الحروب الصليبية

١ – الفترة الاولى من الاحتلال الصليبي لصيدا
(٥٠٤ – ٥٨٣ هـ / ١١١٠ – ١١٨٧ م)

(أ) مقدمات الاحتلال الصليبي .
(ب) سقوط صيدا في أيدي الصليبيين في سنة ٥٠٤ هـ
(ج) صيدا في العهد الصليبي الاول (٥٠٤ – ٥٨٣)
١ – صيدا بارونية صليبية في ظل اسرة ابوستاش جارنييه .
٢ – صيدا قاعدة حربية للصليبيين أسهمت في فتح صور وعسقلان
٣ – الاحداث الهامة في صيدا في العهد الصليبي الاول

٢ – صيدا في المرحلة الانتقالية بين الاسترداد الاسلامي الاول والاحتلال الصليبي الثاني

(أ) الاسترداد الاسلامي لصيدا في ٢١ جمادي الاولى سنة ٥٨٣ (١١٨٧م)
(ب) فتح قلعة شقيف أرنون في سنة ٥٨٥ (١١٨٩ م)
(ج) هدم أسوار صيدا وتحصيناتها في سنة ٥٨٦ (١١٩٠)
(د) صيدا في عصر خلفاء صلاح الدين
١ – صلح سنة ٥٨٨ هـ
٢ – تدمير أسوار صيدا في عهد العادل
٣ – معاهدتا صلح سنة ٥٩٤ وسنة ٦٠٠
٤ – صيدا في عهد الملك الكامل محمد

٣ – الفترة الثانية من الاحتلال الصليبي لصيدا
(٦٢٦ – ٦٩١ هـ / ١٢٢٨ – ١٢٩١ م)

(أ) اضطراب صيدا بين السيطرة الإسلامية والصليبية

(ب) الغارة المغولية المدمرة على صيدا (٦٥٨ هـ – ١٢٥٩ / ١٢٦٠ م) : أسبابها ونتائجها

(ج) آثار الصليبيين في صيدا

الفصل الثالث
صيدا في عصر الحروب الصليبية

(١)

الفترة الأُولى من الاحتلال الصليبي لصيدا
(٥٠٤ — ٥٨٣ هـ / ١١١٠ — ١١٨٧ م)

(أ) مقدمات الاحتلال الصليبي :

بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية في آخر جمادى الأولى سنة ٤٩١ هـ (يونيو ١٠٩٨ م) ، وعلى معرة النعمان في ١١ نوفمبر من السنة ذاتها (١٤ المحرم سنة ٤٩٢ هـ) زحف ريمون كونت دي تولوز بجموع الصليبيين نحو بيت المقدس ، فمروا بقلعة مصياف وبعرين ورفنية وحصن الأكراد ثم عرقة ، وحاصرت معظم قوات الصليبيين مدينة عرقة ، في حين هاجم فريق منهم أنطرطوس التي استسلمت في ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . أما عرقة فلم يؤد حصارهم الطويل لها الى أي نتيجة ، فاضطر ريمون الى رفع الحصار ، وتابع الزحف الى بيت المقدس بعد أن هاداه فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس بالهدايا والألطاف وقدم اليه قدراً كبيراً من المال ، وافرج عن ثلاثمائة من الاسرى البيزنطيين ، ووجه مع الفرنج أدلاء لإرشادهم الى آمن الطرق المؤدية الى بيروت[١] . وفي

---

(١) يوسف الدبس ، تاريخ سورية ، ج ٦ بيروت ١٩٠٠ ص ٢٩ — جورجي يني ، تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١ ص ٣٨٠ — حسن حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ١٧٠ — طرابلس الشام ، ص ٨٢

طرابلس اجتذب أنظار رسل ريمون كونت دي تولوز عظم ثروة طرابلس الزراعية ، وراقهم رؤية قصب السكر لأول مرة ، ورطب النخل ، والليمون وغيرها من الثمار والفاكهة التي لم يشاهدوها من قبل[١]. ثم سلك الصليبيون طريق الساحل المؤدية الى بيروت حتى يمكنهم الاتصال في سهولة ويسر بالسفن الجنوية والپيزانية التي كانت تمدهم بما يحتاجون اليه من مؤن واقوات ، فمروا بالبترون وجبيل ، ثم وصلوا الى بيروت ، وهناك بذل لهم اهل المدينة الهدايا الكثيرة ، وتركوهم يعبرون من بلدهم نحو الجنوب بعد أن اشترطوا عليهم عدم التعرض لمزارعهم[٢].

وعندما وصل الصليبيون امام صيدا عسكروا على الضفة الجنوبية من نهر الأولي في ٢٠ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتركوا عسكرهم ينتشرون دون خوف في نواحي المنطقة ، فخرج رجال حامية صيدا الاسلامية الذين عرفوا بصلابتهم وشدة بأسهم ، وهاجموا بعض اجناد الفرنج الذين وصلوا متفرقين الى مشارف المدينة الامر الذي دفع هؤلاء الصليبيين الى مقابلة الاعتداء الاسلامي بالمثل ، فأرسلوا لمعاقبة المعتدين فرقة اغارت على المزارع ، فأتلفت الغروس والمحاصيل ، ونهبت القرى المجاورة[٣].

ثم رحل الصليبيون بعد ذلك الى صور عبر الصرفند ، ومن الجدير بالذكر أنهم لم يقابلوا أي نوع من المتاعب أثناء زحفهم الطويل من أنطاكية الى بيت المقدس باستثناء صيدا وحدها ، ويرجع السبب في ذلك الى جنوح امراء المسلمين في المدن التي مر بها الصليبيون الى التفاوض السلمي والى ميلهم لموادعة الصليبيين حقناً للدماء وتفادياً لما يمكن أن يعود عليه

(١) الدبس ، نفس المصدر ، ج ٦ ص ٢٩ — جورجي يني ، المرجع السابق ، ص ٣٨٠

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٧ ، ج١ ص ٣٨٨

(٣) Grousset, Histoire des Groisades, t. I, 1934, p. 150 – Frederick, p. 82
سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٣٩ رنسيمان ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٣٨٩

أي صدام مسلح مع هذه الحشود المسلحة من أضرار على مدنهم ، ولا ينبغي أن ننسى حرص هؤلاء الولاة الشديد على الاحتفاظ بولايتهم لهذه المدن ، في حين مال الصيداويون الى الخشونة والعنف كوسيلة لإرهاب المعتدين وردعهم .

وصلت حشود الصليبيين الى صور ، ومنها اتجهوا الى عكا ، حيث خرج للقائهم واليها زهر الدولة الجيوشي ووعدهم بأن يسلم لهم مدينته عندما يتحقق لهم الاستيلاء على بيت المقدس . فواصلوا سيرهم الى قيسارية ورحلوا منها الى أرسوف ، وبالقرب من هذه المدينة انحرفوا شرقاً نحو بيت المقدس ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ م) بعد حصار دام نحواً من اربعين يوماً ، وتبع دخولهم المدينة مذبحة رهيبة استمرت ما يقرب من اسبوع سفكت خلاله دماء الألوف من اهل بيت المقدس[١].

ثم اختار الصليبيون جودفروي دي بويون ملكاً على بيت المقدس في ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ولكن عهده كان قصيراً للغاية ، فلم يلبث أن لقي مصرعه بسبب سهم اصابه أثناء قيامه بحصار عكا في سنة ٤٩٤ هـ (١٨ يوليو ١١٠٠ م) ، وخلفه على مملكة بيت المقدس أخوه بلدوين امير الرها ، الذي قدم الى بيت المقدس ماراً بأنطاكية واللاذقية وطرابلس ، ولم يعترض المسلمون مسيره في بيروت وصيدا[٢] حتى وصل الى بيت المقدس حيث نودي به ملكاً في ٤٩٤ (ديسمبر ١١٠٠ م) . وفي هذه السنة ايضاً افتتح الصليبيون مدينة حيفا بالسيف ، وارسوف بالأمان في ابريل سنة ١١٠١ م ، كما اعانهم الجنوية على فتح قيسارية بالسيف في ١٧ مايو سنة ١١٠١[٣] .

---

(١) ابن القلانسي ص ١٣٩ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٢٨١ ، ٢٨٤ — P. Rousset, Histoire des Croisades, Paris, 1957, p. 104 – سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٤٤

(٢) رنسيمان ، ج ١ ص ٤٥٨

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٣٢٥ رنسيمان ، ج ٢ ، ص ١٢٠

وظل الفاطميون يحتفظون ببعض مدن الساحل مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكانوا يسببون بذلك الكثير من المضايقات للصليبيين : ففي سنة ٤٩٥ هـ (شتاء ١١٠٢ م) وصلت مراكب للفرنج الحجاج يقدر عددها بنحو اربعين مركباً ، دفعتها امواج البحر العاتية الى الساحل ، فعطب اكثرها ، ووقع هؤلاء الفرنج اسرى في ايدي المسلمين ، وتعرض البعض منهم لسيوف الفاطميين في صيدا وعكا وعسقلان[١] ، وقد سبب ذلك اسوأ الاثر في نفس بلدوين[٢] . وفي ربيع سنة ١١٠٣ م (جمادى الآخرة سنة ٤٩٥ هـ) عزم بلدوين على فتح عكا ومدن الساحل مستغلاً وجود عدد من السفن الانجليزية يصل الى ١٦ قطعة بحرية ، فزحف على عكا وحاصرها وضيق عليها ، ونصب المنجنيقات والأبراج ، وكاد يستولي عليها لولا أن ارسلت اليها كل من صيدا وصور اثني عشر غراباً وحمالة ضخمة تحمل خمسمائة من مقاتلة المسلمين وآلات لقذف النار اليونانية ، وتمكن المسلمون من احراق منجنيقاتهم وابراجهم واحراق سفنهم ايضاً ، وارغموا بلدوين على فك الحصار والرحيل عن عكا[٣] . ولم ينس بلدوين في هذه المرة ايضاً الدور الذي قام به اهل صيدا لمساعدة عكا ، ولذلك عقد العزم على الاستيلاء عليها .

ثم حاول بلدوين في نفس هذا العام الاستيلاء على بيروت ، فنزل عليها وحاصرها طويلاً ، ولكنه لم ير فيها مطمعاً ، فاضطر الى الرحيل عنها[٤] . غير أنه اذا كان قد اخفق في فتح بيروت في هذه السنة فإنه نجح في الاستيلاء على عكا في شعبان سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٥ م) ، فقد ساعده في افتتاحها في هذه المرة عدد كبير من السفن الجنوية يتجاوز التسعين ، مشحونة بالتجار والأجناد والحجاج ، وبفضل هذه المساعدة

(١) ابن القلانسي ، ص ١٤١ Grousset, Histoire des Croisades, t. I, p. 239

(٢) Frederick, p. 83

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٣٤٥ – رنسيان ، ج ٢ ص ١٤٢ Grousset op. cit. p.239

(٤) نفس المصدر

لازم المدينة التعسة بالقتال حتى ملكها بالسيف قهراً ، وكان واليها الامير زهر الدولة بنا الجيوشي قد خرج منها لعجزه عن حمايتها ، وارسل الى بلدوين يطلب منه الامان له ولأهل عكا ، بعد ان يئس من وصول أي نجدة ، فلم يوافق الصليبيون على طلبه ، ولاذ زهر الدولة بدمشق ، ومنها رحل الى مصر[١] . وفي سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٦ م) وصل الى يافا اسطول يحمل عدداً كبيراً من الحجاج الانجليز والفلمنكيين والدانيين يتراوح ما بين ٧٠٠٠ ، ٩٠٠٠ حاج ، فعمد بلدوين الى انتهاز هذه الفرصة المواتية ليستخدمهم في حصار صيدا ، وذلك بعد أن ينتهوا من اداء الحج . ولكن اهل صيدا تخلصوا من هذا الحصار بأن بذلوا له قدراً كبيراً من المال يبلغ ١٥ الف دينار ، وكانت الانباء قد جاءت بوفاة هيو صاحب طبرية ، فلم يسعه الا قبول ما عرضه عليه اهل صيدا لحاجته الى المال ، وبادر برفع الحصار والسير الى طبرية[٢] .

وفي سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) هاجم بلدوين مدينة صور رداً على غارة مسبقة شنها والي صيدا على حصن تبنين في سنة ٥٠٠ هـ ، فحاصرها وأقام يحاصرها شهراً ، أنشأ خلاله حصناً على تل المعشوقة ، فصانعه واليها عز الدين أنوشتكين الافضلي على سبعة آلاف دينار ، فرحل بلدوين عنها[٣] الى صيدا ، فنزل عليها وحاصرها من البر والبحر مستخدماً في حصارها اسطولاً يسيره ملاحون مغامرون قدموا من مدن ايطالية مختلفة من بيزة وجنوة والبندقية وأملفي الى سواحل فلسطين ، لعله نفس

(١) ابن القلانسي ، ص ١٤٤ نص مرآة الزمان لسبط بن الجوزي من Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, t. III pp. 527, 528 - ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢٦ - ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٣٧٣ .

(٢) Grousset, op. cit. t. I, p.245 - Stevenson, op. cit. p. 48 - رنسيمان ، ج ٢ ص ١٤٨ - Frederick, p.83 - Deschamps, La défense du Royaume de Jérusalem, p.224

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٥٥ - ابن القلانسي ، ص ١٥٩ - نص مرآة الزمان من R. H. C. ص ٥٣٤ - رنسيمان ، ج ٢ ص ١٤٩

الاسطول البيزاني الذي كان قد وصل الى اللاذقية لفتحها[١]. فاستنجد والي صيدا بالتركان في دمشق وعرض عليهم ان يبذل لهم مبلغاً قدره ٣٠ ألف دينار في مقابل مساعدتهم له. فلما نزل بلدوين على صيدا نصب عليها برجاً خشبياً، وتأهب لضربها واقتحام اسوارها عنوة، ولحسن طالع صيدا وصل الاسطول المصري في تلك الآونة للذب عنها ومدافعة الصليبيين، في قطع بحرية يزيد عددها على الخمسين، وتمكن هذا الاسطول من التغلب على سفن الجنوية وعلى عسكر الصليبيين في موقعة بحرية حدثت في مياه صيدا، وفي نفس الوقت بلغ بلدوين أن ظهير الدين أتابك صاحب دمشق سير عسكراً من التركان الى صيدا لحمايتها والدفاع عنها، فاضطر الى رفع الحصار عنها[٢]، واحرق آلاته وعاد الى عكا. ويذكر المؤرخون أن اسوار صيدا وبرجين من ابراجها اصيبت اصابات بالغة أثناء الحصار الصليبي بسبب قذائف اللاتين، فلما رحل الصليبيون وصلت النجدة الدمشقية التي كان قد طلبها والي صيدا، فرفض اهل صيدا السماح للتركان بدخول مدينتهم لما توافر لهم من دواعي الارتياب في نوايا طغتكين صاحب دمشق، كما امتنع والي صيدا عن بذل المبلغ الذي كان قد عرضه عليهم لقاء مساعدتهم، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين، وعندئذ اضطر والي صيدا الى ان يدفع اليهم عشرة آلاف دينار تعويضاً[٣].

وكان الصليبيون قد تضامنوا جميعاً في حصار مدينة طرابلس في الفترة الواقعة ما بين اول شعبان سنة ٥٠٢ هـ و ١١ ذي الحجة من نفس السنة، وقطعوا الاتصال عنها تماماً من البر والبحر، وكاتب اهل طرابلس الوزير الافضل شاهنشاه يسألونه أن يمدهم بالأقوات والمؤن والسلاح والرجال، واقاموا ينتظرون ورود السفن الفاطمية التي تحمل اليهم الامدادات.

(١) Claude Cahen, La Syrie du Nord, Paris, 1970, p. 544

(٢) ابن القلانسي، ص ١٦٢ ابن الاثير، ج ١٠ ص ٤٥٦ نص مرآة الزمان من R. H. C. ص ٥٣٥ Grousset, t. I, p. 253

(٣) رنسيمان، ج ٢، ص ١٤٩ Stevenson, p. 50 Frederick, p. 84

ولكن الشهور مرت دون أن تصل الامدادات في الوقت الذي استأسد فيه كلب العدو وفترت مقاومة الاهالي والحامية وانعـدمت الاقوات في المدينة . ولما يئس والي طرابلس من وصول المدد عزم على التسليم ، وتم استيلاء الصليبيين على طرابلس في ١١ من ذي الحجـة سنة ٥٠٢ هـ (١٢ يوليو ١١٠٩) . ثم وصل الاسطول الفاطمي قادماً من مصر بعد فوات الاوان ، مشحوناً بالرجال والمال والغلال ما يكفي أهل طرابلس لمقاومة حصار سنة ؛ وصل هذا الاسطول الى صور بعـــد سقوط طرابلس في ايدي الصليبيين بنحو ثمانية ايام ، فوزعت الغلال والذخائر في جهـات صور وصيدا وبيروت[1] ، وتمسك أهـــل صيدا وصور وبيروت بهذا الاسطول وألحوا على استبقائه لحمايتهم والذب عنهم ، وشكوا الى قادته سوء أحوالهم وضعفهم عن محاربة الصليبيين ، ولكن القادة لم يبالوا بذلك ولم يستجيبوا لندائهم ، فأقلعوا به عائدين الى مصر عند استقامة الريح[2]، وكان في إمكان هذا الاسطول إنقاذ بـيروت وصيدا من الحصار الصليبي الوشيك ، وبعودته دون أداء هذه المهمة تكون السلطات الفـــاطمية في مصر قد اسهمت في ضياع مدن الساحل السوري كله .

(ب) سقوط صيدا في ايدي الصليبيين في سنة ٥٠٤ هـ :

أحدث سقوط طرابلس دوياً هائلاً في بلاد الشام ، وأدى الى انهيار مقاومة المسلمين في كثير من مدن الساحل التي طالما صمدت امام الحصار الصليبي المتكرر واستعصت على الصليبيين . وقد استغل الصليبيون حالتي الذهول والانهيـار اللتين أصابتا المسلمين عقب سقوط طرابلس في ايديهم لكسب مدن جديدة وضمها الى إمارتهم في الشام ، ففي ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ استولى تنكريد صاحب أنطاكية على جبلة ، ونشط برتران ابن ريمون الصنجيلي فحاصر رفنية ولكنه تنازل عنها للمسلمين في مقابل

---

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٧٦ ، ٤٧٧

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٤

أن يتخلى له المسلمون عن ثلث غلات البقاع وأن يسلموا له حصن المنيطرة وحصن ابن عكار ، وأن يقدم له اهالي مصياف وحصن الاكراد وحصن الطوفان قدراً معيناً من المـــال في كل عام[1]. وفي ٢١ من شوال سنة ٥٠٣ هـ تمكن بلدوين بفضل مساعدة برتران الصنجيلي من دخول بيروت عنوة . والواقع أن بلدوين ملك بيت المقدس كان يشغله شاغل واحـد منذ توج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية وهو استكمال فتح مدن الساحل الباقية في ايدي المسلمين واهمها بيروت وصيدا وصور وعسقلان، حتى يقضي بذلك على الجيوب والثغرات التي تتخلل منطقة نفوذه . أما عسقلان وصور فكانتا من المدن المنيعة التي لا يسهل الاستيلاء عليها الا إذا توفرت لديه امكانيات ضخمة وقدرات واسعة ومساعدات تأتي اليه من الخارج ، ولذلك أرجأ فتحها الى حين ، وآثر أن يبدأ ببيروت وصيدا . وكان بلدوين قـد اشترك مـع برتران في فتح طرابلس ، ولذلك السبب لم يتردد برتران في تقديم العون لبلدوين عند شروعه في فتـــح بيروت ثم صيدا بعد ذلك . كذلك اشترك في فتح بيروت جوسلين صاحب تل باشر ، وساعد قدوم بعض السفن الجنوية والبيزانية وعددهـا اربعون سفينة[2] بلدوين على حصار بيروت من البحر وقطع الامدادات التي تصل اليها من ذلك الطريق في الوقت الذي تطوقها قواته وقوات برتران من البر ، كما سهل وجود قاعدة بحرية صليبية في طرابلس على الصليبيين مهمة إحكام الحصار حول بيروت . وحاولت السفن الصيداوية والصورية عبثاً الوصول الى بيروت المحصورة لإمداد سكانها بالعدد والاقوات ، بسبب تطويق السفن الإيطالية لمدخل الميناء[3] . واستغرق حصار الصليبيين لمدينة بيروت مدة شهرين ونصف (من آخر فبراير سنة ١١١٠ حتى ١٣ مايو من نفس السنة)

(١) طرابلس الشام ، ص ١٠٣

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ — نص مرآة الزمان في : R. H. C. t. III ص ٥٣٩

(٣) رنسيمان ، ج ٢ ص ١٤٩ — Stevenson, p. 59 سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٠٩

تمكنوا بعدها من دخول المدينة قهراً . ووجد الفرنج في غابات الصنوبر والأحراج التي كانت تمتد الى الجنوب من مزرعة العرب ورأس النبع بين الطريق الى صيدا والطريق الى دمشق جميع الاخشاب اللازمة لصناعة آلات الحصار كالأبراج المتحركة والمنجنيقات والسلالم . ويذكر ابن القلانسي أن القتال اشتد بين الصليبيين والمسلمين ، وأن مقدم الاسطول المصري الذي كان بداخل مياه بيروت قتل هو وعدد كبير من المسلمين ، وأن الإفرنج لم يشهدوا قط حرباً في عنفها وضراوتها . ويذكر الشدياق أن الامير عضد الدولة علي بن شجاع الدولة الارسلاني وجماعة من اقاربه كانوا في بيروت في الوقت الذي هاجمها فيه الصليبيون[١] ، ولقي مصرعه عندما دخلوها هو وخمسة أفراد من أمراء بيته . وفي مايو انهارت مقاومة الحامية المصرية في بيروت ، وفر والي المدينة الى قبرص مع معظم قواده تاركاً الاهالي يجرون مفاوضات التسليم[٢] . ثم دخل بلدوين بيروت في ١٣ مايو سنة ١١١٠ م (٢١ من شوال سنة ٥٠٣ هـ) عنوة بالسيف ، « فقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا كما فعلوا بطرابلس ، واستصفوا الاموال والذخائر »[٣] ، وبلغ عدد القتلى من أهل بيروت عشرين ألفاً[٤] . ولم يكتف بلدوين بما اجترمه في بيروت ، بل أخرج الاسرى جميعاً خارج المدينة ، وضرب اعناقهم في اليوم التالي من سقوط بيروت[٥] .

ثم زحف بلدوين بعد ذلك الى صيدا ، وكان يتولاها وقتئذ الأمير

(١) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٥

(٢) رنسيمان ، ج ٢ ص ١٤٩ — Grousset, t. I, p. 254 - Stevenson, p. 59 . ولكن الأب لامنس يذكر أن الوالي المذكور قبض عليه ، وحمل الى الافرنج فقتل هو ومن كان معه وغنم الصليبيون ما كان قد حمله معه من أموال (Lammens, La Syrie; Précis historique Beyrouth, 1921, p. 215)

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ — نص مرآة الزمان في : R. H. C. t. III ص ٥٣٩

(٤) Grousset, t. I , p.255

(٥) الشدياق ، ج ٢ ص ٢٩٥

مجد الدولة محمد بن عدي ، ونزل عليها براً وبحراً ، وأرسل الى أهلها يطلب منهم تسليم مدينتهم ، فاستمهلوه مدة عينوها ، فأجابهم الى طلبهم بعد أن قرر عليهم ٦ آلاف دينار[١] تحمل اليه مقاطعة ، وكانت تصله منهم قبل ذلك ألفا دينار ، ثم رحل عنها الى بيت المقدس للحج[٢] .

وذكر ابن القلانسي أنه وصل الى ثغر يافا بحراً ملك من ملوك الافرنج في حشد كبير من الرجال يحملهم ما يزيد على سبعين مركباً بقصد الحج والغزو في بلاد الإسلام ، وأنه قصد بيت المقدس حيث اجتمع به بلدوين وتقرر بينهما قصد البلاد الإسلامية وفي مقدمتها صيدا . ويشير مؤرخو الحروب الصليبية الى أن هذا المدد الذي قدم الى بيت المقدس من برجن من بلاد النرويج ، وكان يتألف من عشرة آلاف مقاتل يقودهم الملك سيجورد جورسالا فاري بن ماجنوس الثالث الذي اشترك مع أخويه في حكم بلاد النرويج ، وهو لذلك أول ملك متوج يقدم في أسطول كبير لزيارة مملكة بيت المقدس . وتصادف أن وصل هذا الاسطول النرويجي الى يافا عند عودة بلدوين اليها بعد استيلائه على بيروت وفشله في دخول صيدا ، ففرح بلدوين لوصوله واحتفى بمقدمه ، وأوكب معه من يافا الى القدس ، وأتاح له زيارة الاماكن المقدسة ، وغمره بالهدايا والألطاف بغية الإفادة منه ومن أصحابه الذين قدموا بقصد الحج في تنفيذ مآربه وأهدافه التوسعية في صيدا وصور . وتم الاتفاق بين الملكين علي أن يشتركا معاً في فتح صيدا ويشترك معهما برتران كونت طرابلس . وفي ١٩ اكتوبر سنة ١١١٠ م (٣ ربيع الثاني سنة ٥٠٤ هـ) نزل الملكان بجحافلهما على ثغر

---

(١) ابن القلانسي ص ١٦٨ – ابن شداد ، الاعلاق ، قسم ٢ ص ٩٩ . وذكر الشدياق أن أمير صيدا واهلها لما يئسوا من السلامة عقدوا مع الملك صلحاً ودفعوا له عشرين الف دينار (ج ٢ ص ٢٩٥)

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٨ – نص مرآة الزمان في R. H. C. t. III ص ٥٣٩ – Frederick, p. 84

صيدا[1] وخيّما على أسوارها ، واشترك معهما برتران الصنجيلي . وبدأ الصليبيون يحاصرون المدينة من البر والبحر حتى لا تتمكن قوات طغتكين من الوصول اليها من البر ولا السفن المصرية من الوصول اليها من ثغر صور بحراً . ومع ذلك فقد حاولت هذه السفن اختراق الحصار النرويجي البحري ، وضايقت السفن النرويجية ، ولكنها عجزت عن امداد أهل صيدا بما كانوا يحتاجون اليه من سلاح وأقوات ومقاتلة . وفي هذه الأثناء وصل أسطول للبنادقة يقوده الدوج اورديلافو فالير بنفسه[2] ، ويؤكد هايد استناداً الى ما جاء في المدونات الصليبية أن البنادقة أسهموا في حصار صيدا وفتحها بدليل أن الملك بلدوين تنازل لكنيسة سان ماركو بالبندقية وللدوج أورديلافو عن بعض الملكيات والحقوق في عكا[3] .

ويذكر ابن القلانسي أن الصليبيين صنعوا برجاً وزحفوا به الى أسوارها وقد زودوه بالماء والخل لإطفاء النار اذا ما اشتعلت فيه ، وبآلات الحرب والقتال ، ولبّسوه بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط ، ثم نقلوه على بكر ركب تحته . فلما رأى المسلمون بصيدا ذلك ضعفت هممهم وأشفقوا على أنفسهم من عاقبة المطاولة

---

(١) ذكر السيد منير الخوري خطئاً أن بلدوين أعد حملة كبيرة في سنة ١١١٠ قادها بنفسه وترك الحكم في القدس الى برترام بن سان جيل وتوجه الى بيروت وحاصرها في أواخر شباط واستولى عليها ، والحقيقة أن برترام اشترك مع بلدوين في فتح بيروت . كذلك ذكر السيد منير الخوري أن بلدوين تقدم الى صيدا وحاصرها حصاراً شديداً لمدة اربعين يوماً دون نتيجة ولكن وصول قوات من جنوة والبندقية بالإضافة الى ٦٠ مركباً نرويجياً بقيادة الملك سيمون مع عشرة آلاف محارب ، ومجيء الكونت برترام مع قواته عجل بسقوط صيدا . ولا ندري من أي مصدر استقى سيادته هذه المعلومات فالمصادر العربية واللاتينية تتفقان على أن الملك النرويجي والملك الصليبي اشتركا معاً في حصار المدينة من البر والبحر ، كما أن الاسم الصحيح لملك النرويج هو سيجورد وليس سيمون. (راجع منير الخوري، ص١٥٦).

(٢) Stevenson, p. 60 - Deschamps, p. 224 - Grousset, t. I , p. 256 – رنسيمان ، ج ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ – سعيد عاشور ، ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١

(٣) W. Heyd, Histoire du commerce du Levant, t. I , Leipzig, 1936 p. 142

وخافوا أن يصيبهم ما أصاب أهل بيروت[1]. ويشير وليم الصوري الى أن والي صيدا أعد خطة لاغتيال بلدوين عن طريق مسلم مرتد كان غلاماً لبلدوين يقوم بخدمته الخاصة وافق على أن يتولى مهمة اغتياله لقاء مبلغ كبير من المال، ولكن نصارى صيدا كتبوا الى الملك المذكور رسالة يحذرونه فيها، أثبتوها في رأس سهم صوبوه الى المعسكر الصليبي، فاتخذ الملك حذره من خادمه الخائن وأمر به فشنق تحت الاسوار[2].

ولم تطل مقاومة أهل صيدا الى اكثر من ذلك، وقرروا التسليم على الأمان، فخرج قاضي المدينة ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنج، وطلبوا من ملكهم الامان، فتعهد بلدوين بتأمينهم على أنفسهم وأموالهم وعسكرهم، وترك للمسلمين حرية البقاء في صيدا في ظل الحكم الصليبي او الخروج منها آمنين على انفسهم واموالهم وذخائرهم دون أن يتعرض لهم أحد بسوء، كما تعهد بتأمين حياة من أراد البقاء بها، فاستحلفه وفد المسلمين على ذلك وتوثقوا منه. وفي ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٥٠٤ هـ (٥ ديسمبر سنة ١١١٠ م) خرج الوالي[3] والزمام وجماعة كبيرة من الأعيان وجميع الاجناد والعسكرية وعدد كبير من أهل صيدا يحملون معهم ما استطاعوا حمله من أموال ومتاع، وقدر مؤرخو الحركة الصليبية عددهم بنحو خمسة آلاف، ولاذوا بدمشق وصور، بينما آثر الباقون من أهلها الحياة فيها في ظل مملكة بيت المقدس الصليبية. ثم دخلتها جيوش الصليبيين، فرتب بلدوين الاحوال بها والحافظين لها من رجالته، وعاد هو الى بيت المقدس[4]. ولم يلبث أن عاد الى صيدا بعد عدة يسيرة، فنقض عهده للمسلمين، وقرر على من اقام بصيدا

(١) ابن القلانسي، ص ١٧١ – ابن الاثير، ج ١٠ ص ٤٧٩

(٢) رنسيمان، ج ٢ ص ١٥١ — Grousset, t. II, p. 257

(٣) كان يتولى صيدا وقتئذ الامير مجد الدولة محمد بن عدي (ذخائر لبنان، ص ١٨٠)

(٤) Stevenson, p. 60 – Grousset, t. I, p. 257 – رنسيمان، ج ٢ ص ١٥١ – يوسف الدبس، ج ٦ ص ٤٩ – سعيد عاشور، ج ١ ص ٣١١

من المسلمين نيفاً وعشرين ألف دينار ، فأفقرهم واستغرق أموالهم ، وصادر من علم أن له بقية منهم[1] ، وأصبحت صيدا بارونية يتولاها إيوستاش جارنييه سيد قيسارية ، الذي لم يلبث أن وطد مركزه بزواجه من إيما ابنة اخت البطريرك أرنولف[2] .

(ج) صيدا في العهد الصليبي الاول (٥٠٤ – ٥٨٣) :

١ – صيدا بارونية صليبية في ظل أسرة إيوستاش جارنييه :

بعد أن سقطت صيدا في ايدي الصليبيين اصبحت بارونيـة صليبية تابعة لمملكة بيت المقدس الصليبيـة ، وكانت حدود هذه البارونية تمتد من نهر الليطاني جنوباً حتى نهر الدامور شمالاً ، وتبسط سيادتهـا على عدلون والصرفند وأنحـاء جزين وقسم من الشوف كالباروك وبعقلين والمختارة ودير القمر[3] . وقد انحصرت سيادة البارونية في بيت الفارس إيوستاش جارنييه[4] سيد قيسارية الذي اصبح كفيلاً لمملكة بيت المقدس في سنة ١١٢٣ م[5] في أثناء وقوع بلدوين الثاني دي بور أسيراً في أيدي المسلمين[6] . ومن الجدير بالذكر أن سيادة هـذه البارونية أسندت إلى إيوستاش بعد سقوط صيدا في أيـدي الصليبيين سنة ١١١٠ . ولعبت بارونية صيدا في العهد الصليبي الأول دوراً هامـاً في توجيه السياسة الصليبية ، وفي تعزيز القوات الصليبية في بقية مناطق مملكة بيت المقدس

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٧١ – ابن الاثير ، ١٠ ص ٤٨٠ – ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، قسم ٢ ص ٩٩ – ابن خلدون ، كتاب العبر ، مجلد ٥ ، بيروت ، ص ٤٠٩

(٢) رنسيمان ، ج ٢ ص ١٥١ – Deschamps, p. 224

(٣) يوسف مزهر ، ج ١ ص ٢٠٩

(٤) تولى بعد إيوستاش عدد من البارونات هم : جيرارد بن إيوستاش (١١٢٤ – ١١٥٤) ، ثم ارناط سيد صيدا وشقيف أرنون (١١٥٤ – ١١٨٣)، وباليان (١٢١٠ – ١٢٣٩) وأخيراً جوليان الصيداوي الذي باع صيدا وشقيف أرنون في سنة ١٢٦٠ للداوية

(٥) Grousset, t. II , voir la liste des seigneurs de Saïda

(٦) Frederick, p. 86 – سعيد عاشور ، ج ١ ص ٢٠٩

كما ازدهرت من الناحية الاقتصادية بسبب ازدياد عدد سكانها ونمو مواردها[١] ، ومع ذلك فان الدور الذي لعبته صيدا في العهد الصليبي كان اقل شأناً من الدور الذي لعبته الثغور الصليبية الأخرى مثل صور وعكا ويافا[٢] سواء من الناحية التجارية أو السياسية . على أنها كمدينة خاضعة للصليبيين لفتت ببنائيها أنظار الصليبيين الذين قدموا بسفنهم لزيارة الأراضي المقدسة .

وكان يسكن صيدا أخلاط غير منتظمة من السكان تتألف من عناصر متباينة غير متجانسة بعضها اسلامية وبعضها مسيحية وطنية أي من اهل البلد أو مستوطنة ، وبعضها يهودية . أما المسلمون فكانوا يؤلفون أقلية سكانية ، فمن المعروف أن معظم من آثر البقاء في صيدا بعد وقوعها في أيدي الفرنج في سنة ١١١٠ م كانت لهم مصالح خاصة في البقاء بالمدينة ، فقد كان بعضهم يمتلك أراض يعيشون على زراعتها[٣] معظمها تقع في نواحي صيدا ومعظمها أيضاً من نوع البساتين ، وبعضهم كانوا ملاكاً للعقارات أو تجاراً لهم دراية بالأحوال الاقتصادية لإقليم صيدا . وقد تعرض المسلمون لاضطهاد الفرنج ، وقد رأينا كيف فرض عليهم بلدوين مبلغاً ضخماً من المال حتى يجردهم من ثرواتهم ، ويشير العماد الاصفهاني في الفتح الى أن معظم اهل صيداء وبيروت وجبيل من المسلمين كانوا مساكنين لمساكنة الفرنج مستسلمين ، وأنهم بعد أن حررهم صلاح الدين بعد موقعة حطين ذاقوا العزة بعد المذلة[٤] . أما النصارى البلديون وأعني بهم الوطنيين ، فكانوا قبل الفتح الصليبي لصيدا يعطفون على الحركة الصليبية ، ولما كان معظمهم من الأرثوذكس فقد رفضوا في العهد الصليبي الخضوع للكنيسة الكاثوليكية ، ولذلك تعرضوا لاضطهاد

(١) منير الخوري ، ص ١٥٨

(٢) Frederick, p. 82

(٣) Grousset, t. I , p. 257

(٤) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبعة محمود صبيح ، ص ١٠٨

الفرنج ، وفرض عليهم هؤلاء ضرائب ثقيلة ، ودفعوهم إلى الانتقال إلى داخل البلاد حيث يمكنهم الحياة في سلام في ظل المسلمين . وأما اليهود فكانوا قليلي العدد ، ولكنهم على قلتهم كانوا يتحكمون إلى حد كبير في النشاط الاقتصادي بصيدا ، وكان معظمهم يشتغل بالتجارة والصيرفة والصياغة ، ولم يكن لهم دور هام سواء في العصر الإسلامي أم في العصر الصليبي .

وكان سيد صيدا أحد أمراء أربعة يندرجون في المرتبة بعد الملك ، هم : أمراء يافا والجليل وصيدا والأردن ، وكان لكل من هؤلاء الأمراء موظفوه وإداريوه ، وهم على هذا النحو يتشبهون بالملك ولكن على نطاق مصغر ، وكان على سيد صيدا أن يقدم إلى الملك مائة وخمسين فارساً بكافة معداتهم واسلحتهم[١] .

٢ ـ صيدا قاعدة حربية للصليبيين أسهمت في فتح صور وعسقلان :

اتخذ الصليبيون من صيدا قاعدة بحرية ومركزاً رئيسياً للامدادات وذلك عندما شرع بلدوين في حصار صور سنة ٥٠٥ هـ ، وكانت مدينة صور على حد قول الإدريسي بلداً حصيناً ، قد احاط بها البحر من ثلاثة اركان[٢] . كذلك اشار المقدسي إلى حصانتها وذكر أنه يدخل إليها من باب واحد على جسر[٣] ، وردد ابن حوقل نفس المعنى[٤] . وبالإضافة إلى هذه الحصانة كانت الصخرة التي بنيت عليها صور لا ترتبط بالبر إلا عن طريق لسان ضيق ، وقد زاد ذلك من منعتها وصمودها أمام الغزاة ، وكان عدد سكان صور قد ازداد زيادة واضحة

---

(١) رنسيمان ، ج ٢ ص ٤٧٦

(٢) Idrisi, Palaestine et Syria, édit. Joannes Gildemeister, Bonnensis, 1885, p. 11

(٣) المقدسي ، ص ١٦٤

(٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٠

بمن لجأ إليها من أهل صيدا وقيسارية وعكا وطرابلس[١]، وساعدت هذه الزيادة السكانية في صور على صلابة الجبهة الإسلامية . وكان اهل صور يتوقعون قيام الفرنج بقصدهم عاجلاً كان ذلك أم آجلاً ، بعد سقوط بيروت وصيدا ، ولذلك كانوا يتأهبون لحصار طويل الأمد ، ثم إنهم اتفقوا – فيما يبدو – مع الدماشقة على أن يبذلوا لهم العون العسكري إذا ما طلب منهم اهل صور ذلك ، بدليل أنه ما كادت الأنباء تصل إلى عز الملك أنوشتكين والي صور بعزم بلدوين على قصد بلده عندما علم بأنباء هذه الاتفاقية حتى كتب إلى ظهير الدين طغتكين أمير دمشق يستصرخه ويستنجده ويبذل له تسليم صور . وسأله في كتابه المبادرة والتعجيل ، فبادر طغتكين بإنفاذ عسكر من الأتراك وأردفهم بطائفة من العرب . والظاهر أن النجدة الدمشقية وصلت قبل أن يعزم بلدوين على الخروج لحصار صور ، فليس من المعقول أن يعلم بلدوين بخبرها دون أن تكون قد قدمت بالفعل بدليل أن الدماشقة اشتركوا اشتراكاً فعلياً في القتال حسبما تشير المصادر العربية ، وهو أمر يؤكده البير داكس من مؤرخي الحركة الصليبية ، في حين يذكر ابن الأثير أن اهل صور استنجدوا بطغتكين بعد أن اشتد القتال وأن النجدة التي سيرها كانت تتألف من مائتي فارس دخلوا البلد[٢] ، ولا يعقل أن يدخل هؤلاء الفرسان المدينة في الوقت الذي يحاصرها فيه الصليبيون وهو أمر يؤكده ابن تغري بردى إذ يذكر أن طغتكين « جهز الخيالة والرجالة إلى صور نجدة فلم يقدروا على الدخول إليها من الفرنج ، ثم رحلت الفرنج عنها ونزلوا على الحبيس وهو حصن عظيم وحاصروه حتى فتحوه عنوة ، وقتلوا كل من كان فيه ، ثم عاد بغدوين (بلدوين) إلى صور وشرع في عمل الأبراج »[٣] .

لما بلغت أنباء الاتفاقية التي تمت بين والي صور وطغتكين صاحب

---

(١) Grousset, t. I , p. 609

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٨٩

(٣) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨١

دمشق بادر بالنزول إلى صور ، فوصل إليها في ٢٥ من جمادى الأولى سنة ٥٠٥[1] (٢٧ نوفمبر سنة ١١١١) ، واشترك معه في هـذه الحملة إيوستاش جارنييه سيد صيدا وقيسارية[2] ، ولكن لم يساعده في الحصار البحري حولها أي اسطول لاتيني كما حدث بالنسبة لبيروت وطرابلس وصيدا ، ولكنه اعتمد على فرقة بيزنطية كان قد وعده بها الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين ، وقدمت هذه الفرقة فعلاً امـام صور في أسطول صغير يتكون من ١٢ سفينة بقيادة المبعوث البيزنطي بوتوميتس[3]، ولكن هذه الفرقة البيزنطية لم تكن كافية . واشتد القتال ، واستخدم الفرنج ابراجاً ثلاثة ، وقيل برجين على صور ، وزحفوا بها عليها ، فخرج اهل صور بالنفط والقطران والحطب وأحرقوا برجاً ، وامتدت النار إلى الآخر[4] . وكانت الميرة والمـادة تصلان الى بلدوين « من صيداء في المراكب »[5] ، وذكر ابن الأثير أن طغتكـين كان يقطع عن الفرنج المحاصرين لصور الميرة في البر ، فكانوا يحصرونهـا في البحر ، وخندقوا عليهم ، فسار إلى صيدا وأغار على ظاهرها فقتل جماعـة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحـل[6] ، وذكر سبط ابن الجوزي

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٨٨ – ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٢ ص ١٦٧ – نص مرآة الزمان ، في : R. H. C. t. III , p. 543

(٢) Grousset, t. I , p. 261

(٣) Richard (j.): Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine – Paris, 1945, p. 28 – Gruosset t. I, p. 261 – السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ١٨٣

(٤) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٨٨ – ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢ ص ١٦٧ – ابن تغري بردي، ج ٥ ص ١٨١. وذكر ابن القلانسي أن أهل صور ألقوا النار قريباً من البرج الصغير ولم يتمكن الفرنج من دفعها فهبت ريح وألقت النار على البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة الشديدة عليه ونهب منه زرديات كثيرة وطوارق ، ثم اتصلت النار بالبرج الكبير ، ولكن الفرنج تمكنوا من اطفاء ما علق به من نار (ابن القلانسي ، ص ١٧٩)

(٥) نص مرآة الزمان في : R. H. C. الجزء الثالث ، ص ٥٤٤ – ابن تغري بردى ، ج ٥ ص ١٨١

(٦) ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤٩٠ – R. H. C. , t. I , p. 286

وابن تغري بردى أن طغتكين عمد الى مهاجمة صيدا مركز الإمدادات للصليبيين أثناء حصارهم لصور ، فركب السفن وسار اليها وقتل جماعة من الفرنج ، وأغرق مراكبهم ثم أوصل مكاتبته الى أهل صور ، فقوى قلوبهم على الصمود(١) . ويئس بلدوين من افتتاح صور ، فرحل هو وقواته بعد أن احرقوا ما كان لديهم من السفن على الساحل ، وذلك في الأسبوع الأول من ابريل سنة ١١١٢ ، خوفاً من أن يدمر طغتكين صاحب دمشق محصول اراضي الجليل بفلسطين(٢) .

وكما اشتركت صيدا بأسطولها في الحصار الصليبي لصور في سنة ٥٠٥ هـ اشتركت في مواجهة عساكر الفاطميين في يافا سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)(٣)، كما اشتركت بأسطولها في حصار عسقلان في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) ، فلقد كان لجيرار بن إيوستاش سيد صيدا إمرة أسطول مؤلف من ١٥ سفينة ، أسهم في إحكام الحصار البحري الصليبي حول عسقلان زهاء شهرين(٤) انتهى بسقوط عسقلان ، كذلك اشترك فرنج صيدا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) مع فرنج صور وجميع الساحل في الهجوم الذي شنه الفرنج على مدينة دمشق ، وأحرقوا فيه الربوة والقبة الممدودية ، وكثر فساد هؤلاء الفرنج في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق(٥) ، الى حد اضطر معين الدين أنر مملوك طغتكين معه الى الإغارة على أعمالهم . كذلك أسهم أسطول صيدا مع أسطول عكا في فك حصار المسلمين البحري حول ميناء بيروت في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، ففي

---

(١) نص مرآة الزمان ، في : R. H. C. الجزء الثالث ، ص ٥٤٤ – ابن تغري بردى، ج ٥ ص ١٨١

(٢) Grousset, t. I , p. 264

(٣) البطريرك اسطفانوس الدويهي ، تاريخ الازمنة ، بيروت ، ١٩٥١ ص ٣٢

(٤) الدبس ، ج ٦ ص ٧٧

(٥) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٣٤

هذه السنة سار صلاح الدين من دمشق الى بيروت فنهبها ، ونهب إقليمها من البر في حين حاصرها الأسطول المصري من البحر[1] ، ولذلك امر بلدوين الرابع ملك بيت المقدس يومئذ بإعداد الأسطول الصليبي في عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار الإسلامي ، فاضطر صلاح الدين إزاء ذلك الى القفول عنها الى دمشق مؤثراً السلامة ، وعاد الأسطول الأيوبي الى مصر[2] .

٣ ـ الاحداث الهامة في صيدا في العهد الصليبي الاول :

غارات المسلمين على صيدا :

تعرضت صيدا لعدد من الغارات والغزوات شنها المسلمون عليها في البر والبحر : ففي سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) أمر الخليفة الآمر بأحكام الله عندما بلغه نبأ وفاة بلدوين الأول ملك بيت المقدس بتسيير السفن المصرية الى جهة صيدا ، وكتب الى طغتكين صاحب دمشق بأن يقابله في العسكر الشامي عند عسقلان لاستخلاص المدن التي استولى عليها الفرنج ، ولكن هذه الحركة لم تؤد الى نتيجة[3] .

وفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) تعرضت صيدا لغارة بحرية قام بها الأسطول المصري الذي توجه بعد ذلك الى بيروت حيث انهزم وعاد سريعاً الى مصر دون أن يتعرض لمدن الساحل بعد ذلك[4]. ثم تعرضت صيدا من جديد لغارة بحرية عنيفة في سنة ٥٤٦ (١١٥٩ م) قام بها الأسطول المصري ، ويروى ابن القلانسي خبر هذه الغارة فيقول : « وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الاصطول المصري الى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العُدة والعِدة ، وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركباً

---

(١) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٤٨٢
(٢) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ٧٧٠
(٣) الدويهي ، المرجع السابق ، ص ٢٨
(٤) Frederick, p. 87

حربية مشحنة بالرجال ، ولم يخرج مثله في السنين الخالية ، وقد أنفق عليه ما حكي وقرب ثلثمائة ألف دينار ، وقرُب من يافا من ثغور الافرنج فقتلوا وأحرقوا ما ظفروا به ، واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والإفرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ، وفعلوا فيه مثل ذلك ، وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الإفرنجية وقتلوا من حجاج وغيرهم خلقاً عظيماً ، وأنفذوا ما أمكن الى ناحية مصر . وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس وفعلوا فيها مثل ذلك »[١] .

كذلك تعرضت صيدا في العهد الصليبي لغارات برية قام بها المسلمون بوجه خاص في مرحلة المد الاسلامي عندما حمل نورالدين محمود بن زنكي لواء الجهاد ، ففي ٩ ربيع الآخر سنة ٥٥٣ (١١٥٨ م) أغار المسلمون بقيادة أسد الدين شيركوه قائد نور الدين محمود في حشود من فرسان التركمان على أعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها ، وخرج إليهم من كان بها من الخيالة والرجالة ، فكمن لهم المسلمون وفاجأوهم بالهجوم وقتلوا أكثرهم وأسروا الباقين ، وكان من بين الأسرى ولد المقدم المتولي حصن حارم[٢]. وفي العام التالي أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه في فرقة من العسكر للاغارة على بلدة صيدا ، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده ، « ولم يشعر الفرنج إلا وقد عاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب »[٣] .

وفي سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) وصلت قوات نور الدين الى نواحي صيدا بقصد الاستيلاء على حصن شقيف تيرون الواقع على مقربة من قلعة نيحا

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ – أبوشامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٢

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٥٢ – أبوشامة ، ج ١ ص ٣٠٠ – Frederick, p. 88
Grousset, t. II, p. 390

(٣) أبوشامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٣٠٦

التي تبعد عن جزين شمالاً بنحو ٧ كيلومترات وعن صيدا شرقاً بنحو ٢٣ كيلومتراً[١]. وفي سنة ٥٧٥ (١١٧٩ م) قدم صلاح الدين لأول مرة في نواحي صيدا ، ودمر الحقول المحيطة بها ، وهزم الملك بلدوين الرابع بالقرب من بانياس عندما لاذ كثير من الصليبيين بصيدا[٢] ، فاضطر بلدوين الى عقد الهدنة مع صلاح الدين في مايو سنة ١١٨٠ م (٥٧٦ هـ)[٣].

الزلازل وأثرها :

تعرضت صيدا وغيرها من مدن الشام الاسلامية والمحتلة لسلسلة من الزلازل العنيفة المتواصلة التي بدأت منذ سنة ٥٤٦ هـ واستمرت على فترات متقطعة حتى سنة ٥٦٥ هـ . وقد سببت هذه الزلازل المدمرة هبوط القشرة الارضية في عدة مواضع من الساحل وعلى الأخص في قيسارية وصور وصيدا وجبيل وبيروت ، وتخرب قسم كبير من هذه المدن[٤]. وكان أشد هذه الزلازل عنفاً وتدميراً زلزال بيروت الذي حدث في ٩ شعبان سنة ٥٥١ هـ ، وكان من العنف بحيث هز الساحل اللبناني كله من أرواد الى صور ، وكان مركز ثقله مدينة بيروت التي تخربت مبانيها وقتل العديد من سكانها[٥]. ويذكر ابن القلانسي ان هذا الزلزال كان يتألف من عدة هزات أرضية استمرت عدة أيام ، وأن هذه الهزات أحدثت أضراراً خطيرة في حلب وحماة وأفامية وشيزر وكفرطاب[٦]. وفي ١٩ صفر من العام التالي ارتجت الارض واهتزت الدور في شيزر وحماة وكفرطاب وحلب ، وتكرر ذلك في ٢٥ من جمادي الأولي . وفي ٤ رجب وافت

(١) Frederick, p. 89 — Grousset, t. II, p. 476

(٢) Ibid. t. II, pp. 670, 672

(٣) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٦٨ — طرابلس الشام ، ص ٢٥٤

(٤) يوسف مزهر ، ج ١ ص ١٦٧

(٥) E. Gibbon, The history of the decline and fall of the Roman empire, t. V. p. 252 — Frederick, p. 80

(٦) ابن القلانسي ، ص ٣٣٤

زلزلة عنيفة في دمشق أثرت في مواضع كثيرة ، وتأثرت بهذا الزلزال عدة مدن منها حماة وحلب وجبلة وجبيل[1] ، وتتابعت الزلازل في ٢٤ رمضان من نفس السنة ، وكانت حلب ودمشق أكثر مناطق الشام تأثراً به[2] ، كما تكررت في ١٠ ذي القعدة وشملت دمشق وعمت حوران والبقاع ، وحدث نفس الشيء في ٢٣ من ذي القعدة ، وفي يوم ٢٥ منه أيضاً[3] . وفي سنة ٥٦٥ هـ حدثت زلازل عنيفة متتابعة لم يشهد الناس لها مثيلاً في العنف والشدة عمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها ، وكانت الشام المركز الرئيسي لها ، فخربت معظم مدنه وعمت الاضرار في بلاد الافرنج في الشام ، واشتغل الفرنج بعمارة ما خربته الزلازل[4] .

وكان من الطبيعي أن تتأثر صيدا بهذه الهزات الارضية العنيفة وخاصة زلزال سنة ٥٥٢ (١١٥٧ م)[5] ، فتهدم بعض أبنيتها لاسيما الابراج والتحصينات .

النزاع بين اسقفيتي صيدا وصور في العهد الصليبي :

توفي البطريرك جورموند في صيدا بسبب مرض أصابه عند قيام الفرنج بحصار حصن قريب من صيدا ، وفي هذه الفترة التي تبعت وفاته قام نزاع في الكنيسة الشرقية ودخل اسقف صيدا طرفاً في هذا النزاع ، فقد ظلت صور منذ ٢٨ ابريل سنة ١١٢٨ ولعدة سنوات بدون اسقف ، ثم ارتقى الى هذا المنصب مقدم الضريح المقدس ، ولكنه وجد أن بعض الاساقفة في السنين السابقة انقطعوا عن الاعتراف بنفوذ اسقفية

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٤٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٦

(٣) نفسه ، ص ٣٤٧

(٤) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٥ – ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٢٠

(٥) Frederick, p. 88

صور عليهم ، ومن بين هؤلاء الاساقفة أسقف صيدا . ثم ازداد النزاع حدة بين اسقف صور الجديد والاساقفة العصاة بسبب التنافس بين بطريرك بيت المقدس وبطريرك انطاكية ، واخيراً تم الصلح بفضل الجهود المضنية التي بذلها البابا إنوسنت الثاني الذي وجه رسائل توفيق الى بطريرك بيت المقدس والاساقفة العصاة ومن بينهم برنار الصيداوي ، كما ارسل البابا بعثة رسولية نزلت بصيدا ، واقر اسقف صيدا من جديد سلطان أسقف صور الذي كانت أسقفية صيدا ترتبط مباشرة بكرسيه منذ قرون طويلة(١) .

اصطدام الملك أملريك مع الداوية في صيدا سنة ٥٦٩ ﻫ (١١٧٣ م) :

في سنة ١١٧٣ م قدم الملك أملريك الى صيدا ، فعقد مجلساً من النبلاء للنظر في الجريمة التي ارتكبها أحد فرسان الداوية إذ قتل أحد مبعوثي راشد الدين سنان شيخ الجبل الى أملريك ، وتفصيل ذلك أن سنان أرسل الى أملريك يعرض عليه اقامة حلف بينهما لمناهضة نورالدين ، ولكي يغريه بعقد هذا الحلف أخذ يلوح له بأنه يفكر مع قومه الاسماعيلية في التحول الى المسيحية ، وفي مقابل ذلك لا بد أن يعفي الداوية قومه الذين يسكنون بالقرب من حصون الداوية (في انطرطوس) من الجزية السنوية وقدرها الفا دينار . وعلى الرغم من أن أملريك لم يقتنع بإخلاص الاسماعيلية في عرضهم عليه ، إلا أنه اغتبط بهذه السفارة ، إذ وجد في ذلك فرصة مواتية لخلق نوع من العداء بين الزنكيين والاسماعيلية في الشام ، ولذلك أبدى استعداده لدفع هذا المبلغ الى الداوية من ماله الخاص . وبينما كان هذا المبعوث الاسماعيلي يجتاز اقليم طرابلس عائداً الى جبال البهرة حيث تقوم قلاع الدعوة الاسماعيلية ، وقد ظفر بوعد من الملك الذي أبدى استعداده الكامل للتفاهم مع شيخ الجبل عن طريق سفارة ينوي ارسالها اليه فيما بعد ، إذ تصدى له احد فرسان

---

(١) Claude Cahen, op. cit. p. 316 - Ibid. p. 87

الداوية بإيعاز من مقدم الداوية في صيدا ، فأوقعه في كمين نصبه له وأجهز عليه . فغضب الملك عندما بلغه خبر هذه الجريمة التي نقضت سياسته الخارجية ، وطلب من أودوسنت أماند مقدم الداوية بصيدا أن يسلم له الجاني ، فرفض أودو بحجة أنه سيرسله الى روما حتى يتهيأ للبابا محاكمته ، إذ أنه لا يعترف لأحد سواه بالسلطة التي تخوله محاكمته . فأسرع الملك بالسير في جماعة من عسكره الى صيدا ، وشق طريقه الى مجلس الداوية ، وأمر رجاله بالقبض على الجاني ، ثم أرسله الى سجن صور[١] .

(٢)

صيدا في المرحلة الانتقالية

بين الاسترداد الاسلامي الأول والاحتلال الصليبي الثاني

(أ) الاسترداد الاسلامي لصيدا في ٢١ جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) :

صمم صلاح الدين في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) على وضع حد لأعمال القرصنة التي كان يمارسها الابرنس أرناط (رينو دي شاتيو صاحب حصن الكرك) ومهاجمة مملكة بيت المقدس ، وذلك عندما أقدم أرناط المذكور على نقض معاهدة الصلح المبرمة بينه وبين صلاح الدين قبل نفاذ مدتها بعامين ، وكانت تنص على حرية مرور القوافل ما بين الشام ومصر دون أن يتعرض لها عسكر أرناط ، فهاجم أرناط في سنة ٥٨٢ هـ **قافلة** كبيرة مشحونة بالمتاجر والأموال في حراسة جماعة من الجند المسلمين ، فغدر بهم أرناط وغنم أموالهم ودوابهم وأسلحتهم ، وأودع من أسره منهم في السجون[٢] ، وفي ذلك يقول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب :

---

(١) رنسيمان ، ج ٢ ص ٦٤١ ، ٦٤٢ - Frederick, p. 89

(٢) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٢٨

«كان الابرنس أرناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ، وكان قد هادن السلطان وسالمه ، فأمنت الطريق بين مصر والشام ، وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذاهب والجائي ، ثم إنه لاحت له فرصة في الغدر ، فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة فأخذها بأسرها ، وكان معهم جماعة من الاجناد فأسرهم وحملهم الى الكرك وأخذ خيلهم وعدتهم ، فأرسل اليه السلطان وقبّح فعله ، فأسامه إطلاقهم ، فامتنع وأصر على عصيانه ، فنذر السلطان دمه ، وأعطى عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته »[1] .

وفي نفس الوقت نكث ريمون الثالث صاحب طرابلس بالاتفاقية التي أبرمها مع صلاح الدين في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ودخل في طاعة جي دي لوزنيان ملك بيت المقدس ، وأزال بذلك اسباب الخلاف الذي كان قائماً بينه وبين جي ، وعندئذ بادر صلاح الدين بالعمل ، فزحف الى طبرية وكانت ملكاً لأشيفا زوجة ريمون الثالث في ٢١ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (يوليو ١١٨٧ م) ، ودخلها المسلمون[2] ، ونهبوها ثم أحرقوها[3] . فلما بلغ الفرنج ذلك عزموا على السير لقتال المسلمين بتحريض من أرناط صاحب الكرك ، واشتبك الفريقان في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ في حطين ، وأحاط المسلمون بالفرنج من كل جانب ، فلما أيقن ريمون بالهزيمة تحايل على النجاة بنفسه ، ففتح له تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين ثغرة خرج منها مع نفر من أصحابه[4] ، كذلك شق باليان ابلين صاحب

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ج ٢ ص ١٨٥

(٢) العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٧٦ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٥ ص ٩٥

(٣) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٣٣

(٤) ابن شداد (القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ ص ٧٧ - العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٩ - ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ - أبو الفداء ، المختصر ج ٥ ص ٩٥ - أبو المحاسن بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢

بيروت وأرناط صاحب صيدا لنفسيهما طريقاً خارج أرض المعركة[١] . وهكذا انهزمت قوى الصليبيين مجتمعة بعد أن قتل منهم نحو ثلاثين ألفاً ، ووقع في أسر المسلمين ملك الفرنج وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجماعة من الداوية والاسبتارية ، واستغل صلاح الدين هذا الانتصار الحاسم ، فأخذ يستولي على قلاع الصليبيين ومدنهم ، فسقطت مدينة عكا في أيدي المسلمين في مستهل جمادى الأولى ، واستولى المسلمون بعد ذلك على العديد من المدن والحصون هي على الترتيب : الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف (شقيف تيرون) والفولة ومجدليابة ويافا . ثم عهد صلاح الدين الى تقي الدين عمر بمنازلة قلعة تبنين ، ولكن هذه القلعة كانت من المناعة والحصانة بحيث استعصى على تقي الدين عمر فتحها وحده دون الاستعانة بعمه ، فأرسل اليه يحثه على الوصول اليه ، فقدم اليه صلاح الدين وحاصرها حصاراً شديداً حتى سقطت في ١٦ جمادى الأولى .

وما إن سقطت تبنين في يد صلاح الدين حتى زحف نحو صيدا في حشود هائلة تجر وراءها آلات الحصار من جروخ لرمي السهام والنفط المشتعل ، وجفاتي وهي حواجز لإعاقة تقدم العدو ويستتر وراءها الجند الرماة أثناء القتال ، والدبابات وهي أشبه بأبراج متحركة على عجلات وبها طبقات من خشب أو حديد أو رصاص تستقر بداخلها الجنود لمهاجمة الحصون أو لتسلق الأسوار ، والصبابات وهي آلات لقذف السهام[٢] . ثم اجتاز صلاح الدين وهو في طريقه الى صيدا ببلدة الصرفند « فأخذها صفواً عفواً بغير قتال »[٣] . ثم واصل زحفه من هناك الى صيدا ، فلما علم أرناط صاحب صيدا بمسيره إليه بادر بالانسحاب منها وتركها فارغة

(١) رنسيمان ، ج ٢ ص ٧٤٠
(٢) وردت هذه الاصطلاحات الحربية في : الفتح القسي للعماد ، ص ١٠٤ ، ١٠٥
(٣) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٤٢

من غير مانع ولا مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيحها الى السلطان ، وارتفعت أعلامه الصفر على أسوارها في ٢١ من جمادى الأولى[١] (٢٩ يوليو ١١٨٧) . ويعلق العماد الأصفهاني على فتحها بقوله : « وسنحت له صيدا ، فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها ، وبادرها اشفاقـاً من مكر العداة وكيدهـا . وسرنا وسرّنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجو جديد والمزاح مُزاح ، والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظـل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون ، والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، وأوجهنا وأوجه البشائر باشرة ، ونيوب النوائب في أوجـه المشركين كاشرة ، والألسن لحديث الفتح الحـديث ناشرة ، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة ، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت للمالك من الملائك أمداد النصرة المتواتية المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين . ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل مـا توعر ، وصفا من الأمر ما ظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة إلى صرفند ، وأسمنا رعبنا في مسارحها الجنـد ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، موروده المناهل ، ذات بساتين وأزهار ورياحـين ، وأشجار النارنج والأترنج تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج ، فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلا لها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية ، ولم نعرج عليها حتى خيّمنا على صيداء ، وقد حصلنا على صيدها وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ،

---

(١) ابن الاثير ، ج ١١ ص ٥٤٢ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٠٦ - ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ٣، دمشق، ١٩٦٨ ص ٩٧ - أبو الفداء ، المختصر، ج ٥ ص ٩٦ - ابن الوردي ، ج ٢ ص ١٤١ - السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٩٥ . ويذكر صاحب البستان الجامع أن صلاح الدين فتحها في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٥٨٢ ، وهو تاريخ غير موثوق به Claude Cahen, une Chronique Syrienne du VI^e siècle, Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, t. VII - VIII, p. 146

فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، وأذهبنا ظلماتهـــا من العزائم الغر بمصابيحها ، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورهـــا ، وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آرابها ، وعز مسلموها وذل مشركوها ، وسكن ساكنوها ، وهلك أهلوها ، وعادت معالمها مأهولة بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدح منبرها ، وصـــدق مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستدعيت بها بعد العصيان لله الطاعة »[١] .

وأقام صلاح الدين بصيدا يوماً ريثما قرر قواعدها ، ثم واصل زحفه الى بيروت ، فتحصن الفرنج بها ، وصعدوا على سورها ، وناشبوه القتال عدة أيام ، فنصب صلاح الدين عليها المجانيق ، ودخلها صلحاً في ٢٩ جمادى الأولى أي بعد ثمانية أيام من شروعـه في حصارها[٢] . ثم مر صلاح الدين بصيدا بعد أن فرغ من فتح بيروت وجبيل في طريقه الى عسقلان[٣] .

أما أرناط صاحب صيدا والشقيف ، فقد فر الى قلعة شقيف أرنون ، وأقام فيها منذ أن انتزع منه صلاح الدين صيدا حتى أتبعهـا بالشقيف في سنة ٥٨٥ .

(ب) فتح قلعة شقيف أرنون في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) :

ظلت قلعة شقيف أرنون الحصينة في حوزة أرناط صاحب صيدا السابق ، وكانت هذه القلعة من أهم القلاع التي تشرف على مدخل صيدا ، وتقع على صخرة مرتفعة تطل على نهر الليطاني[٤] ، فعزم صلاح الدين

(١) العماد الأصفهاني ، ص ١٠٢ ، ١٠٣
(٢) ابن الأثير، ج ١١ ص ٥٤٣ – ابن شداد، النوادر السلطانية من R.H.C., t. III; ص ٩٨
(٣) العماد الأصفهاني ، ص ١١٢
(٤) رنسيمان ، ج ٣ ص ٥٣

على فتحها ، وسار إليهـــا من دمشق في ٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ ، فأقام بمرج برغوث وأقام به والعساكر تتتابع الى ١١ ربيع الأول ، ثم رحل إلى بانياس ، ثم إلى مرج عيون ، فخيم بالقرب من شقيف أرنون بضعة أيام ، وكان صاحب هـــذه القلعة أرناط Reynold Garnier من أشد الناس دهاء ومكراً ، وكان عارفاً بالعربية ، ولديه اطلاع على التواريخ والأحاديث ، فنزل بنفسه من حصنه قاصداً السلطان ، ودخل في حضرته وأظهر له الطاعة والمودة ، وأكل معه ، ثم خلا به ، وذكر أنه مملوكه ، وتابعه ، وتحت طاعته ، وأنه على أتم استعداد لتسليم الحصن ، واشترط على صلاح الدين أن يقطعه إقطاعاً بدمشق يعيش فيه هو وأهله خوفاً على نفسه من مساكنة الفرنج ، وعبّر عن ذلك بقوله : « أنا محب لـك ومعترف بإحسانك ، وأخاف بأن يعرف المركيس (كنراد صاحب صور) ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى ، فإنهم عنده ، فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم من عنـده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن إليك ، ونكون في خدمتك ، نقنع بمـا تعطينا من إقطاع » ، فحسن ظن صلاح الدين بـه ، ووثق في صدق ، قوله وأمهله لأشهر الثلاثة التي طلبها ، واستقر الأمر بينهما على أن يسلم أرناط قلعة الشقيف في جمادى الآخرة من هذه السنة (٥٨٥ هـ) . ولكنه استغـل هذه المهلة التي منحه إياها صلاح الدين في تقوية حصنه ، وتدعيم استحكاماته ، وترميم أسواره ، وتزويد الحصن بالأقوات والمؤن والسلاح الوافر وغير ذلك مما يعين الحصن على حصار طويل الأمد . وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر انتهاء الأجل الذي حدده لأرناط ليستولي على قلعة الشقيف ، فلما قاربت مدة الهدنة على النفاذ ولم يبق على نهايتها سوى يومان ، قدم أرناط إلى صلاح الدين وتوسل إليـــه أن يمنحه مهلة أخرى . ولكن صلاح الدين أصر على تسلم القلعة ، فطلب منه أرناط أن يأذن له بمقابلة أحد القساوسة ليحمل إلى أهل الشقيف رسالة يأمرهم فيها بأن يسلموا القلعة للمسلمين ، فأذن له السلطان بذلك ، فتحدث أرناط إلى القس وساره بما لم يعلموه ، ومضى القس إلى الشقيف ، وما كاد يدخل بابه حتى تحصن

أهل الشقيف وأعلنوا العصيان . وعندئذ تحقق صلاح الدين من خدعة أرناط ، فأمر به فقيّد وحبس ، ثم سيّره السلطان إلى دمشق حيث سجن فيها ، ورتب صلاح الدين عدداً من الأمراء على محاصرة الشقيف صيفاً وشتاء ، فتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد عام . فلما تم للمسلمين فتحها أطلق صلاح الدين سراح أرناط ، وعفا عنه ، وتركه يرحل الى صور[١] مع حامية الشقيف . ويشير جروسيه إلى أن صلاح الدين عوّضه عن الشقيف بأن منحه نصف إمارة صيدا احتفظ بها في حياة السلطان ، فلما مات أرناط وخلفه باليان احتفظ بنصف إمارة صيدا في ظل الأيوبيين ، ثم منح باليان النصف الثاني من صيدا وفقاً للمعاهدة التي أبرمها الكامل محمد مع الامبراطور فردريك الثاني[٢] . ولكننا نستبعد أن يكون صلاح الدين قد منحه نصف إمارة صيدا ، فقد ظل المسلمون يمتلكون صيدا إلى سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) عندما تنازل العادل أخو صلاح الدين عن مناصفات صيدا والرملة وغيرها على النحو الذي سنشير إليه فيما بعد .

(ج) هدم أسوار صيدا وتحصيناتها في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) :

أسند صلاح الدين ولاية صيدا وبيروت بعد أن افتتحها في سنة ٥٨٣ هـ الى الامير سيف الدين على بن أحمد بن المشطوب الهكاري[٣] ، وكان أميراً جليل القدر وقائداً شجاعاً أبلى بلاءً حسناً في الفتوحات الصلاحية ، وتوفي ابن المشطوب في سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م)[٤] . وقد أسهم ابن المشطوب في أثناء ولايته لصيدا في إمداد مسلمي عكا بالطعام والأقوات من صيدا

(١) العماد الأصفهاني ، ص ٨٥ ، ٢٨٦ – ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٢٧ – ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٦٩١ ، ٦٩٢ – ابن الوردي ، ج ٢ ص ١٥٢

(٢) Grousset, t. II, p. 838, Note 2

(٣) العماد الأصفهاني ، ص ١٥٢ – ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٤٢

(٤) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٤ ص ٢٩٤

عندما اشتد عليهم الغلاء في شتاء سنة ٥٨٦ هـ ، ولولا ذلـــك لهلكوا جوعاً[١]. واستغل ابن المشطوب وغيره من أمراء صلاح الدين فرصة حلول الشتاء ، وخلو ميناء عـكا من سفن الصليبيين المحاصرة له ودخل المدينة متسللاً في بداية سنة ٥٨٧ هـ ، وكان من بين الأسرى الذين أسرهم الصليبيون عند استيلائهم على عكا في ١٧ جمادي الثاني سنة ٥٨٧ هـ[٢].

اهتم صلاح الدين بعد أن فرّغ من فتح صيدا وتبنين بتحصينهما بقصد حمايتهما من الأخطار المحيطـــة بهما والممثلة في فرنج صور ، ويعبر العماد الأصفهاني عن ذلك بقوله : « ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين وجمع لهما التحصين والتحسين قال لعصمة الله : « شيدي مـا بصيداء وتبنين تبنين ، وألحفيهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين ، ولا يطرق ما تحمين »[٣] ، ثم نقل الى صيدا بعض الآلات التي كان قد استخدمها في حصار صور[٤].

وحدث أثناء الفترة التي أقامهـا صلاح الدين في مرج عيون في انتظار اللحظة التي يسلمه أرناط حصن شقيف أرنون ، أن جاءته كتب من قواده الذين كان قد عهد إليهم بمهمة مواجهة الفرنج في صور يبلغونه فيهـا أن الفرنج قـد أجمعوا على عبور جسر صور ، وأنهم عزموا على السير نحو صيدا ومحاصرتها ، فخرج صلاح الدين في فرقة من أصحابه لمواجهة الفرنج ، ولكنه وصل في أعقاب معركة نشبت بين قواته المعسكرة خارج صور وبين حشود الفرنج ، دارت فيها الدائرة على الفرنج ، وعجزوا عن الوصول الى صيدا[٥]. ويرجـع السبب في خروج الفرنج نحو صيدا الى أن صور ضاقت عليهم باطنهـا وظاهرها ، وامتلأت بالرجال والأقوات والذخائر ،

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٥٤
(٢) نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٦٦ ، ٦٧
(٣) العماد الأصفهاني ، ص ١٠٤
(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٤
(٥) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٢٩

فلما فشلوا في خطتهم بالنسبة لصيدا تحولوا الى عكا[1].

ويبدو أن نية الفرنج في استرجاع بعض مدن الساحل ، لاسيما عندما أحس صلاح الدين باقتراب الألمان من حدود الشام في مائة ألف فارس في البحر ، وقرب وصول حملة صليبية جديدة ، كانت من العوامل التي دفعت صلاح الدين الى إصدار الأمر بهدم سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل حتى لا يستخدمها الصليبيون في محاربة المسلمين ، ونقل أهالي هذه المدن الى بيروت[2] ، ونقل إليها الميرة وشحنها بالرجال والسلاح ، وجعلها قاعدة لتلك الناحية[3].

(د) صيدا في عصر خلفاء صلاح الدين

١ - صلح سنة ٥٨٨ هـ :

أثار سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ (١٢ اكتوبر سنة ١١٨٧) ثائرة العالم المسيحي ، وكان حافزاً على قيام الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ — ١١٩١ م) التي اشترك فيها الامبراطور فريدريك بربروسة والملك فيليب أغسطس والملك ريتشارد قلب الأسد. أما فريدريك فقد مات غريقاً عقب وصوله الى نهر سلوقية وذلك أثناء عبوره لأحد الأنهار ولم يصل من قواته الى عكا إلا أعداد قليلة ، في حين تمكن ريتشارد وفيليب من الاستيلاء على عكا بعد حصار طويل وذلك في ١٧ جمادي الآخرة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . وكان ريتشارد قد سئم القتال خاصة بعد رحيل الملك فيليب الى بلاده ، ولكن ذلك

(١) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٣٣

(٢) البستان الجامع ، ص ١٤٨ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٢٥ - السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٠٤ - صالح بن يحيى ، ص ٢٠ - Stevenson, p. 264 - سعيد عاشور ج ٢ ص ٨٥٠

(٣) صالح بن يحيى ، ص ٢٠

لم يمنعه عند قيامه بمفاوضة الملك العادل أخي صلاح الدين من الإصرار على المطالبة بكل فلسطين ، وكان من الطبيعي أن يرفض المسلمون مطالبه ، فاستؤنفت الحرب من جديد بين المسلمين والصليبيين ، وحدثت وقعة أرسوف (سنة ١١٩١) التي أسفرت عن هزيمة للجيش الإسلامي ، وتبع ذلك سير الصليبيين نحو يافا ، ثم عاود ريتشارد الاتصال بالعادل في أكتوبر من نفس السنة لإجراء مفاوضات جديدة لعقد الهدنة ، وفي هذه المفاوضات الثانية طالب ريتشارد ببيت المقدس والإقليم الواقع غربي نهر الأردن ، كما طالب باستعادة صليب الصلبوت[١] ، ولكن صلاح الدين اعترض على هذه المطالب ، وتمسك بالاحتفاظ ببيت المقدس في أيدي المسلمين . وكان ريتشارد قد أبدى إعجابه بالعادل ، لما لمسه فيه من روح الفروسية وبراعة دبلوماسية ، فاقترح على الجانب الاسلامي أن يتزوج العادل من أخته جوانا ملكة صقلية التي ينوي ريتشارد أن يخصها بكل ما فتحه من مدن الساحل بما فيها عسقلان ، على أن يقيم الزوجان في بيت المقدس التي يجب أن تفتح أبوابها للمسيحيين ، كما اشترط على المسلمين إعادة صليب الصلبوت ، وإطلاق الأسرى من الجانبين وأن ترد إلى الداوية والاسبتارية ممتلكاتهم في فلسطين . ولكن جوانا لم تقبل الزواج من مسلم ، وفي هذه الآونة قدم الى معسكر صلاح الدين أرناط صاحب صيدا وقلعة الشقيف السابق رسولاً من قبل كنراد صاحب صور ، يعرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن صيدا وبيروت وتكون الجبليات كلها أو تكون القرى مناصفة ، وشرط على نفسه في مقابل ذلك مجاهرة الفرنج بالعداوة واستعداده لقصد عكا ومحاصرتها واستخلاصها للمسلمين[٢] ، وبحث صلاح الدين الاقتراحين في مجلس عقده لذلك الغرض ، تقرر فيه قبول اقتراح ريتشارد من حيث المبدأ وذلك لعدم ثقة المسلمين بكنراد[٣]

---

(١) رنسيمان ، ج ٣ ص ١١٥

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٢ - ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٧٢ - رنسيمان ، ج ٣ ص ١١٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٣

غير أن حاشية همفري رسول ريتشارد ساءهم ما شهدوه من خروج أرناط صاحب صيدا السابق للصيد في صحبة العادل ، فتوقفت مفاوضات الصلح فترة من الوقت ثم استؤنفت من جـديد ، ومضى العادل في ٢٠ مارس سنة ١١٩٢ الى معسكر ريتشارد يحمل عرضاً محدداً بمقتضـــاه يحتفظ الصليبيون بمـا سبق أن فتحوه ، وأن يحق لهم الحج الى بيت المقدس ، وإضافة بيروت إليهم بعد أن يقوم المسلمون بتخريب تحصيناتها ، واقترح ريتشارد تتويج كنراد ملكاً على بيت المقدس ، ولكن كنراد لم يلبث أن قتل على أيدي الفداوية الاسماعيلية في أبريل سنة ١١٩٢ ، وأخيراً عقدت معاهدة الصلح في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ (٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ) بين الجانب الصليبي والجانب الإسلامي على أساس أن تكون المدن الساحلية حتى يافا في الجنوب للصليبيين ، على أن يحتفظ المسلمون بصيدا وبيروت وجبيل[١] مع إتاحة حرية الحج للمسيحيين وتدمير عسقلان[٢] .

٢ – تهديم أسوار صيدا في عهد العادل :

توجه السلطان صلاح الدين بعد عقد الصلح الى القدس ، حيث أقام عدة منشآت ، ثم رحل في ٥ من شوال الى دمشق ماراً بالثغور الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين ، وقصد بيروت ، وأقام بها عـدة أيام . ويشير المؤرخون الى أنه تعهد هذه المدن بعنايته وأمر بإحكامها وتحصينها[٣] . ولا شك أنه مر بصيدا في طريقه الى بيروت ، وأن صيدا كانت من بين المدن التي حظيت باهتمامه . ثم توفي صـــلاح الدين في ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، وخلفه ابنه العزيز عثمان أبو الفتح على مصر والأفضل نور الدين علي على دمشق والساحـــل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميـع الأعمال الى الداروم ،

(١) صالح بن يحيى ، ص ٢١
(٢) رنسيمان ، ج ٣ ص ١٢٢ ، ١٢٣
(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٨٧

والظاهر على حلب وأعمالها جميعاً ، وعلى حماة محمود بن تقي الدين عمر . وكان العزيز عثمان قد أسند ولاية صيدا وأعمالهـــا الى فارس الدين وشمس الدين سنقر ، وزادهما نابلس وبلادها بعد ذلك[1] . ثم آلت ولاية صيدا الى الأفضل ملك دمشق الذي أقطعهـــا الى ولده الملك المعظم ، فأنعم بها هذا الأخير بدوره الى أخيه الملك المغيث يوسف في سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥ م) ، وظلت صيدا في حوزة المغيث يوسف حتى وفاته في سنة ٦٣٠ هـ[2] (١٢٣٢ م) .

وشغل خلفاء صلاح الدين بنزاعاتهم الصغيرة وخلافاتهم الداخلية حول مناطق النفوذ ، وهيأوا بذلك للفرنج الفرصـــة لكي ينعموا بفترة من السلام ، ولكي يجنوا مكاسب جديدة على حساب المسلمين . وكان يتولى بيروت الأمير عز الدين أسامـــة بن منقذ الذي كان يرسل الشواني في البحر ليقطع الطريق على الافرنج ، فـاشتكى الفرنج أكثر من مرة الى كل من العادل بدمشق والعزيز عثمان بالقاهرة ، فلم يمنعا أسامة عن عملياته البحرية ، فاضطروا الى الاستنجاد بملوك المسيحية في أوروبا ، فوصلتهم إمدادات من الغرب معظمها من الألمان . فلما بلغ العادل ذلك استولى على يافا قهراً بالسيف[3] . وفي نفس الوقت توفي هـنري ملك بيت المقدس (الكندهري) وخلفه أملريك الثاني ملك قبرص الذي صمم على استرجاع جميع الأراضي التي كان صلاح الدين قد انتزعهـا من الصليبيين على أثر انتصاره في حطين ، بقدر استطاعته ، ووجد في نفاذ أمد الهدنة المنعقدة مع المسلمين مبرراً لاستئناف الاشتباكات الحربية ، لا سيما بعد أن وصلت حملة هنري الرابع الألماني ، فأصدر أملريك أمره الى الفرنج بالتجمع في عكا والزحف شمالاً نحو بيروت ، وعندما علم العادل بهذه التحركات عزم على تخريب المواقع الساحلية الإسلامية التي يخاف ألا يتمكن من إحكام

---

(١) ابن واصل ، ج ٣ ص ١١ - المقريزي ، السلوك ج ١ قسم ١ ص ١١٥

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص ٩٩ ، ١٠٠

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٢٦

الدفاع عنها ، على ألا يتم تخريبها إلا بعد إجلاء الأهالي عنها الى مناطق داخلية مأمونة . فسيّر لهذا الغرض فرقة من عسكره الى بيروت ، هدموا سور المدينة في ٧ ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ (أكتوبر سنة ١١٩٧م)، وشرعوا في تخريب دورها وتدمير قلعتها ومرافقها عندما عارضهم أسامة ابن منقذ متولي بيروت ، ومنعهم من إنجاز مهمتهم بحجة قدرته على الدفاع عنها وتعهده بحفظها . ثم رحل الفرنج الألمان من عكا الى صيدا ، في نفس الوقت الذي عاد فيه عسكر المسلمين من بيروت ، فاشتبك الجانبان في نواحي صيدا في ٩ ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١١٩٧م) ولكن هذه الاشتباكات لم تسفر عن نتائج حاسمة ، وبادر الفرنج بمواصلة الزحف نحو بيروت ، فلما اقتربوا منها أسرع أسامة وجميع من معه من المسلمين بالفرار عنها الى صيدا[1] ظناً منهم بأن الفرنج استولوا على بيروت ، تاركين هذه المدينة الأخيرة غنيمة باردة للفرنج الذين تمكنوا من دخولها من غير قتال في ١٠ من ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ (٢٣ اكتوبر).

أما أُسامة فقد لامه الناس على تفريطه في الدفاع عن بيروت ، وأصبح تسليم المدن الإسلامية للفرنج منذ ذلك الحين بدون حرب تقليداً سنّه أُسامة ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء متهكماً عندما حاصر الفرنج حصن تبنين في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، موجهاً القول الى صاحب الحصن :

سلّم الحصن ما عليك ملامة   لا يلام الذي يروم السلامة
فعطاء الحصون من غير حرب   سنة سنها ببيروت أُسامة[2]

٣ – معاهدتا صلح سنة ٥٩٤ هـ ، وسنة ٦٠٠ هـ :

وعندما علم السلطان الملك العادل بسقوط بيروت في أيدي الفرنج

(١) ابن الاثير ، ج ١٢ ص ١٢٧ – الأعلاق الخطيرة ، قسم ٢ ص ١٠٠ – الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٤ ص ٢٨١ – ابن خلدون ، ج ٥ ص ٧٢٦ – صالح بن يحيى ، ص ٢١

(٢) صالح بن يحيى ، ص ٢٢

أرسل الى صيدا طائفة من عسكره الى صيدا لتخريب « ما كان بقي منها ، فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها »[1] ، وتم ذلك في ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ . وسارت عساكر المسلمين الى صور بعد ذلك ، فقطعوا أشجارها وخربوا أبراجها وقراها . ثم قدم الفرنج الى صيدا وتبنين وشرعوا في حصارهما في يناير سنة ١١٩٨ م ، وازداد الضغط على الحامية الإسلامية بصيدا الى حد أنهم أوشكوا على تسليمها للفرنج ، ولكن اقتراب تعزيزات إسلامية بقيادة العزيز عثمان بنفسه للدفاع عنها أرغم اللاتين على رفع الحصار عنها وعن تبنين في ٢ فبراير سنة ١١٩٨ م (٥٩٥ هـ) ، ثم أبحر جماعة من الفرنج الألمان الى بلادهم بعد أن جاءت الأنباء بوفاة امبراطورهم . وهكذا كان الجانبان الإسلامي والصليبي متلهفين على عقد الصلح ، فقد كان اللاتين من الضعف ، والمسلمون من الانقسام والتفرق بحيث لم يكن من الممكن أن يواصل أي منهما الحرب ، وعلى هذا النحو تم الاتفاق بين الجانبين الإسلامي والصليبي في أول يوليو سنة ١١٩٨ م (شعبان ٥٩٤ هـ) على أن يسود السلام حتى ربيع سنة ١٢٠٤ م إلا إذا قدمت حملة صليبية جديدة الى الأراضي المقدسة . وأقر الجانبان الأوضاع الراهنة ، فظلت يافا التي كان العادل قد هدم أسوارها ، تابعة للمسلمين ، وفي مقابل ذلك وافق العادل على أن يحتفظ اللاتين ببيروت وجبيل ، كما وافق على مناصفة صيدا بين الفرنج والمسلمين[2] .

ثم قدم الى عكا في سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) جماعة من الفلمنكيين ، ولحق بهم في العام التالي جماعات قليلة من الفرنسيين ، فطالبوا أماريك بالسير لمقاتلة المسلمين ، ولكن أماريك آثر الانتظار بعض الوقت ريثما تواتيه الفرصة لشن هجوم شامل على المسلمين . وحدث بعد ذلك أن

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٢٧ – الأعلاق الخطيرة ، قسم ٢ ص ١٠٠ – السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٤٠ – Deschamps, p. 187 - Stevenson, p. 294

(٢) رنسيمان ، ج ٣ ص ١٨٠ – Stevenson, pp. 295 - 296

تمكن الأسطول الإسلامي من أسر سفينتين صليبيتين من سفن قبرص بالقرب من صيدا ، وأدى هذا الاعتداء من جانب المسلمين الى تجدد الاشتباكات ، ونقض معاهدة ١١٩٨ م . واتخذ أماريك من هذا الحادث ذريعة لبث الغارات على الأراضي القريبة من عكا . وفي أثناء ذلك جاءت الأنباء بانحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مقصدها الى الاستيلاء على القسطنطينية في سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م)[١] ، وأدى ذلك الى خروج كثير من الفرنج الى بيزنطة . وكان من الطبيعي أن يسعى أماريك الى طلب الصلح ، ولم يكن العادل بأقل منه رغبة في ذلك ، الى حد دعاه الى أن يقبل تنازلات إسلامية جديدة لصالح الصليبيين ، إذ كان يخشى أن تتعرض مصر لهجوم موجه من القسطنطينية[٢] . وتم عقد الصلح في سنة ٦٠١ هـ (سبتمبر ١٢٠٤ م) ، وبمقتضاه تنازل للصليبيين « عن جميع المناصفات في صيدا والرملة وغيرهما ، وأعطاهم ناصرة وغيرها »[٣] . وهكذا قضت معاهدة سنة ١٢٠٤ بأن يتقاسم الصليبيون والمسلمون موارد صيدا .

٤ – صيدا في عهد الملك الكامل محمد :

تجدد القتال بين المسلمين والصليبيين في سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) بسبب وصول إمدادات أوروبية جديدة الى هؤلاء الصليبيين ممثلة في الحملة الصليبية الخامسة ، ثم اجتمع الصليبيون في عكا ، فبادر الملك العادل بالقدوم من مصر الى الشام ، فوصل الى الرملة ومنها الى لد ، وزحف الصليبيون من عكا نحوه ، فتحركت قوات العادل نحو بيسان ، فسار إليه الفرنج بقصد محاربته ، ولكن العادل تجنب لقاءهم لقلة عسكره ، وانسحب

---

(١) راجع التفاصيل في : عمر كمال توفيق، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، ١٩٦٧، ص ١٥٧ وما يليها .

(٢) رنسيمان ، ج ٣ ص ١٨٨ – Frederick, p. 93 – Stevenson, p. 297
Wolfgan Müller - Wiener, Castles of the Crusaders, New-York, 1966, p. 23

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٩٥ . المقريزي ، السلوك ، ج ١ ص ١٦٤

الى مرج الصفر بالقرب من دمشق لحشد مزيد من الجند ، وانفسح المجال بذلك أمام الفرنج للعيث في البلاد ، فبثوا السرايا في الأراضي الممتدة من بيسان الى بانياس ، ونهبوا القرى والحصون ، ثم قصدوا صور ، ومنها زحفوا الى الشقيف ، فنهبوا صيدا والشقيف ، وعادوا بعد ذلك الى عكا[1] . وأقام الفرنج بعكا حتى طليعة سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) حيث أعدوا حملة موجهة الى دمياط بقيادة جان دي بريين ، حملتها سفن فريزية نزلت على بر الجيزة ، شرقي النيل ، أمام دمياط في صفر سنة ٦١٥ هـ (٢١ مايو ١٢١٨ م) . وسقطت دمياط في أيدي الصليبيين في ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ (٥ نوفمبر سنة ١٢١٩ م) ، وتحرج موقف السلطان الجديد الملك الكامل محمد بن العادل ، فعرض على الصليبيين خلال ذلك أن يتخلوا عن دمياط ويرحلوا عن مصر في مقابل تنازله عن بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين من مدن الساحل ما عدا الكرك ، فرفضوا هذا العرض السخي ، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها ، كما طالبوا بالكرك[2] ، فاضطر المسلمون الى مواصلة القتال ، ولم يلبث الموقف أن تحول لصالح المسلمين ، وتم الصلح على أساس أن يسلم الفرنج دمياط في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . وعندما بلغت الغرب المسيحي أنباء الخسائر التي مني بها الصليبيون في مصر ، صمموا على إرسال إمدادات جديدة ، إلا أنه لم يصل إلى الأراضي المقدسة أعداد كبيرة من حجاج الفرنج قبل سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، وهم الطلائع الأولى للحملة الصليبية السادسة ، الذين أقاموا في عكا ينتظرون قدوم الامبراطور فردريك الثاني الذي تولى قيادة هذه الحملة[3] . وكانت هذه الطلائع تتلهف على القيام بعمل

(١) ابن الاثير ، ج ١٢ ص ٣٢٢ – المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٨٧ – الدبس ، ج ٦ ص ٢٢١

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ – أبو الفداء ، المختصر ، ج ٦ ص ٢٦ – المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٠٧

(٣) Frederick, p. 94 – Deschamps, p. 225

هام يضمن تدعيم الدفاع عن الأراضي المقدسة وذلك عن طريق إقامة تحصينات ، وبينما كانت العناصر الألمانية منهم تؤسس قلعة الشقيف كانت جماعة أخرى من فرسان الاسبتارية وصليبيي الانجليز والفرنجة والإسبان يشيدون حصناً على جزيرة صغيرة تقع عند مدخل مدينة صيدا التي استولوا عليها بعد أن كانت مناصفة[1] ، وهذا الحصن هو المعروف اليوم بقلعة البحر ، ويتكون من برجين رئيسيين يجمعهما سور . واعتبر المسلمون هذا التصرف خرقاً سافراً لشروط الهدنة التي تقضي بمناصفة صيدا . ويذكر مؤرخو الحركة الصليبية بأن البناء استغرق الفترة من يوم القديس مارتين حتى منتصف عيد الكاريم (الصوم الكبير) ، أي من ١١ نوفمبر ١٢٢٧ الى ٢ مارس ١٢٢٨ م[2] . وفي استيلاء الفرنج على صيدا يقول ابن الأثير : « وفي هذه السنة (٦٢٥ هـ) خرج كثير من الفرنج من بلادهم التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد الى بلادهم التي بالشام : عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام ، فكثر جمعهم ، وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضاً إلا أنهم لم تمكنهم الحركة والشروع في أمر الحرب لأجل أن ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الألمان ولقبه أنبرور قيل معناه ملك الأمراء ، ولأن المعظم كان حياً ، وكان شهماً مقداماً ، فلما توفي المعظم كما ذكرناه وولي بعده ابنه ، وملك دمشق ، طمع الفرنج ، وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين ، وسورها خراب ، فعمروها واستولوا عليها ، وإنما تم لهم ذلك ، بسبب تخريب الحصون القريبة منها : تبنين وهونين وغيرهما »[3] . ويقول المقريزي في السلوك : « (وفي سنة ٦٢٥ هـ) شرع الفرنج في عمارة صيداء — وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب — فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين »[4] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٨٠ — القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٧٨

(٢) Stevenson, p. 309 - Deschamps, p. 225 - سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠٠٣

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨

(٤) أبو الفداء ج ٦ ص ٤٠ — السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٢٩

لم يسع السلطان الملك الكامل محمد بعد أن بلغته هذه الأخبار السيئة إلا أن يرحل من مصر ويصل إلى نابلس ، ويكتب من هناك إلى الملك الأشرف موسى وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى يبرر لهما سبب مجيئه بقوله : « إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا »[1]. ثم وصل رجال الامبراطور فريدريك الثاني إلى عكا في إبريل سنة ١٢٢٨ م (٦٢٦ هـ) في حين تخلف الإمبراطور في قبرص بعض الوقت . ثم قدم إلى عكا في سبتمبر سنة ١٢٢٨ ، وكان الكامل محمد قد صالح أخاه الملك الأشرف ، واتحدا أمام الخطر المشترك ، وترددت الرسل بينهما وبين فردريك عدة مرات ، واستقر الأمر في ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ (١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ م) على أن تتقرر الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات ، على أن يقوم الكامل بتسليم بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا بأكملها إلى الصليبيين ، واشترط الكامل أن تبقى القدس كما هي عليه من الخراب وألا يجدد الفرنج سورها[2] ، ومنذ ذلك الحين آلت صيدا للمرة الثانية إلى الصليبيين .

(٣)

الفترة الثانية من الاحتلال الصليبي لصيدا

(٦٢٦ — ٦٩١ هـ / ١٢٢٨ — ١٢٩١ م)

(أ) اضطراب صيدا بين السيطرة الصليبية والاسلامية :

في الوقت الذي كانت الخلافات الداخلية بين أمراء البيت الأيوبي تمزق وحدة الصف الإسلامي خلال سني الهدنة ، كان المعسكر الصليبي يمر هو

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ٤٨٠

(٢) Deschamps, p. 190 - Stevenson, p. 312 - Frederick, p. 95 — سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠١١

الآخر بظروف مشابهة ، فقد كان كل من القائدين جان دي ابلين صاحب بيروت وريتشارد فلانجيري ممثل فردريك الثاني ينافس الآخر في المطالبة بعرش مملكة بيت المقدس ، وتمكن ريتشارد بعد استيلاء چان دي ابلين على قبرص من النزول ببيروت والاستيلاء عليها ، وزحف الى صيدا وصور وعكا فاحتلها . ثم دخل باليان بن أرناط صاحب صيدا طرفاً في هذا النزاع مؤيداً چان دي إبلين الذي قدم من قبرص بجيشه إلى الشام ، ونزل جنوبي طرابلس في أواخر فبراير سنة ١٢٣١ م واسترجع بيروت وصيدا[١].

أما الصراع بين المسلمين فكان أعمق وأكثر خطورة ، فقد توفي الملك الأشرف موسى بن العادل صاحب دمشق[٢] في ٤ من المحرم ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وتولى بعده الملك الصالح اسماعيل أمير بعلبك وبصرى الذي لم يلبث أن عزله الكامل محمد سلطان مصر واستولى على دمشق في آخر جمادي الأولى ٦٣٥ هـ (٢٩ ديسمبر سنة ١٢٣٨) . ثم توفي السلطان الملك الكامل في ٢٢ من رجب ٦٣٥ (٩ مارس سنة ١٢٣٨) وخلفه ولده العادل الصغير المعروف بالعادل الثاني على مصر ودمشق ، ولم تتم توليته السلطنة برضاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي لم يلبث أن تخلص من أخيه ، وجعل نفسه سلطاناً على مصر ودمشق . وفي هذه الأثناء تمكن الملك الصالح اسماعيل من العودة إلى دمشق ، وأعلن سيادته عليها في سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، ولما أحس بأنه غير قادر بما فيه الكفاية على الدفاع عن دمشق ضد الصالح أيوب فقد تحالف مع الصليبيين بعد أن وعدهم في مقابل مساعدتهم له بالتخلي لهم عن بعض المواقع الهامة التي كانت في سلطانه مثل قلعة شقيف أرنون[٣] ، وقلعة صفد ومناصفة صيدا

---

(١) سعيد عاشور ، ج ٢ ص ١٠١٩

(٢) كان الأشرف موسى قد استولى على دمشق في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٥ م) (راجع البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٤٨)

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ١٥٥

وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بـــلاد الساحل[1]. وفي سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) أقر السلطان الصالح التنازلات التي قام بها الصالح اسماعيل وعقد مع الفرنج صلحاً أقر لهم فيه حقهم في امتـــلاك بيروت وصيدا والشقيف والجليل وطبرية وبيت لحم وناصرة وعسقلان. وفي سنة ١٢٤٤ (٦٤٢ هـ) استعان الصالح نجم الدين بالخوارزمية ، فساعدوه وتمكن بفضلهم من الاستيلاء على بيت المقدس ، كما ساعـــدوه على استرجاع نفوذه على فلسطين ودمشق بعد أن هزموا الفرنج وقوات الصالح اسماعيل عند غزة في سنة ٦٤٢ هـ[2] (اكتوبر سنة ١٢٤٤). وأدى سقوط القدس وهزيمـة الفرنج إلى توجيه الدعوة إلى إرسال حملة صليبية جديدة ، وهي الحملة التي استجاب لها لويس التاسع ملك فرنسا ، ووجهها إلى مصر حيث نزل في ٦٤٦ هـ على بر دمياط.

ويشير ابن شداد في الأعلاق الخطيرة إلى أن صيدا كانت في يد الملك المغيث يوسف حتى سنة ٦٣٠ هـ ، ويذكر ابن الفرات في تاريخه اسم أحد ولاتها في هذه الفترة وهو علي بن دبيس بن يوسف الحيدي (ت ٦٧٦ هـ)[3] ، ثم آلت صيدا بعد المغيث إلى الأشرف موسى بن العادل ، وظلت تابعـة له حتى وفاته ، ثم قدمها الصالح اسماعيل للفرنج فعمروها وحصنوها[4]. ونستنتج مما ذكره ابن شداد في الأعلاق الخطيرة أن الاتفاقية التي أبرمها الكامل محمد وفردريك الثاني لم تطبق بالنسبة لصيدا ، وأن صيدا ظلت

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص٣٠٣ - C. Cahen, La Syrie du Nord, p. 648 Deschamps, p.17 . وذكر ابن تغري بردى أن الصالح سلم الشقيف لصاحب صيداء الفرنجي (النجوم ج ٦ ص ٣٣٨) وذلك في سنة ٦٣٨ هـ ، ومعنى ذلـــك أن صيدا كان يتولاها صاحبها باليان الصيداوي ، ويتعارض ذلك مع ما ذكرناه في المتن

(٢) ابن كثير ، ج ١٣ ص ١٦٤ وما يليها

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، مجلد ٧ بيروت ١٩٤٢ ص ١٠٧

(٤) الأعلاق الخطيرة ، ص ١٠٠

تابعة للمسلمين في الوقت الذي كان يحكمها حاكم صليبي هو باليان بن أرناط ، ثم أصبحت بمقتضى اتفاقية الصالح اسماعيل مناصفة بين الصليبيين والمسلمين ، وبذلك نكون قد وفقنا بين النصوص العربية المتضاربة فيما يختص بمصير صيدا في تلك الفترة التاريخية .

ثم انتزع المسلمون صيـــدا من الفرنج في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) ، فالمقريزي يذكر أن أهل دمشق عندما بلغهم نبأ استيلاء لويس التاسع على دمياط ، استولوا على صيدا من الفرنج بعد حصار وقتال ، وتم ذلك في ٢٥ ربيـع الآخر سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م)[١] ، وتولاها من قبل الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب ودمشق سعد الدين بن نزار الذي نجح في الاستيلاء على شقيف تيرون عنوة من الفرنج[٢] ، ولكن سيطرة المسلمين على صيدا لم تلبث أن تفككت ، فإن ابن شداد يذكر في موضع آخر أن الناصر صلاح الدين صاحب حلب أخذها من الصليبيين عنوة في سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) ثم صالحهم على أن تكون مناصفة[٣] . والحقيقة أن هذه الفترة تعتبر من أكثر فترات تاريخ صيدا الإسلامية اضطراباً ، ويبدو أنه تعاقب على حكم صيدا حكام مسلمون وصليبيون ، لسهولة الاستيلاء عليها بسبب تهدم أسوارها ، ولم يتم استقرارها في أيدي الصليبيين إلا بعد أن أسس لويس التاسع قلعة البر والأسوار على النحو الذي نشير إليه فيما يلي .

انتهت حملة لويس التاسع على دميــاط بالفشل ، ووقع الملك الفرنسي أسيراً ، ولما افتدى نفسه رحل إلى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠ (صفر ٦٤٨) ، وقضى في سواحل الشام الجنوبية ما يقرب من أربـع سنوات ، ينتظر وصول الامدادات ، وفي فترة الانتظـار قام بتحصين عكا وصيدا وقيسارية ويافـا وكيفا ، ففي يونيو سنة ١٢٥٣ كان يتولى صيدا وقتئذ

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٧
(٢) الأعلاق الخطيرة ، قسم ٢ ص ١٥٩ — Stevenson, p. 328
(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٠

جوليان الصيداوي بن باليان ، فعهد لويس التاسع إلى سيمون دي مونتسيليار ببناء القلعة البرية وسور المدينة وإنهاض صيدا من خرابها ، ولم يكد سيمون يبدأ في أعمال البناء حتى تعرضت صيدا لهجوم خاطف شنه المسلمون ، ففر سيمون دي مونتسيليار وجماعة قليلة من النصارى إلى قلعة البحر وتحصنوا فيها ، ولكنها كانت من الصغر بحيث لم تستطع أن تضم جميع سكان المدينة ، ولذلك سقط قائد الحامية الصليبية ونحو ألفين منهم صرعى بسيوف المسلمين ، وحمل المسلمون غنائم هائلة وعادوا بها إلى دمشق[١]. وتفصيل الواقعة حسبما رواه جوانفيل أنه عندما علمت جموع المسلمين المرابطة أمام عكا بأن الملك الموجود في يافا ويعمل على تحصين أحد أرباضها يهدف أيضاً إلى تحصين مدينة صيدا حيث توجد قوة عسكرية ضعيفة ، ساروا لقصدها — أي لقصد صيدا — فلما سمع لورد سيمون دي مونتسيليار رئيس رماة الملك وكبير رجاله في صيدا ذلك ، ارتد إلى قلعة صيدا الشديدة المناعة ، والمحاطة بالبحر من جميع نواحيها ، وكان ارتداده هذا من وحي بصيرته النافذة من جراء عدم وجود قوة كافية لديه تمكنه من مقاومة المسلمين الغزاة ، وصحب معه داخل القلعة أكبر عدد مستطاع من الناس ، ولكنهم كانوا قلة نظراً لصغر مساحة الحصن ، ثم « هاجم المسلمون المدينة دون أن يلقوا أية مقاومة لأنها لم تكن مسورة من جميع نواحيها ، وقتلوا أكثر من ألف رجل من جماعتنا ، وانطلقوا بما غنموه إلى دمشق ، فلما سمع الملك هذه الأنباء اشتد غضبه ، لأن المسلمين خربوا كل ما أقامه في صيدا ، ولكن هل يجدي غضبه في إصلاح ما جرى ؟ . استغل بارونات البلد غضب الملك لصالحهم ، إذ كان قد جمع عزمه من قبل على الذهاب لتحصين رابية واقعة على الطريق الواصل بين يافا وبيت المقدس ، حيث كان يقوم على هذه الرابية حصن

---

(١) Deschamps, p. 165, 266 - Lammens, t. I, p. 230 - Grousset, t. III, p. 505-507 - Wolfgan Müller, p. 26 - الدبس ، ج ٦ ص ٢٧٤ - حسن حبشي ، الشرق العربي بين شقي الرحى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ص ١٢٨

قديم في أيام المكابيين . لم يكن من رأي بارونات البلاد إعادة بناء هذه القلعة لأنها كانت على مسافة خمس فراسخ من البحر ، وهذا هو السبب الذي من أجله لم يكن في الاستطاعة إرسال الذخائر إليها بحراً دون وقوعها في أيدي المسلمين الذين كانوا أقوى منا . فلما جاءت الأنباء إلى المعسكر بتخريب ضاحية صيدا تحدث بارونات هـــذه البلاد إلى الملك مبينين له أن إعادة تحصين صيدا التي خربها المسلمون أجدى وأعظم قيمة من بنائه قلعة جديدة . فوافقهم الملك على رأيهم »[1] . ويضيف جوانفيل قائلاً : « وعندما عدنا إلى صيدا من بانياس ، وجدنا الملك (الذي كان موجوداً في صيدا) قد أمر بأن تدفن في الحـال جثث النصارى الذين قتلهم المسلمون ، كما اشترك هو بنفسه في حمل الجثث العفنة دون أن يسد منخاريه كما يفعل الآخرون . كذلك أمر بجلب العمال من جميع النواحي ، وأخذ بنفسه بتقوية المدينة بالأسوار العالية ، والأبراج الضخمة حتى إذا بلغنا المعسكر وجدناه قد عاين بنفسه الأماكن التي نعسكر فيها »[2] . وهكذا أتم الملك تحصين مدينة صيدا من كل نواحيهـــا تقريباً في سنة ١٢٥٤ م ، وحصنها بالأسوار والأبراج وأقام لها الخنادق المنيعة من الداخل والخارج[3] ، واستغرقت هذه الأعمال الانشائية في صيدا نحو ثمانية شهور حتى صيام ١٢٥٤ م ، وقبل الانتهاء منهـا قرر لويس التاسع العودة إلى فرنسا[4] .

(ب) الغارة المغولية المدمرة على صيدا (٦٥٨هـ – ١٢٥٩/ ١٢٦٠م) ، أسبابها ونتائجها :

يعتبر جوليـــان الصيداوي آخر بارونات صيدا والشقيف من سلالة

(١) جوانفيل ، القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٧

(٤) Stevenson, p. 331

ابوستاش جارنييه الذي كان قد أقطعه بلدوين الأول ملك بيت المقدس صيدا في سنة ١١١٠ م ، فأبوه هو جيل (ت ١٢٤٧ م) ابن باليان الأول (ت ١٢٣٩ م) وجده أرناط الصيداوي المشهور . وكان جوليان هـــذا صهراً لهيثوم الأول ملك أرمينيا إذ تزوج في سنة ١٢٥٢ م (٦٥٠ هـ) من الأميرة ابوفيمي بنت ملك أرمينيا ، بينما تزوج بوهمند السادس صاحب أنطاكية (١٢٥١ — ١٢٧٥ م) بنتاً ثانية لهذا الملك[1]. ومن المعروف أنه ظهر على مسرح الأحداث في هذه الفترة قوة جديدة خطيرة تحالفت مع قوى الصليبيين ضد المسلمين ، هي قوة المغول الذين أدت انتصاراتهم المتوالية تحت قيادة هولاكو ضد المسلمين وتقدمهم السريع في قلب العالم الإسلامي إلى قيام جبهة صليبية مغولية متحدة تضم المغول والأرمن والفرنج تستهدف غاية مشتركة هي سحق القوى الإسلامية في مصر والشام .

غير أن بارونات عكا لم تكن لهم نفس آراء بوهمنـد السادس الذي ارتبط مع صهره ارتباطاً وثيقاً وانساق وراءه في الحملة المغولية بقيادة هولاكو خان ثم كيتبغا الذي تسلم القيادة المغولية في الشام بعـد قفول هولاكو إلى إيران ، فقد كان بارونات الجنوب مترددين بين محالفة المغول أو التزام موقف حيادي أو التزام الجانب الإسلامي ، وفضل جوليان سيد صيدا والشقيف وحنا دي ابيلين أمـير بيروت بالإضافة إلى أمير جبيل وفرسان الداوية وسكان عكا في نهاية الأمر محـالفة المسلمين[2]. ويرجع السبب الرئيسي في انحيازهم إلى جانب المسلمين إلى حادث كان له أبعد الأثر في تغيير نظرتهم نحو المغول واعتبـارهم برابرة بالقياس إلى المسلمين المتحضرين[3] وتفصيل ذلك أن جوليان الصيداوي الذي اتصف بسوء الخلق وسرعة الغضب والتهور الشديد ، استغل فرصة القتال الدائر

(١) Grousset, t. III, p. 595

(٢) چون لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، مقال في « دراسات إسلامية » ترجمة الأستاذ أنيس فريحه وآخرين ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٣٦

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، ج ١ ، بيروت ١٩٧٠ ص ٢٩٩

بين المغول والمسلمين لكسب مغانم عن طريق الإغارة من الشقيف على أراضي البقاع المشهورة بخصبها[1]. ويذكر المؤرخون أنه عبر الليطاني مع فرقة من عسكره وأغار على الأراضي الخصبة في نواحي مرج عيون، وكانت تضم قرى إسلامية خاضعة للمغول، فغدر الفرنج بأهالي هذه القرى، وكان من الطبيعي أن يثور كيتبغا لهذا الاعتداء على أراض تابعة له أو تخضع لنفوذه، ولم يغفر لجوليان تعديه عليه، فأرسل عدداً من عسكره بقيادة ابن اخته لرد المعتدين وإنزال العقاب بهم حتى لا يقدموا مرة ثانية على الإغارة على تلك المنطقة، وبلقنهم د..ا لا بنسوه ليحترموا تقاليد المغول، فاضطر جوليان إلى طلب مساندة جيرانه الفرنج، واستطاع أن يوقع بالقائد المغولي في كمين ويجهز عليه[2]. وأثار هذا العدوان الإجرامي من جانب الفرنج الذي كان كيتبغا يعتبرهم حتى هذه اللحظة حلفاء للمغول ثائرة كيتبغا وقواته، ونسي المغول في غضبهم التحالف القائم بينهم وبين الفرنج، وأصبح لا هم لكيتبغا سوى الانتقام من صاحب صيدا، ودفعته شهوة الانتقام إلى مهاجمة هذه المدينة مركز العدوان، فحشد قوة كبيرة من خيالة المغول وسار على مقدمتها قاصداً صيدا ثم هاجمها بجحافله، ودافع جوليان عن باب صيدا الرئيسي «باب عكا» الملاصق لقلعة البر، حتى يتيح للأهالي الفرصة للتحصن بداخلها[3]. واضطر جوليان في النهاية إلى التحصن بدوره بداخل القلعة المذكورة بعد أن قتل من تحته فرسان، واتفق في هذه الآونة أن وصلت إلى ميناء صيدا سفينتان جنويتان قدمتا من صور يقودهما فرنشيسو جريمالدي فأسهمت في نقل فريق من الأهالي ممن لم تتسع القلعة البرية لإيوائهم إلى قلعة البحر التي لم يكن في استطاعة خيالة كيتبغا الوصول إليها، واقتحم المغول أسوار المدينة، وتدفقوا عليها، ودمروا الأسوار وسووها بالأرض،

(١) رنسيمان، ج ٣ ص ٥٢٩ — الباز العريني، المغول، بيروت، ١٩٦٧ ص ٢٥٠

(٢) Deschamps, p 194 - Frederick, p. 97 - الباز العريني، المرجع السابق، ص ٢٥٠

(٣) Deschamps, p. 194, 226

كما خربوا عمران المدينة ، وذبحوا كل من وجدوه أمامهم ، ثم إنهم نهبوا المدينة ولم ينسحبوا منها إلا بعد أن أضرموا النيران في مساكنها ودمروا أسوارها وحولوا المدينة التعسة إلى كومة خرائب وتلال أنقاض[1] .

ومرت الموجة المغولية المدمرة وخلفت وراءها مدينة صيدا ركاماً ، وعجز جوليان عن تعمير ما تخرب منها لقلة أمواله ، فاضطر إلى بيع بارونيته لفرسان الداوية في سنة ١٢٦١ م[2] . وكان من نتائج وقعة المغول في صيدا أيضاً أن بارونات الفرنج الحانقين على كيتبغا لم يستطيعوا أن يخفوا عداءهم وكراهيتهم للمغول ، ووقفوا من المماليك في مصر موقفاً مؤيداً عندما عزم هؤلاء على خوض المعركة الفاصلة ضد المغول ، ولم يترددوا في الإفصاح عن استعدادهم لبذل المساعدة والعون لهم ، وإمداد المظفر قطز سلطان مصر بالأجناد ، ويذكر مؤرخو العرب أن الفرنج خرجوا إليه بتقادم ، وأرادوا أن يسيروا معه نجدة ، ولكن قطز أنف من ذلك حتى لا يكون الفرنج قد بذلوا له فضلاً ينسيه بعد ذلك رسالته في تطهير الأراضي الإسلامية منهم وتحريرها من احتلالهم ، ولم يسعه إلا أن يشكرهم على عرضهم له وأخلع على رؤسائهم ، ثم استحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[3] . ويعتقد الأستاذ الدكتور مختار العبادي أن أحوال الصليبيين في الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم أي عون سواء للمماليك أم للمغول ، إذ كانت أحوال مسيحيي الشام جميعاً لا سيما في عكا قد بلغت وقتئذ أقصى درجات السوء منذ أن قام النزاع بين الجنوية والبنادقة في سنة ١٢٥٦ ، وتطور بعد ذلك إلى حرب أهلية جذبت إليها جميع العناصر المسيحية ، فانضم البيازنة وفيليب دي مونتفورت أمير صور إلى الجنوية ، في حين انضم بوهمند السادس أمير أنطاكية إلى

(١) Grousset, t. III, p. 596 – رنسيمان ، ج ٣ ص ٥٣٠ – Frederick, p. 97

(٢) Grousset, t. III, p. 639, 645

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٤٣٠ – الباز العريني ، المغول ، ص ٢٥٩ – مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٢

البنادقة . كذلك انضم جماعات الفرسان الاسبتارية إلى الجنوية بينما انضم الداوية والتيوتون ومنظمة القديس توماس أكون ولازارس إلى البنادقة . وعلى الرغم من التوصل في ٩ أكتوبر سنة ١٢٥٨ إلى وضع حد لهــذا الصراع بمعاهدة أبرمت بين الطرفين إلا أن هذه الحرب تركت الجبهة الداخلية للصليبيين في غاية الإعياء والتمزق[١] .

ومع ذلك فإن موقف بارونات عكا المؤيد للمماليك كان من العوامل الرئيسية في تصديع الحلف المغولي الصليبي وانهيــاره ، كما كان له أعظم الأثر في انتصار القوى الإسلامية في عــين جالوت . ويتهم جروسيه بارونات عكا وصيدا بالغباء ، فيعلق على تأييدهم للمماليك بقوله : « كانت مصلحة المسيحية ترتكز على تضامن قوى الصليبيين ومغول إيران ، وقد أدرك المماليك هذه الحقيقة ، ولكن بارونية عكا لم تفهمها ، إذ كان المغول في اعتبارهم هم العدو الأول لهم منذ أن نهبوا صيدا »[٢] . وفي موضع آخر يقول : « اشترك هيثوم ملك أرمينيا وصهره بوهمند السادس أمير أنطاكية مع جيش هولاكو في غزو بــلاد سورية الإسلامية ، ولو أن بارونات صيدا وعكا الأغبياء قلدوهما في ذلـك بدلاً من تأييدهم للمماليك وانحيازهم لهم ضد المغول لكانت قوى المغول يقيناً قد اكتسحت أمامها النفوذ الإسلامي وأزالته من سواحل الشام »[٣] . وينعت ديشام تصرف جوليان بالجنون ويرمي الفرنج في جنوبي الشام بعــدم الفهم فيقول : « وهكذا كانت القطيعة بين كيتبغا والفرنج في بلاد الشام الجنوبية الذين لم يدركوا الدعم الهائل الذي يمكن أن يترتب على التحالف المغولي الصليبي ضد القوى الإسلامية في حين أدركه صاحب أنطاكية وملك أرمينيا . وتسبب هذا الجنون من جانب جوليان في إحداث نتائج خطيرة ، فإن

---

(١) مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦٢

(٢) Grousset, t. III, p. 604

(٣) ibid. p. 631

بارونات الفرنج الساخطين على كيتبغا حققوا آمال المماليك في القضاء على الاحتلال المغولي »[1] .

(ج) آثار الصليبيين في صيدا

تعرضت صيدا في العصرين الأيوبي ثم الصليبي الثاني لاضطرابات وهزات عنيفة مصدرها كثرة ما أصيب بـــه عمرانها من تخريب وتدمير بسبب الغارات التي كان يشنها الصليبيون عليها في العصر الأيوبي أو المسلمون في عهدها الصليبي الثاني أو المغول في الفترة الأخيرة من هذا العهد . صحيح أن مدينة صيدا كانت قاعدة بحرية هامة يمكن الإفادة منها في تصريف منتجات البـلاد في الخارج[2]. ولكن حالة الاضطراب السياسي ، الناتج من تناوب الحكم الاسلامي والصليبي فيهـا ، بالاضافة إلى تدمير نواحيها المزروعة وتخريب عمرانها ، كل ذلك ساعد على الإخلال باقتصاد هـــذه المدينة العريقة كما أدى إلى تقلص عمرانها وانكماش رقعتهـا ، الأمر الذي أدي إلى نزولها من عداد المدن الكبرى إلى مصاف المدن الساحلية الصغرى . وعلى الرغم من اضطراب الأحوال السياسية وما ترتب على ذلك من اضمحلال المدينة اقتصادياً وعمرانياً ، فإن صيدا ظلت تحتفظ في هذا العهد الصليبي بشهرتها في زراعة قصب السكر ، وكانت لذلك بطبيعة الحـــال من بين المدن الرئيسية في إنتاج السكر[3] ، كما احتفظت بقسط من شهرتها القديمة في صناعة الزجاج والخزف[4].

---

(١) Deschamps, p. 195

(٢) كانت صيدا مرسى هاماً في عهد تبعيتها للصليبيين ، ففي منتصف يوليو سنة ١١٧١ م نزل الملك أملريك في مينائها بعد اتفاقه مع البيزنطيين في عهد الامبراطور مـــانويل كومينين (Grousset, t. II, p. 579) وفي أول أكتوبر سنة ١١٧٦ نزل بهـــا المركيز وليم دي منتفرات ذو السيف الطويل الذي تزوج سيبلا أخت بلدوين الرابع (ibid. p. 634)

(٣) نقولا زياده ، مدن عربية ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٧٦ – رواد الشرق العربي في القرون الوسطى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٦٥

(٤) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ٤١٤ ، ٤١٥

وكانت صيدا في هذا العصر تحف بسهلها المروج التي تكسوها الأزهار والنرجس ، وقد وصف ابن الساعاتي الشاعر هذه المروج في وقت فر فيه أحد أسرى الصليبيين من صيدا ، فلحقته خيل الوالي الأيوبي وأدركته ، يقول ابن الساعاتي :

لله صيداء من بلاد   لم تبق عندي هماً دفينا
نرجسها حلية الفيافي   قد طبق السهل والحزونا
وكيف ينجو بها هزيم   وأرضها تنبت العيونا[1]

ومن حيث البناء نلاحظ أن اضطراب الأحوال السياسية وتناوب السيطرة الاسلامية والصليبية عليها ، كانت من العوامل التي دعت الى توجيه المزيد من الاهتمام بالمنشآت الحربية ، ولكن معظم المنشآت الأيوبية والصليبية اندثرت وتخربت إما بفعل الزلازل العنيفة التي دمرت بنيان المدن الساحلية خاصة في عامي ٥٥٢ (١١٥٧ م) ، ٥٩٨ (١٢٠٢ م)[٢] ، أو بهدف عرقلة الصليبيين ومنعهم من الاستيلاء عليها ، أو نتيجة أعمال انتقامية . على أن ما تبقى من هذه المنشآت في يومنا هذا ، ومعظمه من العمائر الحربية — يشير الى طبيعة الصراع العنيف الذي احتدمت ناره منذ أن وطئت أقدام الصليبيين في أراضي صيدا . وليس من الصواب نسبة كل هذه الآثار الحربية في صيدا إلى الصليبيين ، كما هو سائد في الوقت الحاضر ، فإن أسوار المدينة وقلعتيها دمرت ثم أعيد بناؤها عدة مرات عبر التاريخ الوسيط ، لاسيما ما يتعلق بالأسوار وببعض أجزاء من قلعة البحر ، أما قلعة البر فهي بناء صليبي واضح المعالم ، لاسيما البرج الضخم الذي يتوج التل ، وينبت منه السوران الرئيسيان المؤديان إلى البحر . ويشير جلبرت دي لا نوي أن السور الذي كان يحمي صيدا من الشرق

(١) ديوان ابن الساعاتي (بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم الخراساني) ، تحقيق أنيس المقدسي، بيروت ، ١٩٣٨ ، الجزء الأول

(٢) يوسف، مزهر ، ج ١ ص ٢٤٢

كان يتقدمه سور أمامي وخندق يتجه شرقاً ، وينتهي السور ببرج ضخم مستدير يقع على ساحل البحر شمالي الجسر الذي يربط قلعة البحر بالبر(١).

وفيما يلي دراسة موجزة لأثرين رئيسيين من العهد الصليبي هما قلعتا البر والبحر بالاضافة إلى تعريف بالكنيسة الصليبية التي يشغلها اليوم جامع صيدا الكبير . أما فيما يختص بالقلعتين ، فمن المعروف أن الصليبيين اهتموا اهتماماً خاصاً بالتحصينات الساحلية لتأمين العمليات البحرية ، وأنهم استخدموا فيها مخلفات الأسوار والقلاع الفينيقية والرومانية والإسلامية ، بل إن بعض التحصينات التي أقامها الصليبيون في صيدا كانت ترميماً للقلاع والحصون القديمة التي كانت تتميز بمواقعها الإستراتيجية الهامة ، وهو أمر سبق ان أشرنا إليه من قبل عندما تعرضنا لوصف ناصرخسرو لقلعة صيدا في العصر الفاطمي . ونلاحظ أن الصليبيين تأثروا في بنائهم لقلعتي صيدا ، لاسيا قلعة البحر ، بالصورة المتأصلة للعمارة الشرقية البيزنطية والإسلامية(٢) ، فاستخدموا أبدان أعمدة قديمة من المعتقد أنها استحضرت من معبد فينيقي قديم كان مخصصاً لملقارت(٣) ثم غرسوها في عرض بناء الجدران وأدمجوها بين صفوف البناء بحيث لا يظهر من الخارج سوى رؤوسها ، بهدف اتخاذها مساند لتدعيم هذه الجدران وهي فكرة معمارية كانت شائعة في العمارة الاسلامية(٤) ، ولها أمثلة سابقة في بوابات القاهرة من العصر الفاطمي ، وفي قلعة قايتباي بالاسكندرية من العصر المملوكي الثاني وفي قلاع المماليك بطرابلس الشام(٥) ، كما اتخذوا نظام الشرفات الحجرية البارزة على واجهات القلاع والبوابات تمكيناً للدفاع عن المداخل والبوابات وهي أكثر أجزاء القلاع تعرضاً للهجوم . ومن المعروف أن الشرفات

---

(١) Rey, Les colonies franques de Syrie aux XIIᵉ et XIIIᵉ siècles, Paris, 1883, p. 520

(٢) عبد الرحمن زكي ، القلاع في الحروب الصليبية ، ص ٥٠

(٣) Bruce Condé, See Lebanon, Beirut, 1960, p. 237

(٤) Robin Fedden, & John Thomson, Crusader Castles, London, 1957, p. 50

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٤٤٥

البارزة كانت من الموضوعات الشائعة في العمارة البيزنطية ، واقتبسها العرب في تحصيناتهم وبأعلى بوابات أسوارهم ، فظهرت في بوابات القاهرة من العصر الفاطمي ، كما ظهرت في قلعة الجبل التي أسسها صلاح الدين بن أيوب في القاهرة ، وفي قلعة قايتباي بالاسكندرية . ويشير جوانفيل إلى أن مهندس لويس التاسع أقام أمام الأسوار الرئيسية لصيدا أسواراً أمامية ، وهو نظام كان شائعاً أيضاً في العمارة الحربية عند البيزنطيين ، ثم طبقه العرب في تحصيناتهم وساد استخدام الأسوار الأمامية في أسوار المغرب والأندلس بوجه خاص[1] ، وعرفت هذه الأسوار الأمامية في الأندلس بالحزام البراني أحياناً وبالبربخانة أحياناً أخرى . وكان يفصل الأسوار الرئيسية عن الأمامية دروب أو فصلان يستخدمها المدافعون كخط دفاعي أمامي ، كما كان يتقدم الأسوار الأمامية خندق يدور بها ويساعد على عرقلة تقدم العدو نحو سور المدينة الرئيسي .

قلعة البحر :

أسسها جماعة من الصليبيين الفرنجة والانجليز والإسبان ، على صخرة ناتئة كبيرة منعزلة في البحر أشبه بجزيرة صغيرة ، تبعد عن الساحل بنحو ثمانين متراً ، وقد استغرق بناؤها ما يقرب من أربعة أشهر أي في الفترة ما بين ١١ نوفمبر سنة ١٢٢٧ ، و ٢ مارس سنة ١٢٢٨ م[2]. وأول من قام بدراسة هذه القلعة الصليبية المؤرخ والعالم الأثري ري Rey إذ وضع لها تخطيطاً هاماً في سنة ١٨٧١ م ، ثم تبعه في هذا العمل الكبير الأستاذ بيير كوبل ، وأخيراً قام الأستاذ ديشام Deschamps بدراستها دراسة علمية منظمة معتمداً على البحث الذي قدمه ري اعتماداً كلياً . وتتكون قلعة البحر أساسياً من برجين : الأول برج ضخم (أ) يقع في الجهة الغربية أو الركن الغربي من القلعة ، وهو برج إسلامي واضح المعالم

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الاندلس ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٣٤

(٢) Deschamps, p. 17

أعتقد أنه من العصر المملوكي يتميز بأن واجهته الجنوبية المطلة على مدينة صيدا مدورة ، ويتصل به من الجهة الشمالية برج آخر مربع الشكل (ج) فتحت في جداره الشمالي المطل على البحر منافذ للسهام مخروطية الشكل. والثاني برج متوسط الحجم (ب) كان يصل بينه وبين البرج الرئيسي (أ) سور لم يتوصل ري إلى العثور على آثاره.

وكان يصل بين القلعة والساحل جسر قائم على ركائز ضخمة يبدأ من مدخل القلعة وينتهي على مسافة قدرها نحو ٣٥ متراً عند الركيزة (د) لم يتبق من ركائزه الأصلية سوى الركيزة الأولى (هـ) التي ينتهي عندها الجسر. ونستنتج من ذلك أن الفرنج لم يمدوا جسرهم حتى البر وإنما مدوه حتى الركيزة (د) ، وكانت الركائز الأصلية كما تبدو ممثلة في الركيزة الباقية من العصر الصليبي (هـ) مزودةً برؤوس بارزة مدببة من الجهة الشرقية. ويعتقد ري أن القسم الممتد من الركيزة (د) حتى البر ويبلغ طوله ٤٢ متراً تقريباً حديث البناء وأنه كان في الأصل مجرد قنطرة من الخشب من السهل على حامية القلعة تدميرها في أوقات الخطر ، حتى لا يتمكن المهاجمون من الوصول إلى أسوار القلعة. ومن المعروف أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي عندما أراد الاستيلاء على القلعة في سنة ٦٩٠ هـ ، أقام جسراً من البر يصل بين الساحل ومدخل القلعة التي كانت منعزلة وقتئذ عن الساحل.

ويعتقد الأستاذ ديشام أن القسم الأدنى من البرج الرئيسي (أ) صليبي الإنشاء ، وأن القسم الأعلى منه إسلامي[1]. وأعتقد شخصياً أن هذا البرج إسلامي البناء كله ، وأنه أقيم في العصر المملوكي الأول المعروف بعصر دولة المماليك البحرية ، وأن بناءه أضيف إلى القلعة بدليل أن الجدار الشمالي لهذا البرج يتعامد ويقطع بائكة قديمة ويبتر عقدها الجنوبي بتراً تاماً مما يدل على أنه مستحدث ، وسنعود إلى دراسته عندما نتعرض لدراسة

---

(١) Deschamps, pp. 229 - 231

الآثار الباقية من العصر المملوكي . أما البرج المتوسط الحجم (ب) فصليبي الطابع وهو برج مستطيل الشكل طوله ٢١ متراً وعرضه ١٧ متراً ، صفّت على واجهته الخارجية أربعة صفوف من أبدان أعمدة جرانيتية أدمجت في سمك البناء ، وقد أشرنا من قبل إلى هذه الظاهرة وذكرنا أنها من الخصائص البارزة في العمارة الحربية الإسلامية وشاعت في المنشآت الحربية التي أقامها بناة مسلمون في عصر الحروب الصليبية ، واقتبسها الصليبيون في كثير من منشآتهم الحربيـة في عسقلان وقيسارية وصور وجبلة وجبيل واللاذقية . ويتقدم البرج (ب) شمالاً بناء (ز) يمكن الدخول إليه عن طريق خوخة لها ممر مزود بشط . ويتقدم البناء (ز) بناء آخر (ح) ، وقد عثر الأستاذ كوبل بحذاء الواجهة الشمالية كلها للجزيرة ما بين البرج (ج) والبناء (ح) على آثار قاعة (ط) يبلغ طولها نحو خمسين متراً ، وكانت تنقسم فيما يظهر إلى ست أساطين ، وكان يدعم جدارها الذي يغلق الجانب الجنوبي منها ٥ أكتاف أو دعائم قائمة على قاعدة ارتفاعها ١,٢٠ متراً . وعثر في هذا المكان على مسند (كابولي) يزدان بصورة نصفية لشخص . كذلك نشر الأستاذ كميل انلار في سنة ١٩٢٦ صوراً منقولة لمسند وتيجان أعمدة تزدان بتوريقات عثر عليها في خرائب قلعة البحر ، والمسند المذكور محفوظ اليوم بمتحف بيروت ، وهو عمل فرنسي الطابع يرجع تاريخه إلى عهد الملك لويس التاسع ، ووجود هذا المسند في قلعة البحر دليل على أن القاعة المذكورة أضيفت إلى القلعة في فترة الأعمال الإنشائية التي قام بها لويس التاسع أثناء إقامته بصيدا[١].

قلعة البر :

تعرف هذه القلعة أيضاً بقلعة لويس التاسع أو القديس لويس[٢] ، وقلعة صيدا الفوقا وقلعة المعزة[٣] ، بناها لويس التاسع أثناء فترة إقامته

---

(١) ibid. p. 232

(٢) ibid. p. 227

(٣) أحمد عارف الزين ، تاريخ صيداء ، ١٣٣١ هـ ، ص ١٠٣

بعكا وصيدا فيما بين ١٣ مايو سنة ١٢٥٠ الى ٢٤ أبريل سنة ١٢٥٤ . ولا تحتفظ هذه القلعة اليوم بعناصرها الصليبية القديمة بسبب تدمير القسم الأعظم منها وما سببته الترميمات العديدة وأعمال الإصلاح والتجديد التي طرأت عليها منذ أن قام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بتدميرها هي والقلعة البحرية في سنة ١٢٩١[1] . زد على ذلك أن القلعة البرية بنيت بناء سريعاً بطريقة غير متقنة على الإطلاق ، واستخدمت في بنائها قطع من الحجارة الصغيرة غير المنتظمة ، مما ساعد على سرعة تخريبها . وينسب الأستاذ ديشام أعمال الترميم فيها الى الأمير فخر الدين المعني الثاني في القرن ١٧ م ، وبينما يعتقد كل من ري وكوبل أن أسس البناء من بقايا القلعة الصليبية ، فإن الأستاذ ديشام يعتقد بدوره أن القلعة أقيمت في موضع جبانة صيدون القديمة .

وتخطيط سور القلعة البرية يتخذ شكل قوس نصف دائري يطل قطره إلى جهة المدينة في حين يتجه وجه القوس الدائري نحو الجنوب . وتبرز الواجهة المدورة للبرج الأعظم الذي يؤلف القلعة نفسها في وسط القوس الدائري لسياجها ، والبرج المذكور بناء ضخم يبلغ طوله ١٧ متراً ، وعرضه ١٤ متراً ، وسمك جدرانه ١,٥٠ متراً ، ويتجاوز في بروزه الواجهة بنحو مترين من بناء أصم لا تتخلله منافذ للسهام أو أي نوع من الفتحات ، ويحمي الجدارين الشمالي والشرقي أربع منافذ للسهام . وتتداخل في بناء القلعة الكثير من العناصر المعمارية الإسلامية[2] .

جامع صيدا الكبير :

أذن بارونات صيدا في سنة ١٢٦٠ لمنظمة فرسان القديس حنا الاسبتارية ببيت المقدس أن يقيموا بيتاً للاسبتارية على الصخور المطلة على

---

(١) الدويهي ، ص ١٥١

(٢) Deschamps, p. 229

الجانب الغربي من ساحل صيدا ، وكان بيت الاسبتارية المذكور في حد ذاته أشبه بقلعة حربية لها كنيستها الخاصة[١] . والجامع الإسلامي بصيدا يشغل قسماً من الكنيسة المستطيلة التي بناها الاسبتارية في القرن الثالث عشر الميلادي[٢] ، ويدعم جدران الجامع من الخـــارج ركائز ضخمة هي نفس الركائز القديمة للكنيسة الاسبتارية ، وقد طغى البحر على هذا البناء في سنة ١٨٢٠ ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك[٣] .

(١) Bruce Condé, p. 239

(٢) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ٣٨٢

(٣) عارف الزين ، تاريخ صيداء ، ص ١٠٨

الفصل الرابع

صيدا في عصر المماليك

١ – معركة التحرير

(أ) صيدا في السنين الأخيرة من عهدها الصليبي

(ب) الأشرف خليل يسترد صيدا ويدمر أسوارها وتحصيناتها في ٦٩٠ هـ

٢ – وضع صيدا الاداري والاقتصادي

(أ) الوضع الإداري

(ب) اضمحلال العمران في صيدا

(ج) الوضع الاقتصادي

٣ – غارات القبارصة والجنوية عـــلى صيدا وأثره في اهتمام المماليك باعادة تحصينها

(أ) غارات القبارصة على صيدا

(ب) غارات الجنوية على صيدا

(ج) اهتمام المماليك بإعادة تحصين صيدا

الفصل الرابع
صيدا في عصر المماليك

(١)

معركة التحرير

(أ) صيدا في السنوات الأخيرة من عهدها الصليبي:

انتصرت جيوش المماليك انتصاراً حاسماً على جيوش المغول وحلفائهم من الأرمن وفرنج أنطاكية في موقعة عين جالوت المشهورة التي جرت في ٢٦ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م). وفي نفس هذا العام ارتقى الأمير المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري عرش السلطنة في مصر والشام باسم السلطان الملك الظاهر، بعد أن وثب على السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بطل وقعة عين جالوت.

واتبع بيبرس مع الصليبيين سياسة تقوم على العنف والصرامة مستهدفاً إخراجهم نهائياً من أراضي الشام، إذ لم يكن قد نسي بعد الدور الذي لعبه بوهمند السادس ومن حذا حذوه من الصليبيين لمساندة المغول، ورأى أن يبدأ بتوجيه أولى ضرباته إلى إمارة أنطاكية، لمعاقبة أميرها على محالفته للمغول، فلقد كان بيبرس يعتبر بوهمند العدو الأعظم له من بين جميع أمراء الفرنج؛ ومنذ سنة ٦٦٠ هـ (١٣٦٢ م) بدأ بيبرس عملياته الحربية في أنطاكية، فغزاها الأمير شمس الدين سنقر الرومي في هـــذه

السنة ، وهاجم ميناءها ، وعاد ومعه ما يزيد على ثلاثمائة أسير[1]. وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) استولى بيبرس على مدينـة قيسارية وأرسوف ، وفي العام التالى (٦٦٤ هـ) هاجم قلعة صفد وتمكن من الاستيلاء عليها . وفي الجبهة الشمالية هاجمت قواته مدينة طرابلس وبلاد السواحل وحصن الأكراد واستولت عليه ، كما استولت على قلعة حلبا والقليعات[2]. وفي هذه السنة وجه الأمير إيتامش إلى صيدا وأغار عليها وكثرت المغانم في يـــده[3]. ويذكر صالح بن يحيي أن الأمير جمال الدين حجي عهد الى بدر الدين بن رحال بالمرابطة في قبالة فرنج صيدا وبيروت والمثاغرة لهم ، كذلك أورد صالح بن يحيي نص كتاب زي الدين آقوش النجيبي نائب الشام إلى زين الدين صالح بن عـــلي بن بحتر أمير الغرب في زمن الظاهر بيبرس ، والى جمال الدين حجي يأمرهما فيه بعدم تفريق جموعهما وإعادة جمعها وتوجيهها إلى جهة صيدا ، والاجتهاد في المساعدة على حفظ هـــذا الثغر ، كذلك كتب بيبرس إلى زين الدين وجمال الدين حجي كتاباً يأمرهما فيه بالإستمرار في الخدمة والنصح لدولته ويعدهما بالمكافأة لقاء إطلاعه على الأخبار والمتجددات ، وهو بذلك يهدف الى اتخاذهما عينين له يتجسسان له أخبار الفرنج وأن يكونا مثاغرين على صيدا وبيروت[4].

وهكذا بدأ بيبرس يطبق سياسة من الصرامة تجاه الصليبيين ، وعندما أيقن هؤلاء بتحول ميزان القوى إلى جانب المماليك طلبوا منه الصلح ، ووصلت رسلهم الى السلطان في سنة ٦٦٥ هـ يعرضون عليـه المناصفة في صيدا وهدم الشقيف . وتردد السلطان بيبرس بادئ ذي بدء في إجابتهم إلى طلبهم ، ولكنه لم يلبث في العام التالي أن قبـل عرضهم ، وأبرمت

(١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١١٨ – منتخبات من كتاب عقـــد الجمان لبدر الدين العيني في R. H. C. t. II القسم الاول ، ص٢٢١ - طرابلس الشام ، ص ٢٦٦

(٢) طرابلس الشام ، ص ٢٦٧

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٥٤٥

(٤) صالح بن يحيي ، ص ٦١ - ٦٤

معاهدة للصلح مدتها عشر سنوات ، في أول سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) بينه وبين صاحب عكا ، اتفق فيها على أن بلاد صيدا الوطأة (السواحل) للفرنج والجبليات للسلطان (١).

وظلت صيدا بمنأى عن الغزوات الاسلامية المدمرة في السنين الأخيرة من الصراع بين الفرنج والمسلمين ، ومع ذلك فقد اتخذت جانباً في النزاع الخطير الذي نشب بين بوهمند السابع صاحب أنطاكية وطرابلس (١٢٧٥-١٢٨٧ م) ومقدم الداوية في صيدا جيوم دي بوجيه ومعه جاي الثاني المعروف بسيركي صاحب جبيل في سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، وتعرضت صيدا إبان هذا النزاع لهجوم شنته ١٥ سفينة سيرها بوهمند السابع ، ونزلت قواته عند قلعة البحر حيث وقعوا أسرى في أيدي الداوية ، وقد تعرضت صيدا بسبب هذه الغارة لأضرار فادحة (٢).

واستمر الصراع قائماً بين بوهمند السابع ومقدم الداوية ومعه صاحب جبيل حتى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، فقد حاول جي في هذه السنة الاستيلاء على طرابلس عن طريق المفاجأة ، فخرج في ثلاث حمالات تحمل فرقة من العسكر عدتهم ٢٥ من الخيالة ، و ٤٠٠ من الرجالة كلهم من مواطنيه الجنوية ، فرحل سراً من جبيل في ١٢ يناير ، ووصل في الصباح أمام طرابلس ، ولكن بوهمند حاصره هو ورجاله ، وألقى القبض عليه ، وعاقب الجنوية بأن أمر بسمل أعينهم ، أما مصير جي فكان أبشع ، إذ دفن هو وأخواه وابن أخته أحياء في حفرة في آخر فبراير سنة (١٢٨٢ م)(٣).

---

(١) منتخبات من كتاب عقد الجمان لبدر الدين العيني ، في كتاب R. H. C., t. II, partie Ière ص ٢٢٥ ، ٢٣٦

(٢) Frederick, p. 98 - Deschamps, p. 226 - Grousset, t. III, p. 689

(٣) ابن تغري بردي ، ج٧ ص٣١٦ حاشية٢ - Stevenson, p. 348 ، وراجع تفاصيل المغامرة في: Michaud, Histoire des Croisades, vol. IV, Paris, 1822, p. 650 – Grousset, t. III, p. 689 - 690 رنسيمان ، ج ٣ ص ٦٥٨ وما يليها

وفي نفس الوقت قام صراع بين هيو الثالث ملك قبرص وبيت المقدس وبين الداوية ، وساعدت هذه الخلافات والحروب الأهلية على زيادة اضمحلال إمارات الفرنج ، ومهدت السبيل أمام سلاطين المماليك منذ أيام المنصور سيف الدين قلاوون للتغلب عليهم وطردهم نهائياً من بلاد الشام .

وكان قلاوون منذ توليه السلطنة يحرص على مهادنة الصليبيين حتى يؤمن ظهره عندما يتفرغ لرد العدوان المغولي على الشام ، ولذلك لم يتردد في الموافقة على تجديد الهدنة بينه وبين فرسان الإسبتارية بعكا في ٢٢ من المحرم سنة ٦٨٠ هـ (٣ مايو سنة ١٢٨١ م) ، وبينه وبين بوهمند السابع لمدة عشرة سنوات كاملة . وفي ٥ ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ (٣ يوليو ١٢٨٣ م) عقدت الهدنة بين قلاوون وولده الصالح علاء الدين علي وبين حكام مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها وهم كفيل المملكة بعكا السنجال أودو Le Sénechal Odo Poilechien وكان يحكم نيابة عن الملك شارل الأنجوي Charles d'Anjou [1] ، ثم « المقدم إفرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية ، والمقدم افرير نيكول للورن (Frère Nicolas Le Lorgne) مقدم بيت الاسبتار والمرشان إفرير كورات نائب مقدم الإسبتار » [2]. ونصت الهدنة على أن « صيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصاً للفرنج ويكون لها من البلاد خاصاً خمس عشرة ناحية ، وما في الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين ومنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم يكون خاصاً لهم وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان ولولده بكمالها » . واشترط قلاوون في الهدنة على ألا يقوم الفرنج بتجديد سور ولا قلعة

(١) E. J. King, The Knights of Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, p. 284 - Stevenson, the Crusaders, p. 346

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٨٦ - القلقشندي ، ج ١٤ ص ٥٢ - محيي الدين ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٤

ولا برج ولا حصن قديم ولا مستجد في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث[1]. وفي سنة ١٢٨٩ تجددت الهدنة بين قلاوون ومملكة بيت المقدس وقبرص بعد أن اعتذر هنري لاشتراك المنظمات الدينية العسكرية في نقض الهدنة ، ولكن فرنج عكا نكثوا الهدنة عندما قتلوا جماعة من تجار المسلمين كانوا قد قدموا الى عكا بمتاجر تمسكاً بالهدنة والعهد ومن جملتهم تجار قدموا في البحر ومعهم طائفة من المماليك أرسلوا هدية الى السلطان[2]. ويذكر رنسيمان أن تجديد الهدنة بين الملك هنري وقلاوون أعاد بعض الثقة في عكا ، فعاد التجار المسلمون يمارسون تجارتهم في اطمئنان ، وبدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم من جديد الى الساحل ، كما توافد المزارعون المسلمون بمنتجاتهم الى أسواق عكا . وحدث أن وصل في هذه الآونة محاربون صليبيون جدد في صيف عام ١٢٩٠ م يمثلون شراذم من رعاع الفلاحين والمتعطلين قدموا من لمبارديا وتسكانيا ممن تطلعوا الى المغامرة وعرفوا بالعربدة والإخلال بالنظام . فأثاروا بقدمهم الارتباك والفوضى في عكا ، وأخذوا يهاجمون تجار المسلمين ، وانطلقوا في الشوارع يذبحون كل من وجدوه منهم ، وعندما بلغت أنباء هذه المذابح الوحشية مسامع السلطان ، غضب وصمم على القضاء نهائياً على إمارات الفرنج في الشام[3] ، ثم أصدر أمره بتجهيز الجيوش وآلات الحصار ، ولكنه توفي في سنة ١٢٩٠ وخلفه ابنه الأشرف خليل الذي وعد بإنفاذ الحملة التي أعدها أبوه .

(ب) الأشرف خليل يسترد صيدا ويدمر تحصيناتها في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) :

رأينا أن الصليبيين نقضوا الهدنة ورفضوا أن يسلموا المتسببين في ذلك

---

(١) ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق ، ص ٤١ - المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٩٨٥ وما يليها

(٢) صالح بن يحيي ، ص ٢٢

(٣) رنسيمان ، ج ٣ ص ٦٩٢

الأمر الذي حمل السلطان المنصور قلاوون على القيام بتعبئة جيوشه بهدف القضاء على بقايا الإمارات الصليبية في الشام، ولكنه توفي قبل أن يشرع في إنفاذ الحملة، وعندما اعتلى ابنه الأشرف خليل دست السلطنة قضى الشهرين الأولين في توطيد ملكه ثم تحرك على رأس حشوده في مارس ١٢٩١ وقد زودها بكل آلات الحصار والقتال، ووصلت قواته أمام أسوار عكا (في ٥ أبريل) التي وجه إليها أولى ضرباته، ونجح في الاستيلاء عليها في ١٧ جمادى الآخر سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو سنة ١٢٩١ م).
ويسجل سقوط عكا المركز اللاتيني المنيع نهاية استعمار الفرنج للشام، وقاتل فرسان الداوية والاسبتارية قتالاً ضارياً، ولكن مواقعهم الأخيرة لم تلبث أن سقطت في أيدي المسلمين في أقل من ثلاثة أشهر، وفكر الداوية في نقل مركز المقاومة إلى صيدا حيث لجأ إليها نفر من الداوية نجوا من مذابح عكا مع قائدهم ثيبوت جودان وطائفة قليلة من المدنيين، وحمل ثيبوت معه كنوز الداوية وأموالهم وذخائرهم. واختير ثيبوت في صيدا مقدماً لجماعة الداوية بدلاً من المقدم جيوم دي بوجيه الذي سقط صريعاً في الهجوم الأخير الذي شنه المسلمون على عكا في ١٨ مايو. وبينما كان المماليك يدمرون عكا ويخربون أسوارها وتحصيناتها ويسوونها بالأرض، كانت قوات الأشرف خليل بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي تسير نحو صيدا، وفكر الداوية بادىء ذي بدء في الدفاع عن صيدا التي كانت جزءاً من أملاكهم، وكان المقدم الجديد ثيبوت جودان قد تحصن فيها ومعه كنوز الداوية، وتجمع فيها الناجون من مذابح عكا. وعندما وصلت طلائع القوات المملوكية خرج الأهالي من المدينة وتحصنوا مع الداوية في قلعة البحر، ومن هناك ركب ثيبوت جودان سفينة حملته الى قبرص بعد أن وعد إخوانه والأهالي المحصورين بأنه سيعود بإمدادات تعينهم على الصمود، وطال انتظار المدافعين عن القلعة لهذه الإمدادات دون جدوى، في الوقت الذي أخذ علم الدين سنجر يقيم رصيفاً بين البر والقلعة للوصول إليهم، وعندئذ يئس المدافعون عن القلعة والحامون لها من الداوية والأهالي من قدوم أي مدد، وركبوا في ليلة حالكة الظلام

سفنهم الى قبرص ، وعلى أثر ذلك استولى المماليك على قلعة البحر المهجورة في ١٥ رجب سنة ٦٩٠هـ (١٤ يوليو ١٢٩١) ودمروا تحصيناتها[١] .

وفي فتح صيدا على أيدي المماليك يقول المقريزي : « وفتحت صور وحيفا وعثليث وبعض صيدا بغير قتال ، وفر أهلها خوفاً على أنفسهم ، فتسلمها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في بقية جمادى الأولى ، فقدمت البشائر بتسليم مدينة صور في ١٩ جمادى الأولى ، وبتسليم صيدا في العشرين منه ، وأن طائفة من الفرنج عصوا في برج منها (المقصود به قلعة البحر) فأمر السلطان بهدم صور وصيدا وعثليث وحيفا »[٢] . وفي موضع آخر يقول : « وكان الأمير سنجر الشجاعي نائب الشام قد سار في رابع رجب الى صيدا ، وحاصر البرج حتى فتحه في ١٥ ، وعاد الى دمشق يوم رحيل السلطان منها »[٣] .

ويشير شيخ الربوة الدمشقي الى أن فتوح الأشرف خليل لعكار وعثليث وحيفا واسكندرونة وصور وصيدا وبيروت وجبيل وأنفة والبترون وصرفند استغرقت ٤٧ يوماً[٤] . ويجمع مؤرخو العرب على أن السلطان الملك الأشرف خليل أمر بهدم هذه المدن جميعاً بعد أن دخلتها جيوش المسلمين ، فهدمت[٥] . وهكذا تحولت صيدا مرة أخرى الى خرائب ، ومن المعروف أن سلاطين الأيوبيين[٦] والمماليك كانوا يحرصون

---

(١) Deschamps, p. 227 - Grousset, t. III, p. 762 – رنسيمان ، ج ٣ ص ٧١١

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٦٥ ، ٧٦٦

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٦٩ – ابن كثير ، ج ١٣ ص ٣٢١ – ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ، ج ٨ بيروت ١٩٣٩ ص ١١٣ ، ١٢١

(٤) شيخ الربوة الدمشقي ، كتاب نخبة الدهر ، ص ٢١٣

(٥) ابن كثير الدمشقي ، ج ١٣ ص ٣٢١ – أبو الفداء ، المختصر ، ج ٧ ص ٣٢ – ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٢١ – المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٧٦ – الذهبي ، ص ١٥١

(٦) سبق للملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق أن أرسل الحجارين والنقابين الى =

على تدمير التحصينات الساحلية بوجه خاص حتى لا يهيئوا المجال بتركها سليمة دون هدم للصليبيين معاودة الاستيلاء عليها والتحصن فيهـــا من جديد ، وهو تقليد بدأه عمرو بن العاص عندما خرب سور الاسكندرية بعد أن عانى كثيراً من الصعاب في استردادها سنة ٢٥ هـ من أيـــدي الروم الذين كانوا قـــد انتقضوا على المسلمين وتحصنوا فيها[١] . وكان الأشرف خليل إذ أمر بهدم أسوار هذه المدن مدفوعاً بخوفه من أن يعاود الصليبيون الذين فروا الى جزيرتي قبرص وردوس وضع أقدامهم على الساحل . وعندما أعيد بناء مدينة طرابلس في نيابة أسندمر كرجي اختيرت المدينة الجديدة في موضع داخلي لتصبح مدينة ذات حاميـة ، وحدث نفس الشيء بالنسبة لصيدا ، فقد وكل الأشرف بحراسة الساحل من زاوية اطرابلس حتى صيدا الى بعض عشائر التركمان والمسلمين تحوطاً من عودة الافرنج الى هذه الجهـة واستئناسهم نصارى لبنان ، فتكون تلك العشائر فاصلة بين الفرنج والنصارى الوطنيين[٢] .

وأول من تولى على صيدا وبيروت في أول الفتوحات الأشرفية وال يقال له الدمياطي[٣] ، ثم توالى عليها الولاة بعد ذلك .

= القدس ، فخرب أسوارها خوفاً من أن يقصدها الفرنج فلا يقدر على منعهم (أبو الفداء ، ج ٦ ص ١٨) . كذلك خرب المسلمون أسوار دمياط في شعبان سنة ٦٤٨ هـ لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى وأسسوا مدينة في البر سموها المنشية (نفس المصدر ، ص ٨٨) . وعندما افتتح قلاوون مدينة طرابلس أمر بها فهدمت ودكت الى الارض سنة ٦٨٨ (نفس المصدر ص ٢٩) ، ونلاحظ أن مدينة صيدا خربت أكثر من مرة في العصر الايوبي منذ أن استولت عليها قوات صلاح الدين في سنة ٥٨٢

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٠ - ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ ص ٢٣٥ - المقريزي ، ج ١ ص ٢٦٠ - السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصر ١٣٢١ هـ . ج١ ص٧٨

(٢) الدبس ، ج ٦ ص ٣٠٨ - Ira Marvin, p. 16 - Lammens, t. II, p. 17

(٣) صالح بن يحيى ، ص ١٠٤

(٢)

وضع صيدا الإداري والاقتصادي

(أ) الوضع الاداري :

أصبحت صيدا منذ أن دخلتها جيوش المماليك ولاية جليلة يتولاها أمير طبلخاناه أحياناً ، وأمير عشرة أحياناً أخرى ، وكان بقلعتها بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين[١] . وكانت ولاية صيدا من أعمال نيابة دمشق ، شأنها في ذلك شأن بيروت ، وكانت ولاية صيدا نفسها تضم أعمالاً واسعة[٢] ، وقد أشار غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري إلى أهمية صيدا في عصره (عصر المماليك الشراكسة) ، فذكر أن مدينة صيدا ميناء دمشق « وهي مدينة لطيفة على شاطئ البحر المحيط ، ترد إليها المراكب ، ولها اقليم به ما ينوف عن مائتي قرية ، وهي أيضاً من معاملة دمشق »[٣].

وكان والي صيدا يتولى منصبه بموجب توقيع بولايته يصدر من نائب السلطنة بدمشق ، وقد أورد القلقشندي نص نسخة منه تضمنت أسباب اختياره لذلك المنصب والأعباء والمهام الملقاة على عاتقه ، كالتمسك بالعدالة والحرص الزائد في تلقف الأخبار ، وتفقد أحوال إقليم صيدا بره وبحره ، واعتماد مصالح السكان ، وإدارة الشؤون المالية والديوان ، والجمع في المعاملة بين سياسة اللين والشدة . وفيما يلي نص هذه النسخة : « رسم بالأمر

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٢ – Gaudefroy - Demombynes, La Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923, p. 183

(٢) شيخ الربوة الدمشقي ، نخبة الدهر ، ص ٢٠١

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول راقيس ، باريس ١٨٩٤ ص ٤٧

العالي — أنفذه الله في الأقطار ، ونجم بولاتـه أيام الأوطان والأمطار ، وأجرى بشكره سفن الركائب وركائب السفن إذا سف وإذا طار ، أن يستقر فلان ... ركوناً إلى عزمه وحزمه ، وسكوناً إلى اهتمامه الذي حكم فيه ، والاختبار بعلمه ، وعلماً أن للولايات بـه الانتفاع ، ولحصونها الامتناع والارتفاع ، وأنه إذا ولي رعى ، وإذا أقوي كان أعصم راع ، وإذا فكر في الرأي ووقب في المهم كان نعم الشجـاع . فليباشر ولاية عمله ، ناهضاً بأعبائه ، رافعاً بالعدل لأرجائه ورجائه ، حريصاً على طيب الأخبار المنتشرة من كافور صبحه ومسك مسائـه ، وليتفقد أحوال بره وبحره ، ويتيقظ لذلـك البر وجهره ، وذلك البحر وسره حتى يتحدث البحر عن عزمه ولا حرج ، ويسير ذكره كنسيم الروض لا ضائع الصنع ولكن صنائع الأرج ، ويعتمد مصالح النواحي وسكانها ، والأموال ودبوانها ، والجهات وضمانها ، ونجوم التقسيطات في البلدة ، وتحرير ميزانها ، ويجمع بين اللين والشدة لسياسة لا يخرج بها الرأي عن إبانها ، وتقوى الله تعالى هي العمدة فعليها يعتمد ، وعلى ركنها يستند ، حتى تجعل له على المصالح أيداً ، وحتى تثني نحو الثناء عليه عمراً وزيداً ، وحتى تجعل له بأساً في الأعداء يكيد كيداً ، وحسن ذكر في البلد يصيد صيداً »[1].

ولم يصلنا من أسماء ولاة صيدا في العصر المملوكي إلا عدد قليل جاء ذكرهم عرضاً في صفحات المصادر ، على أن ولاة صيدا كان معظمهم من أمراء الغرب من بني بحتر ، وكانوا يجمعون عادة بين ولاية بيروت وصيدا ، وفيما يلي بعض أسماء هؤلاء الولاة :

١ — **الدمياطي** : وقـد تولى بيروت وصيدا بعد فتح صيدا على يد الأشرف خليل في سنة ٦٩٠ هـ ، ويبدو من اسمـه أنه ينتسب إلى مدينة دمياط التي كانت على اتصال وثيق بصيدا في العصر الإسلامي ، وقد عهد

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٣٣٣ — ٣٣٤

إليه الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بعمارة الجسر الخراب القائم على نهر الدامور أثناء مروره ببيروت . ولكن هذا الجسر سرعان ما تخرب بعد عمارته بثلاث سنوات على أثر سيل جارف ، وظل خرباً إلى أن قام الأمير سيف الدين تنكز بعمارته ، فعمر ، ثم تخرب من جديد بسبب السيول التي جرفت مياهها معظم حجارته إلى البحر ، كما انهار جانبه القبلي . وعمد والي صيدا ناصر الدين الحسين في سنة ٧٤٥ هـ الى الاستعانة في ترميم وإعادة بنائه بمهندس طرابلس المشهور في الأعمال الساحلية أبي بكر بن البصيص البعلبكي[١] .

٢ — **سيف الدين تنكز** : وقد سبق أن رأيناه يتولى ترميم جسر نهر الدامور فيما يقرب من سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

٣ — **الأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين خضر** : كان والياً على الغرب بما فيه صيدا ، وقد اشترك ناصر الدين في الحملة التي توجهت إلى الكرك في سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢م) لمحاصرة السلطان الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون[٢] .

٤ — **الأمير بهاء الدين داود بن علم الدين سليمان (ت ٨٠٣)** : اشترك مع تنكز بغا نائب بعلبك وكاشف على صيدا وبيروت في الحملة التي جردها السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق لمحاربة تيمورلنك عندما غزا بلاد الشام في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ، وقد فقد الأمير بهاء الدين داود في جملة المفقودين عندما فرت جيوش السلطان قبل لقاء جيوش تيمورلنك (٣) .

٥ — **الأمير عساف الحبشي** : كان نائباً على بيروت وصيدا في زمن

---

(١) صالح بن يحيى ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٩

السلطان محمد بن قايتباي ، وقد قتل في ١٥ ذي الحجة سنة ٩٠١ هـ[١] (١٤٩٥ م) في نفس العام الذي ارتقى فيه السلطان الناصر محمد أبو السعادات ابن قايتباي على دست السلطنة ، وكان الأمير عساف المذكور من مشاهير الولاة .

٦ – **ناصر الدين محمد بن الحنش** : كان والياً على صيدا والبقاعين في زمن السلطان قانصوه الغوري منذ سنة ٩١٧ هـ (١٥١١ م) حتى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، وتسجل هذه السنة خروجه على السلطان العثماني سليم الأول ونبذه لطاعته ، فاستولى جان بردي الغزالي نائب الشام على صيدا ، وفر ابن الحنش . وتمكن جان بردي من القبض على العصاة أتباع ابن الحنش وعلى رأسهم الأمير زين الدين والأمير قرقماس والأمير علم الدين سليمان ثم أرسلهم إلى صور ، فقلعة صفد فقلعة دمشق ومنها إلى قلعة حلب . ولما قتل ابن الحنش بعد ذلك أطلقهم الغزالي[٢].

٧ – **محمد ابن قرقماس** : تولى على بيروت وصيدا والتقدمة على البقاع من قبل السلطان سليم[٣].

* * *

وكانت صيدا من الناحية الإدارية أيضاً ، رغم كونها مجرد ولاية ، من أهم مراكز نقل الثلج من دمشق الى دمياط بحراً في العصر المملوكي ، وكان الثلج ينقل بعد وصوله إلى دمياط « من مراكب بحر الملح الى مراكب بحر النيل ، ثم يأتي به إلى بولاق ، ثم ينقل على البغال إلى الشرابخاناه الشريفة ، وتخزن في صهريج »[٤] ، وظلت صيدا مركزاً رئيسيا لشحن

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج ١ ص ١٦٧ ، ٣٦٧ – الدبس ، ج ٦ ص ٥٦

(٢) الشدياق ، ج ١ ص ٢٩٣ ، ج ٢ ص ٣٠٣

(٣) ابن طولون ، قسم ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧

(٤) ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧

الثلوج إلى مصر حتى أيام السلطان الملك الظاهر برقوق، وفي عهده استخدم الطريق البري بدلاً من البحري، وأصبح الثلج يحمل من دمشق براً على الهجن في الفترة ما بين حزيران إلى آخر تشرين الثاني مـــا يقرب من إحدى وسبعين نقلة، وكان يجهز مع كل نقلة بريدي بيده تذكرة وبرفقته ثلاج خبير بحمله ومداراته (١).

كذلك كانت صيـــدا مركزاً هاماً من مراكز بطائق الأبراج الخاصة بالحمام في العصر المملوكي، وكان الخلفاء الفاطميون أول من اعتنوا من حكام مصر بالحمام الزاجل، وبالغوا في ذلـــك حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام، ثم نهج نور الدين زنكي نهجهم في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)، وكانت بصيدا عدة أبراج ومراكز حمام لها برّاجة وخدام متخصصون، وأقفاص وأبغـال للتدريج، ومرتبات وأرزاق، لتصدير الأخبار متصلة ساعة بساعة، مع دمشق من جهـــة وبيروت وتربلة وطرابلس من جهة ثانية (٢).

ولما كانت صيدا مركزاً لبطائق الأبراج الخاصة بالحمـام، كانت أيضاً مركزاً بريدياً هاماً، فكانت تمتد من دمشق عدة طرق بريدية تصل إلى صفد وجزين وصيدا وبعلبك. أما طريق صيدا فكان ينتهي إلى بيروت، في حين كان طريق بعلبك يمر بالزبـداني وبورا وينتهي ببعلبك (٣)، وفي كل من هذه المواضع كانت تقام محطات لا تعدو أن تكون خانات ونزل للبريديين. ومن أمثلة الخانات الباقية خان دنون الواقع بين دمشق ودرعة، ويتوسط الخان صحن فسيح تدور بـه بائكة تنفتح على الصحن، وتطل عليها أروقة ذات قبوات متصلة، ويكتنف جدران الخان في الأركان

(١) ابن شاهين، ص ١١٨

(٢) نفس المصدر، ص ١١٧

(٣) نفسه، ص ١١٩، ١٢٠ – Ira Marvin, Muslim cities, p. 12 - Gaudefroy Demombynes, op. cit. p. 246

أبراج نصف أسطوانيـة بينما يتوسط الجانب الغربي برج نصف دائري . ويرجع إنشاء هذا الخان إلى السلطان الملك الأشرف شعبان الذي أقامه في سنة ٧٧٨ هـ ، وباشر البناء فيه علي بن البدري « مهندز الشام »(١)

(ب) اضمحلال العمران في صيدا :

اضمحلت صيدا في عصر المماليك اضمحلالاً يشهد به الرحالة والجغرافيون الذين كتبوا عنها في هذا العصر ، وترجع أسباب هـذا الاضمحلال الى ما يأتي :

١ ــ الضربات الشديدة التي تعرض لها العمران الصيداوي منذ أن استردها صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٣ هـ حتى بـداية العصر المملوكي ، ومن المعروف أن هذه الضربات كان يوجهها إليها إما المسلمون في الفترة التي خضعت فيها صيدا للصليبيين ، أو الصليبيون في الفترة التي خضعت فيها للمسلمين ، وفي حالة واحدة تعرضت المدينة لغارة تأديبية انتقامية شنها المغول بقيادة كيتبغا نويان ، وقد أدت هذه الضربات المتتالية الى تدمير الأسوار وانحسار العمران وتقلصه بسبب نزوح كثير من سكان المدينة عنها الى مدن ساحلية أكثر حصانة ومنعة مثل صور وعكا ، أو الى مدن داخلية أكثر أمناً مثل دمشق وبعلبك .

٢ ــ غارات الجنوية والقبارصة على ساحـل صيدا منذ طليعة القرن الثامن الهجري ، وسنتحدث عن هذه الغارات بالتفصيل عندمـا نتعرض لدراسة الأحداث الهامة في صيدا في العصر المملوكي .

٣ ــ الفناء الكبير الذي نكب به العالم فيما بين عامي ٧٤٢ ، ٧٥١ هـ (١٣٤١ ، ١٣٥٠ م) ، وبلغ ذروته في الأقطار الإسلامية في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، وقد كانت صيدا وسائر مـــدن الساحل بوجه خاص من

---

(١) J. Sauvaget, un relais du Barid Mamelouk, dans Mélanges Gaudefroy - Demombynes, 1935, Le Caire, p. 24 - 45

أكثر المدن الشامية تعرضاً لهـــذا الوباء، ويشير ابن الوردي الى ذلك بقوله: «ثم طوى (الوباء) المراحل، ونوي أن يحلق الساحل، فصاد صيدا وبغت بيروت كيدا»[1].

٤ – عدم صلاحية مينائها الشمالي لإرساء السفن الكبيرة بسبب كثرة الرواسب الرملية، وعدم اهتمام الولاة بتطهير هذا الميناء وتوسعته، وقصر استخدامه على سفن الصيد والمراكب التجـــارية الصغيرة[2] الأمر الذي أدى الى حصر النشاط التجاري الخارجي في صيدا الى أضيق نطـاق، واقتصاره على المجال الداخلي.

وهكذا تضامنت هذه العوامل جميعاً فيما بينهـا على اضمحلال صيدا عمرانياً وبالتالي اقتصادياً، وكان وصف الإدريسي لهـــا في سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) آخر وصف لها يعبر عن عظمتها، إذ أن ما وصفها بـــه الرحــــالة والجغرافيون في الفترات اللاحقة كان يعبر عن طبيعة هذا الاضمحلال الذي شملها كما شمل غيرها من مدن الساحل، في الوقت الذي ظهرت فيه بيروت بصفة خاصة كميناء رئيسي لبـــلاد الشام[3]: فأبو الفداء الذي وصف صيدا في سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) يقول: «تقع على البحر وهي مدينة صغيرة حصينة»[4]، ووصفها ابن بطوطة بعد ذلك بعدة سنين بقوله: «وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت الى مصر»[5]. وذكر الرحـــالة لودولف السدهيمي الذي زارها فيما يقرب من هذه الفترة، بأنها «مدينة ساحلية تحيط بها أبراج وأسوار مرتفعة ولكنها مهجورة»[6]. وذكر القلقشندي

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) Rey, les Colonies franques de Syrie, p. 520

(٣) منير الخوري، ص ١٨٥

(٤) Marmardji, p. 126

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، طبعة صادر، ص ٦٢

(٦) Frederick, p. 103

أنها مدينة تقع على ساحل بحر الروم ومزودة بقلعة منيعة لا ترام[1] . أما جون بولونر الذي زار الأراضي المقدسة في عـام ١٤٢١ — ١٤٢٢ ، فقد أشار الى أنها « مدينة فينيقية تشهد خرائبها في الوقت الحـاضر بعظمتها ، وخارج أطلالهـا بنيت مدينة أخرى صغيرة حقاً ولكنها حصينة ، وينقصها الرجال للدفاع عنها »[2] . وعندما زار طافور مدن الساحل اللبناني لم يذكر اسم صيدا وإنما ذكر الرملة ويافا وبيروت وصور وعسقلان وعكا[3] .

ونستنتج مما سبق ذكره أن صيدا لم تبق طويلاً بدون أسوار منذ أن افتتحها المسلمون في سنة ٦٩٠هـ وخرب الأمـير علم الدين سنجر الشجاعي أسوارها وتحصيناتها ، فقد أعيد بناؤها من جـديد وجددت تحصيناتها ، وأضيف إليها في زمن لاحق ، وهو أمر أشار إليه أبو الفداء وابن بطوطة ولودولف والقلقشندي وجون بولونر ضمناً في وصفهم للمدينة ، وسنتحدث عن آثار التحصينات الإسلامية عند تعرضنا فيما بعد لدراسة مظاهر اهتمام المماليك بتحصين صيدا .

وظلت صيدا على الرغم من تجديد بناء حصونها وأسوارهـا مدينة قليلة الأهمية ، وعندما زارها سنديس في سنة ١٦١٠/١٦١١ م كانت تبدو مدينة فقيرة[4] ، ولم تنتعش صيدا وتتألق من جديد إلا منذ أن اتخذها الأمير فخر الدين المعني الثاني قاعدة لإمارته على النحو الذي سنشير إليه بعد ذلك .

(ج) الوضع الاقتصادي :

كانت صيدا في العصر الفاطمي مدينة زاهرة عمرانياً واقتصاديـاً ،

---

(١) القلقشندي ، ج ٤ ص ١١١ (٢) Frederick, p. 103

(٣) طافور ، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة الدكتور حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣

(٤) Frederick, p. 104

وكان أهلها من اليسار والـثراء بحيث كان في إمكانهم شراء حرياتهم واستقلالهم بالأموال التي يبذلونها سواء لطغتكين أو لبلدوين ، وليس من شك في أن هذه الثروات الطائلة التي كانت تتدفق على مدينة ذات ميناء أو بمعنى أصح ذات موانىء ثلاث لا بد أن يكون مصدرها قيام نشاط تجاري واسع النطاق . غير أن حياة صيدا الاقتصادية لم تلبث أن مرت بتجربة قاسية إذ تأثرت بالنكسة العمرانية التي أصابتها منذ أن أخذت قوات المسلمين والصليبيين تتناوب حكمها أكثر من ثلاث مرات ، وفي كل مرة كانت أسوار المدينة ومنشآتها تتعرض للتدمير والتخريب الأمر الذي أثر على الوضع الاقتصادي في المدينة ، فساعد على تدهور التجارة والزراعة والصناعة منذ العهد الصليبي حتى الفتح العثماني . ومع ذلك فإن اضمحلال عمران صيدا لم يتضح تماماً في زمن ابن بطوطة الذي يذكر أنهـا كانت تصدر التين والعنب وزيت الزيتون . ونستنتج مما كتبه جاك دي فتري في القرن الثالث عشر الميلادي أنه كانت تتوافر في صيدا أشجار الفاكهة والكروم وغابات وحقول وأرض محروثة . ويحدثنا بولونر عن زراعـة قصب السكر والكروم الجيد[1] . ولا شك أن الفاكهة ولا سيما الحمضيات كانت وما تزال تشكل الثروة الزراعية الرئيسية في صيدا المملوكية ، وكانت هذه الفواكه تصدر عادة الى مصر . وبالإضافة الى هذه المنتجات الزراعية المحلية لعبت صيدا دور الوسيط التجاري — ولكن في نطاق محدود — بين الشام ومصر ، فكانت تقوم بتصدير منتجات المناطق السورية الداخلية ، فمن دمشق نفسها كانت ترد الى صيدا الأواني الخزفية والتحف الزجاجية والمعادن والحلل الموشية والمنسوجات الحريرية الفـاخرة والشموع وبعض الدواب كالغنم والخيول[2] .

أما الصناعات فقد تدهورت نتيجـة لتدهور التجارة ، واقتصرت

---

(١) Frederick, p. 123

(٢) Ira Marvin, pp. 17 - 18

الصناعات فيها على صناعة السكر[1] ، كذلك استمرت صيدا في إنتاج الزجاج والخزف وهما صناعتان تقليديتان اشتهرت بها عبر التاريخ . على أن أهم صناعات صيدا التي اشتهرت بها في العصر الوسيط هي صناعة المنسوجات الحريرية ، ولكن جارتها صور فاقتها في هذا المجال ، وعرفت أوروبا المنسوجات الحريرية المصبوغة بالأرجوان الصوري التي كانت تصدرها صور في العهد الصليبي الى الآفاق ، وكانت سفن الجنوية والبنادقة التي تحمل حجاج المسيحية من أوروبا الى الأراضي المقدسة تعود موسقة بالمنسوجات الحريرية والتفتا الدقيقة التي كان الغرب يشتد في طلبها من صور وصيدا ، وطغى استعمالها الى دور البورجوازية والمصليات الكنسية ، وكانت الملونات الحريرية تغطي جدران المصليات ، واتخذت أعلاماً وأغطية للأسرّة ، أو شطفات تتدلى على النوافذ في أيام الاحتفالات والأعياد . ومع ذلك فقد كسدت هذه الصناعة نتيجة لهجوم المغول على صيدا ، وتخريب قلاوون لطرابلس وتدمير الأشرف خليل لكل من صيدا وصور ، وتوقف نشاط هذه المدن اللبنانية في هذا المجال قرابة قرن من الزمان[2] .

(٣)

غارات القبارصة والجنوية على صيدا
وأثره في اهتمام المماليك بإعادة تحصينها

(أ) غارات القبارصة على صيدا :

لم يؤد نجاح الأشرف خليل في طرد الفرنج نهائياً من أراضي الشام الى توقف الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين، بل كان ذلك الحدث من العوامل التي أججت نيران هذا الصراع وقوت من حدته ، فإن قوى

(١) نقولا زيادة ، مدن عربية ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٧٦

(٢) Maurice Chehab, Rôle du Liban dans l'histoire de la Soie, pp. 22 - 26

الصليبين بارتكازها في قبرص ورودس وأرواد باتت تشكل خطراً متواصلاً على السواحل المصرية والشامية . وكانت الاعتداءات الصليبية على سواحل الشام من العوامل الرئيسية التي دفعت نواب السلطنة في الشام الى تدمير أسوار المدن الساحلية وتخريبها حتى لا يتمكن المعتدون من احتلالها والتحصن فيها ، واتخاذها مراكز لتوجيه عدوانهم على بلاد الشام بغية تأسيس مستعمرات صليبية جديدة . وعلى الرغم من نجاح سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري في استرداد جزيرة أرواد في سنة ٧٠٢هـ[1] (١٣٠٢ م) بعد أن فتحها عنوة ، فقد ظل فرسان الاسبتارية الذين انتقلوا الى جزيرة قبرص بعد قيام الأشرف خليل بتحرير الأراضي الشامية من المستعمرات الفرنجية يهددون السواحل الشامية تهديداً مباشراً بغاراتهم المتواصلة منذ سنة ٧٠٢هـ التي سقطت فيها أرواد في أيدي المسلمين ، وساعد موقع قبرص الاستراتيجي الهام في قبالة الساحل السوري على تزايد الغارات الصليبية على موانىء لبنان بوجه خاص[2] . وإذا كانت طرابلس الشام هي أول مدن الساحل الشامي التي تعرضت لغارات الفرنج في شعبان سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨ م) فإن مدينة صيدا هي الأخرى كانت هدفاً رئيسياً للغارات البحرية القبرصية ، وكانت هذه الغارات أشبه بغارات القراصنة القصد منها السلب والنهب واختطاف الأهالي بغية المطالبة بفدياتهم .

وأول هذه الغارات التي شنها القبارصة غارة قام بها هؤلاء الفرنج على الدامور الواقعة إلى الشمال من صيدا في سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) في نفس العام الذي فتح فيه المماليك جزيرة أرواد ؛ ففي ٨ جمادي الأولي

---

(١) النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، نسخة مصورة من المخطوط محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ج ٣٠ ص ٤ – ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ج ٩ تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٠ – أبو الفداء ، المختصر ، ج ٧ ص ٥٧ – ابن تغري بردى ، ج ٨ ص ١٥٦

(٢) طرابلس الشام ، ص ٣٣٩

من هذه السنة نزلت جماعات مسلحة من الفرنج على نهر الدامور ، فاشتبك معهـا الأمير فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأخوه الأمير شمس الدين عبدالله مـع عسكر المسلمين في معركة انتهت بتغلب الفرنج وسقط الأمير فخر الدين صريعاً في حين وقع أخوه شمس الدين أسيراً في أيدي القبارصة ، فاستبقوه خمسة أيام ثم افتداه الأمير ناصر الدين الحسين ابن خضر متولي الغرب بمبلغ من المال قدره ثلاثة آلاف دينار صورية[١].

ولم يمض على هـذه الغارة أربعة أعوام حتى تعرضت مدينة صيدا نفسها لغارة بحرية عنيفة . ويذكر صالح بن يحيي أنه « في العشر الأخير من جمادي الأولى جاز على بيروت تعميرة للفرنج ، ولم يتعرضوا لها وتوجهوا إلى صيدا ، فأخذوها وقتلوا منها جماعة وأسروا جماعـة ، ونهبوا منها شيئاً كثيراً ، وكذلك المسلمين قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم إلى دمشق وعلقوا على القلعة ، فكانت بضع وثلاثين رأساً » . وبادر الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفـد بالسير إلى صيدا سابقاً عسكر دمشق ، ولكنه أدرك السفن الصليبية وهي راسية على جزيرة صيدا بعد انتهائها من الغارة ، فافتدى جميـع الأسرى من أموال ديوان الأسرى وقدرها ثلاثون ألف درهم افتدى بها ستين أسيراً[٢].

ويروي الدويهي (ت ١٦٩٩) عن ابن سباط أن مراكب الإفرنج قصدت صيدا في سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) وهاجموا المدينـة وقتلوا طائفة من أهلها وأسروا طائفة أخرى ، فقاتلهم أهل صيدا قتالاً شديداً وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ودمروا مركباً من مراكبهم ، واستنجد أهل صيدا بنائب دمشق ، فاحتشدت الأجناد من دمشق وصفد ووصلت بعد انتهاء المعركة ، وبادر المسلمون بافتداء الأسرى على أساس ٥٠٠ درهم لكل أسير ،

(١) الدويهي ، ص ١٦٠ – الشدياق ، ج ١ ص ٢٧٧
(٢) صالح بن يحيي ، ص ٢٩ – وينقـل الاستاذ يوسف مزهر التاريخ خطئاً فيؤرخ الغارة في ١٣٠٤ م بدلاً من ١٣٠٦ (مزهر ، ج ١ ص ٢٤٤)

وأنفقوا في ذلك مبلغاً قدره ٣٠ ألف درهم من مال ديوان الأسرى(١).

ويذكر النويري السكندري في مخطوطة الإلمام بما قضت بـه الأحكام أن ثلاثة أغربة قبرصية قدمت إلى ميناء أبي قير الواقعة الى الشرق من مدينـة الاسكندرية في فجر يوم ٢٧ شعبان سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) ، وأسر أصحابها من قصور البساتين ٧٦ من المسلمين مـا بين رجال ونساء وصبيان ، ومضوا بهم الى ساحل صيدا ، ففداهم أهل صيدا بمال وردوهم إلى أوطانهم(٢).

ثم توالت غارات القبارصة على صيدا منـذ سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) على نحو يكاد يكون متواصلاً : ففي هـذه السنة أغار ابراهيم بن الحبازة القبرصي أحد قواد القبارصة البحريين في غيبـة صاحب قبرص بغرابين وشيطي على بلدة الصرفند الواقعة على بعد ١٥ ك . م . جنوبي صيدا ، بنية خطف نسائها ونهبها ، ولكنه لم يخرج من هذه الغارة التي قتل فيها ثلاثين نفراً من أهل الصرفند إلا بعدد قليل من الأسرى يصل الى ١٣ أسيراً(٣). وقد أورد النويري تفصيلات عن هـذه الغزوة نقلها عن الشيخ عبدالله ابن نجم الصرفندي الذي رحل الى الاسكندرية بعد الوقعة المذكورة ، فذكر أن رجلين من أهل الصرفند تخاصما ، « فمضى أحدهما يشتكي الآخر من عند والي صيدا ، فلما كان في الليل ضرب البوق والزمر ، فظنت أهل البلد أن الرجل أتى بكبس الصرفند ، فخرجت أهـل البلد منه هاربين ، فبينما هم خارجين من البلد وإذا بالناس يصيحوا ارجعوا الى بلدكم ،

---

(١) الدويهي ص ١٨٣ – الدبس ، ج ٦ ص ٤٠٥

(٢) النويري السكندري ، الإلمام بما جرت بـه الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية المقيدة برقم ١٤٤٩ تاريخ ، محفوظـة بمكتبة آداب الاسكندرية برقم ٧٣٧ م ، ورقة ٧٢ ب ، ٧٣ أ

(٣) النويري ، المصدر السابق ، ورقة ٩٩ أ – ١٠٠ ب – Aziz Surial Atiya, The crusade in the later Middle Ages, London, 1938, p. 363 – سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٢٨

وقاتلوا عدوكم ، فإنما هم إفرنج . فرجعت الناس ، فهربت الفرنج بعد أن قتلوا من المسلمين ثلاثين نفراً ممن أدركوه في أزقة البلد وأسروا ثلاثة عشر منهم ثلاث نسوة وأربع صبيان وأربع بنات وطفلين على أكتاف أمهاتها ، ولم ينالوا من البلد شيئاً غير المأسورين المذكورين »[1].

وفي أواخر هذا العام خرج سنجوان دمرف القبرصي Jean de Morf عم بطرس الثاني دي لوزنيان بن هيو الرابع ملك قبرص (١٣٦٩—١٣٨٢) والوصي عليه ، في أربع بطسات وأغار على سواحل صيدا والبترون وأنطرطوس واللاذقية[2] .

ثم انقطعت غارات القبارصة على صيدا فترة طويلة استمرت نحواً من ستة وأربعين سنة (من ١٣٦٧ حتى ١٤١٣ م) ، وذلك بعد أن عقدوا الصلح مع السلطان المملوكي المنصور علاء الدين علي بن شعبان في سنة ٧٧٢ هـ (اكتوبر ١٣٧٠ م) . ثم عاودوا الغزو في سلطنة المؤيد شيخ (٨١٥ — ٨٢٤ هـ) رداً على غارات المماليك على قبرص في عامي ٨١٣ ، ٨١٤ هـ . ففي سنة ٨١٦ (١٤١٣ م) أغار القبارصة على بلدة الدامور الواقعة الى الشمال من صيدا في منتصف الطريق الى بيروت ، فبادر الملك داود الجركسي بالنهوض إليهم من دمشق ، وانضم اليه الأمير قاسم بن محمد بن أبي بكر بن حسين الشهابي أميروادي التيم ولبنان برجاله[3] ، والأمير سيف الدين أبي المكارم يحيى بن نور الدين صالح أمير الغرب ، وبادر لنجدتهم السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي نائب السلطنة بدمشق ، وكان على مدينة بعلبك ، فركب من وقته ووصل الى بلدة الناعمة[4] حيث يقع معسكر أمير الغرب ، وقاتل هو والأمراء الآخرين الفرنج بعد أن دخلوا في بلاد صيدا وبيروت وعاثوا فيها فساداً ، فتغلب عليهم وقتل منهم

---

(١) النويري ، المصدر السابق ، ورقة ١٠٠ أ

(٢) Aziz Surial Atiya, op. cit. p. 374 -- عبدالعزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٣٦٤

(٣) الدويهي ، ص ٢٠١ — الشدياق ، ج ١ ص ٤٧ ، ج ٢ ص ٣٠١

(٤) تقع في الطريق بيروت — الدامور — صيدا على مسافة غير بعيدة من خلدة

سبعين شخصاً[1] ، وأجلاهم في شوانيهم عن الساحل ، وفي ذلك يقول العيني :

له غزوات مع فرنج بساحل بصيدا وبيروت بعز تشيد[2]

وقد أدت هذه الغارة وغارات أخرى قام بها الكتيلان والقبارصة على سواحل يافا والاسكندرية في سنة ٨١٩ هـ (١٤١٧ م) ، واعتداؤهم على الاسكندرية من جديد في شعبان سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) وفي العام التالي ، الى قيام السلطان الملك الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ هـ) بالرد على هذه السياسة العدوانية رداً حـــاسماً ، ففكر جدياً في فتح جزيرة قبرص ، وبدأ في سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ م) بتسيير حملة استطلاعية تمهيداً لافتتاح الجزيرة المذكورة سماهـــا العيني الغزوة الصغرى[3] ، ثم سير في العام التالي أسطولاً يتألف من ٤٠ سفينة بقيادة الأمير جرباش الكريمي ، اشتركت فيه قوة تونسية من قبل السلطان الحفصي أبي فارس (ت ١٤٣٤) ، وأرست الحملة بالماغوصة ، وهزم المماليك القبارصة في عدة مواقع ، وعادت السفن المصرية الى قواعدها وهي تحمل ما يزيد على ألف أسير[4] . وتم فتح جزيرة قبرص في صيف سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م)[5] .

(ب) غارات الجنوية على صيدا :

أدى احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجاري في حوض البحر المتوسط الى قيام نزاع بينهم وبين الجنوية منافسيهم في التجارة البحرية ، وعمـد

---

(١) بدرالدين العيني ، السيف المهنـــد في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق الاستاذ فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٢٢٨ – ابراهيم الأسود ، ذخائر لبنان ، ص ١٨٥

(٢) العيني ، المصدر السابق ، ص ٤ – الشدياق ، ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢

(٣) نفس المصدر ، ج ٢٥ قسم ٣ من المخطوطة وعنوانها « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، ورقة ٥٧٢ – Ziada (M. M.), The Mamluk conquest of Cyprus, Bulletin de la Faculté des Lettres, Univ. d'Egypte, vol. I, partie 1 ère, Mai, 1933, p. 93

(٤) العيني ، ج ٢٥ قسم ٣ ص ٥٧٦

(٥) نفسه ، ص ٥٨٠ – Ziada, op. cit. p. 100 – طرابلس الشام ، ص ٣٩٠

الجنوية الى وقف هـــذا النشاط وعرقلته عن طريق شن الغارات على سواحل الشام ومصر ، وانضم الى الجنوية في هذه الغارات طوائف من قراصنة الكتيلان والروادسة والقبارصة ، وتعرض ثغر صيدا لاعتداءاتهم عدة مرات ، أولها في جمادى الآخرة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وذلـك عندما قام الجنوية بعملية إنزال على الساحـل الصيداوي ، واستولوا على المدينة ، وعاثوا فيهـــا فساداً ، وتمكنوا من الاستيلاء على بضع مراكب صغار ، ثم توجهت سفنهم بعد ذلك الى بـــيروت . وبلغ سيف الدين بيدمر الخوارزمي نائب السلطنة في الشام نبأ نزولهم في صيدا ثم خروجهم عنها الى بيروت فقال : « صيدا ما بقينا نلحقها ، نروح نلحق بيروت » ، فسار في حشوده الى بيروت في الوقت الذي وصلت فيه سفن الجنوية ، فأحجم هؤلاء عن النزول ، وعادت سفنهم الى قبرص[١] .

واستمر الصراع قائماً بين الجنوية والبنادقة حتى طليعة القرن التاسع الهجري ، ففي ٢٠ من المحرم سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٤ م) أغار الجنوية على بيروت في ٣٧ شيني و ٩ مراكب صغـــار بقيادة أمير البحر الفرنسي بوسيكو[٢] ، وتوجهوا في نفس الليلة الى جهـة صيدا ، حيث نزلوا الى البر على مسافة لا تزيد على ميل من المدينة ، وكان قد اجتمع على صيدا العشران[٣] وغيرهم ، ولم يجسر الجنوية على دخول صيدا لكثرة من احتشد فيها من جيوش المسلمين ، وكان شيخ الخاصكي نائب السلطنة في دمشق قد خرج منها في دورته بالبقاع وبعلبك ، فبلغـــه نبأ نزول الجنوية على

---

(١) القلقشندي ، مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، تحقيق الاستاذ عبد الستار أحمد فراج، الكويت ١٩٦٤، ج ٢ ص ١٨٨ – صالح بن يحيى ، ص ٣١ ، ٣٣ – الدبس، ج٦ ص٤١٥ –
Lammens, t. II, p. 19

(٢) Lammens, p, 19

(٣) العشران بمعنى الاحزاب مفردها عشير ، وقد اشتهر من العشران عشير البقاع وعشير صيدا وبيروت (راجع : عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ١٩٦٦ ص ٥٦ حاشية رقم ٢)

طرابلس ، فتوجه إليها ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان ، ثم مضى الى بيروت وقد خرج الجنوية منها الى صيدا ، فهاجمهم واشترك معـــه في الهجوم بنو بحتر أمراء الغرب ، فرماهم الجنوية بالجروخ ، وأصيب فرس الأمير شيخ ، كما أصيب جماعة من المسلمين ، واضطر الجنوية الى التراجع نحو سفنهم التي انسحبت من الشاطئ الى ميناء الجزيرة (الميناء الخارجي) ، وأقام المسلمون يراقبونهم طوال الليل على الساحل ، واستعد الأمير شيخ لتلقيهم في الصباح إذا عاودوا النزول الى البر ، وأمر بإحضار مصاريع الأبواب واتخاذها زحافات وستائر للزحف عليهم عند نزولهم ، ولكنهم أدركوا تأهب المسلمين لتلقيهم ومنـــازلتهم أحجموا عن النزول الى البر . واتجهوا بسفنهم الى شمال بيروت قاصدين نهر الكلب بقصد أن يتزودوا بالمياه ، ثم انسحبوا بعد ذلك الى سفنهم ، وعادوا من حيث أتوا الى بلادهم[1] .

(ج) اهتمام المماليك باعادة تحصين صيدا :

كان من أثر الغارات سالفــة الذكر على ثغر صيدا ، أن وجه نواب السلطنة في دمشق اهتمامهم على صيدا اهتماماً خاصاً بتحصين المدينة وترميم أسوارها وقلاعها تأكيداً للدفاع عنها ضد المغيرين من القبارصة أو الجنوية ، وقد رأينا فيما زودنا به الرحالة العرب والغربيين ما يدل على أن المدينة زودت بتحصينات هامة في العصر المملوكي ، ويتجلى الطـابع الإسلامي المملوكي في بعض القبوات المتعارضة في بهو البرج الكبير بالقلعة البرية ، وهي قبوات تقوم على دعــامتين من البناء قطاعهما مربع الشكل[2] . ونرى الأثر الإسلامي المملوكي واضحاً في الجانب الجنوبي الغربي من قلعة البحر ، ويتجلى ذلك بصورة لا تخفى على الباحث في البرج الرئيسي (أ) ، وهو برج كبير الحجم ذو طابقين ثم يعلوه سطح كان مشرف الذروة ثم

(١) صالح بن يحيى ، ص ٣٣ ، ٣٤

(٢) Deschamps, p. 229

فقدت هذه الشرفات مع ما تخرب من القلعة عندمـــا تعرضت للمدافع الانجليزية في سنة ١٨٤٠[١] .

ويبدو هذا البرج الضخم في وجهه القبلي المطل على المدينـة مدوراً بينما يبدو في الجهات الأخرى مستطيل الشكل ، وتنفتح في الطابق الاول

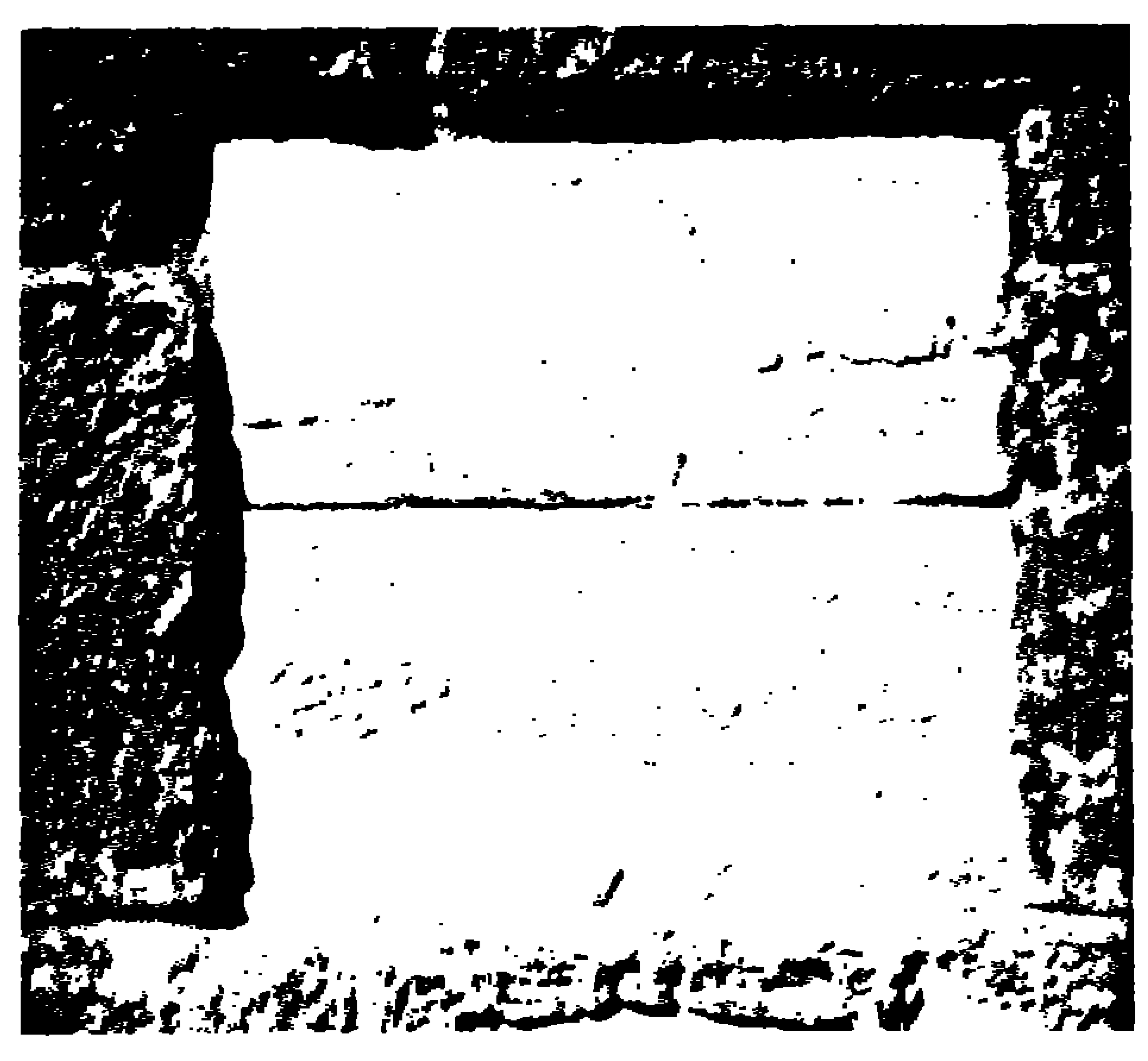


عقد النافذة البحرية بالبرج الاسلامي في قلعة البحر

منه في كل وجه من وجوهه نافذة معقودة بعقد منكسر الرأس ، ويتخلل وجوهه منافذ للسهام ، ويمكن للمرء أن يصعد من هذا الطابق الى الطابق الثاني عن طريق درج ضيق يدور في الجانب الشمالي منه . ويتمثل الاثر الإسلامي المملوكي في القبوات المتعارضة التي تكوّن سقوفه ، ونجد لهذه القبوات نظائر في سائر منشآت المماليك الحربية والمدنية ، كما يتمثل هذا الاثر الإسلامي في طابع منافذ السهام من الداخـل ، وفي العقود المدببة التي تعلو النوافذ المستطيلة الشكل لا سيا العقد ذي الوسائد المتصلة وهو

(١) أحمد عارف الزين ، ص ١٠٣

المعروف بالمخدد الذي يطوق فتحة النافذة الشمالية من البرج المـذكور ، وهو عقد تشاهد نماذج منه في بوابة الفتوح في القاهرة ، وفي مدخــل جامع الظاهر بيبرس ، ومدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير ونافذة مئذنة سنجر الجاولي في القاهرة ، وفي مئذنة جامع الامير سيف الدين طينال بطرابلس ومنظرة المدرسة الشمسية المطلة على مدخل الجـامع المنصوري الكبير بطرابلس(١) . ويؤكد الاثر الإسلامي الواضح للبرج نقش تاريخي على لوحة من الرخام الابيض صغيرة الحجم مثبتة بأعلى النافذة المذكورة بقلعة صيدا البحرية ، يتضمن عدداً من السطور الكتابية بالخط النسخي قرأتها بصعوبة شديدة بسبب اختفـاء ومحو كثير من الكلمات ، وتآكل الكتابة في السطر الاخير كله ، ونطالع في هذه اللوحة التذكارية النص الآتي :



النقش الكتابي التذكاري بقلعة البحر .

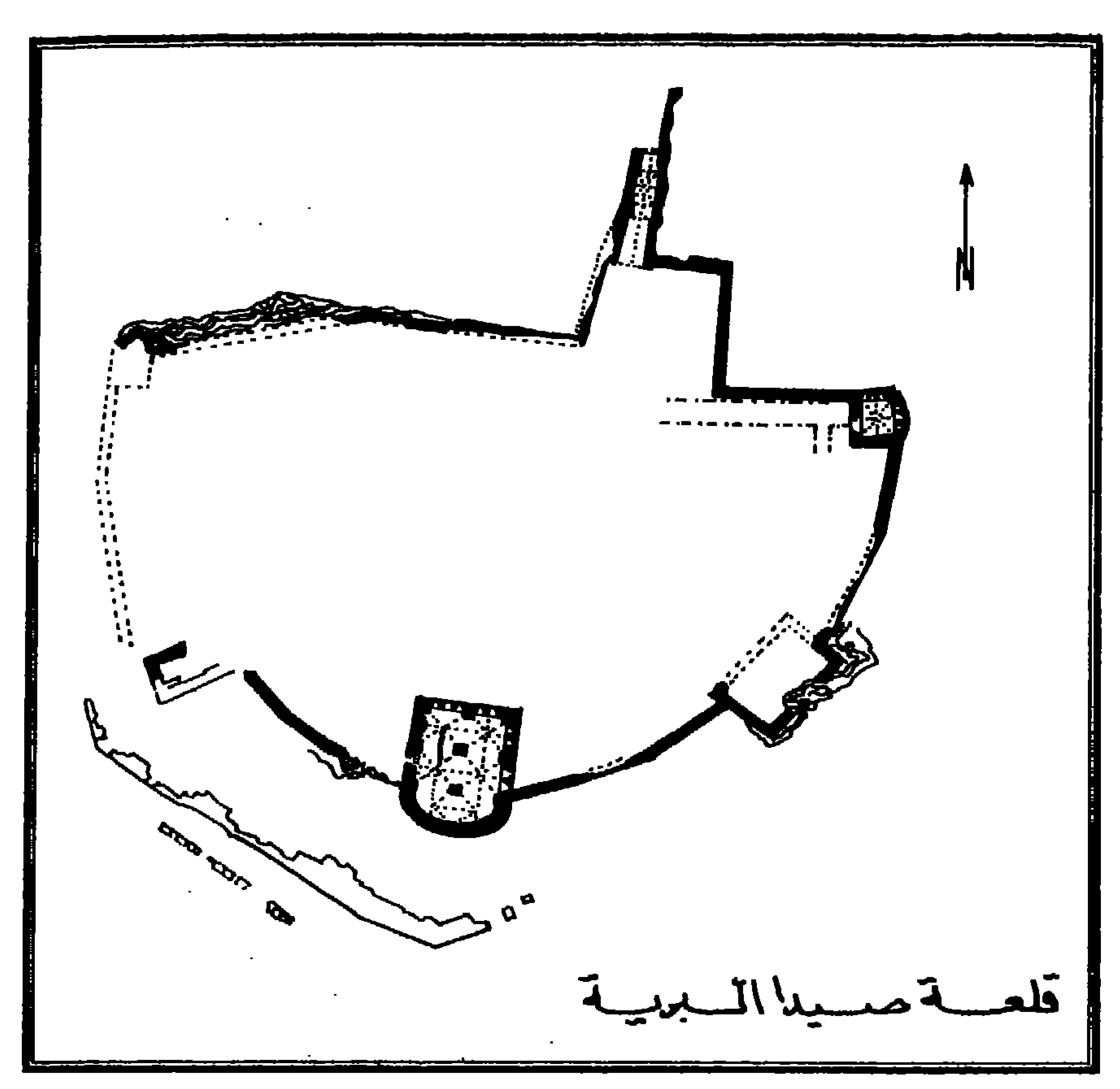
| (أ) بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا الحصن (ب) السعيد المقر الكريم العالي المولوي الإمامي العا (ج) دلي العالمي ... (د) جلبان الظاهري ... (هـ) أنصاره على نية الغزاة في سبيل الله تعالى في سنة اثنين (و) وخمسين (وسبعمائة) ... | .

---

(١) طرابلس الشام ، ص ٤١٩

ونستدل من الالقاب الواردة في النص المذكور على أن البناء أقيم في العصر المملوكي ، وأن منشئ الحصن هو الامير جلبان الظاهري الذي لا نعرف عنه شيئاً. وقد استطعنا أن نطالع بصعوبة بالغة الرقمين الاولين من تاريخ الإنشاء وهما اثنين وخمسين ، أما الرقم الثالث الذي يـدل على المئات ، ويقع في السطر الاخير من النقش فقد محيت معالمه ومعالم مـا بقي من كلمات النقش حتى نهاية السطر تماماً ، ولذلك كان علينا أن نفترض لتكملة التأريخ الإنشائي ثـلاث افتراضات نعني بها أرقام ستمائة وسبعمائة وثمانمائة . أما الافتراض الاول فنستبعده لان صيدا كانت في التاريخ الذي يسجله هذا الافتراض الاول وهو ٦٥٢ هـ ما تزال خاضعة للصليبيين ، ولهذا فإننا نحصر الاختيار بين ٧٥٢ ، و ٨٥٢ هـ . ويبدو لنا تأريخ ٧٥٢ هـ أكثر الافتراضين احتمالاً وذلك لعاملين : **الاول** ، أن معظم الرحالة العرب والاوروبيين الذين زاروا صيدا في القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي يؤكدون أن المدينة كانت حصينة ، بل ان القلقشندي المتوفي في سنة ٨٢١ هـ يؤكد أن المدينة كانت مزودة بقلعة منيعة لا ترام . **والثاني** ، أن صيدا شهدت في هذا القرن الثامن الهجري عصر الغارات القبرصية والجنوية المتواصلة التي استهدفت نهب المدينـة وتدمير منشآتها وقتل وأسر سكانها ، واستلزم الامر ضرورة ترميم القلاع والاسوار القديمة ، لا سيما القلعة البحرية التي تحمي الساحـل حتى تقوى المدينة على الصمود أمام الغزاة ورد المغيرين عليها . والرقم الثالث الذي افترضناه وهو (ثمانمائة) يجعل تأريخ انشاء الـبرج في سنة ٨٥٢ هـ أي بعد انتهاء عصر الغارات . وقد سبق أن أشرنا الى أن الاشرف برسباي استولى على جزيرة قبرص ، المركز الرئيسي للاعتداءات القبرصية والجنوية على سواحل مصر والشام ، في سنة ٨٢٩ هـ ، فيكون بناء البرج في سنة ٨٥٢ هـ قد جاء متأخراً للغاية .

وعلى هـــذا الاساس نرجح تأريخ سنة ٧٥٢ هـ ليكون تاريخ انشاء البرج المذكور . وعلى أساس صحة افتراضنا يمكننا أن ننسب الامــير



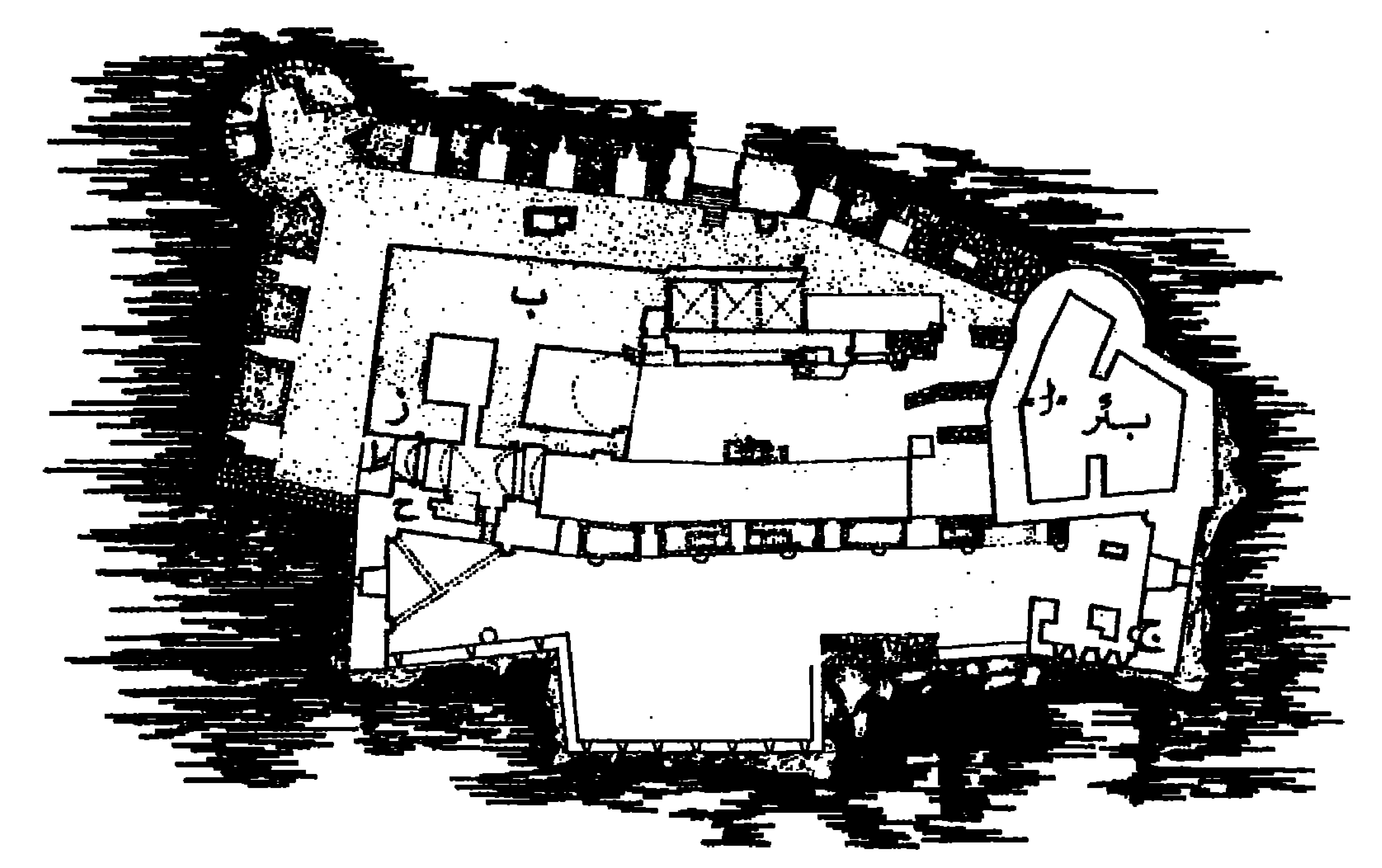
خريطة رقم ٣

جلبان الظاهري الذي ورد اسمه في النقش الى السلطان الملك الظـاهر ركن الدين بيبرس المتوفي سنة ٦٧٦ هـ .

أما الاسوار الباقية ، فقد اتخذت جدراناً لصف من الدور تمتد من البوابة الفوقا حتى البوابة التحتا في الشمال ، ويتجلى من آثار هذه الاسوار أنها أقيمت على عجل ، وأنه لم يراع في بنائهـا النظم المعمارية الحربية المتبعـة في التحصينات الضخمة التي أقيمت في عصر المماليك . ولم يتبق من البوابتين الفقيرتـين المتبقيتين من بوابات صيدا سوى منبتا عقديهما بالإضافة الى عضادتي كل منهما ، ويحتاج الامر الى دراسة تفصيلية دقيقة لبقايا التحصينات المملوكية بصيدا .

قلعة البحر

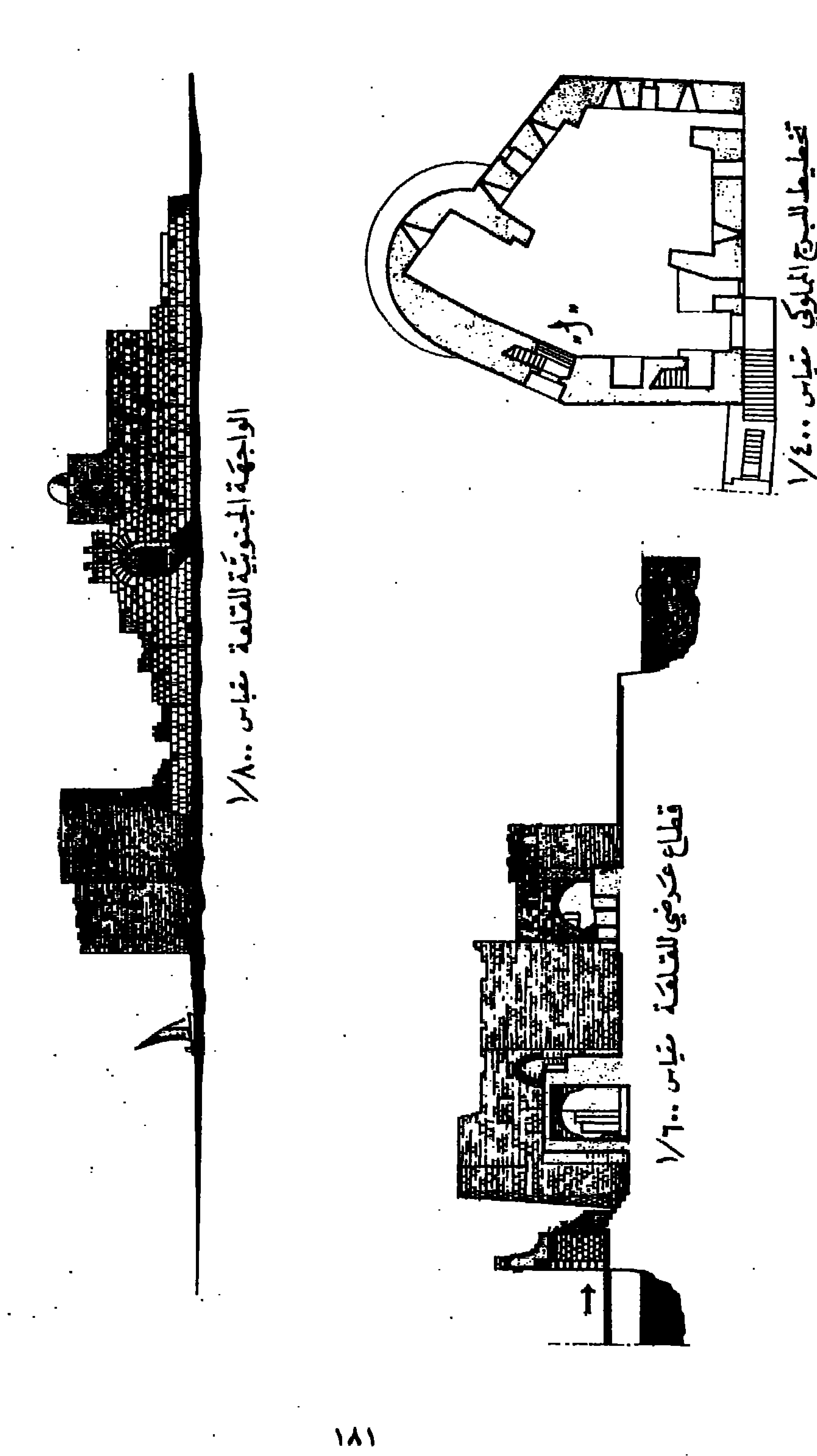
صيدا



تخطيط عام للقلعة مقياس ١/٨٠٠



قطاع طولي من الجهة الشمالية مقياس ١/٨٠٠



الواجهة الجنوبية للقلعة مقياس ١/٨٠٠

تخطيط البرج المملوكي مقياس ١/٤٠٠

قطاع عرضي للقلعة مقياس ١/٦٠٠

خاتمة

نهوض صيدا في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني

خاتمة

نهوض صيدا في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني

حسمت موقعة مرج دابق (رجب ١٥١٦/٩٢٢ م) مصير الشام ومصر فأصبحتا تابعتين للدولة العثمانية ، وأصبحت دمشق التي أسندت نيابتها إلى جان بردي الغزالي إيالة عثمانية تضم عشر سنجقيات ، من بينها صيدا . وزاد اضمحلال صيدا في العصر العثماني وفقدت أهميتها ، وأصبحت أقرب ما تكون الى القرية منها الى المدينة ، وقد اعتبرها صاحب الكواكب السائرة قرية عندما ترجم للشيخ كمال الدين محمد الخطيب ، سبط الشيخ البرهان الباعوني المتوفي في صيدا في ١٢ جمادي من سنة ٩٢٣ هـ[١].

وفي بداية العصر العثماني خرج الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين عن طاعة السلطان العثماني ، فاستولى جان بردي الغزالي على صيدا ، وفر الأمير ابن الحنش[٢] ، ثم قتل . فولى السلطان سليم الأمير محمد بن قرقماس على بيروت وصيدا بالاضافة الى التقدمة على بلاد البقاع ، وذلك في ٢٨ ذي الحجة سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)[٣].

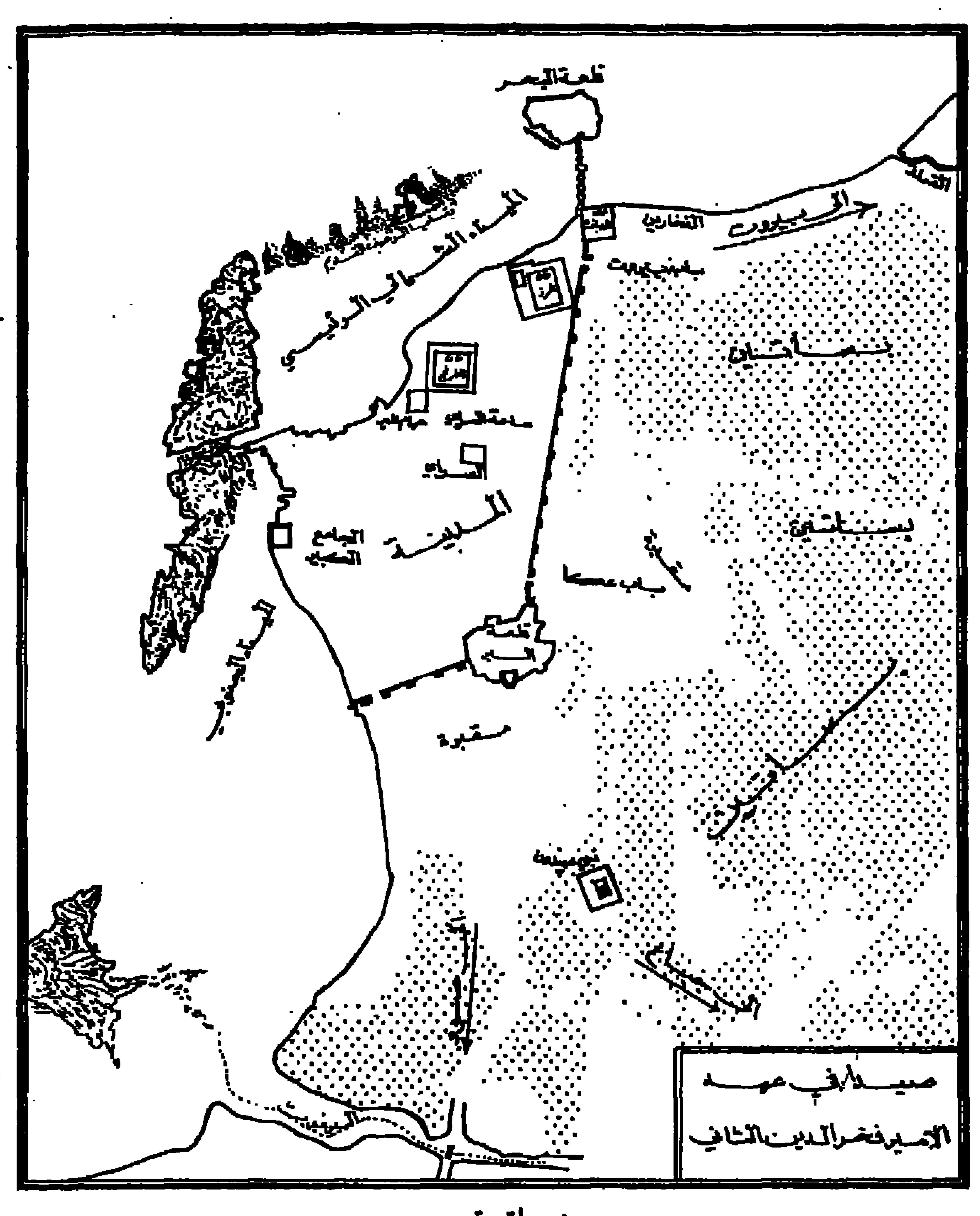
ثم أخذت الحياة تدب في صيدا من جديد منذ أن اتخذها الأمير

---

(١) الغزي ، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، تحقيق الاستاذ جبرائيل سليمان جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ ، ج ١ ، ص ٨٨

(٢) الشدياق ، ج ١ ص ٢٩٣ ، ج ٢ ص ٣٠٣

(٣) شمس الدين محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، قسم ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧٧



خريطة رقم ٤

فخر الدين المعني الثاني بن قرقماز بن فخر الدين الاول في سنة ١٥٩٤ حاضرة لإمارته ومقراً له . ولم تلبث إمارة الشوف التي يتولاها أن اتسعت بعد أن ضم إليها بيروت وكسروان لمدة عام واحد ، وذلك بعد انتصاره على يوسف باشا سيفا والي طرابلس في موقعة جرت عند نهر الكلب في سنة

١٥٩٨ ، ثم تركها له برضائه[١]. وفي فترة رحلته الى توسكانا بإيطاليا فيما بين عامي ١٦١٢ — ١٦١٧ م انتزع أحمد باشا الحافظ ولاية بيروت وكسروان من أتباع فخر الدين وسلمها الى حسين باشا بن يوسف سيفا ، كما أسند سنجقية صيدا الى ابن البستنجي . ولما عزل الحافظ من منصبه في أواخر سنة ١٦١٤ بعد صدور فرمان العفو عن فخر الدين ، أنعم چركس محمد باشا نائب دمشق الجديد على الامير يونس المعني ، شقيق فخر الدين ، بسنجقية صيدا وبيروت وبلدانها كما أنعم على الامير علي بن فخر الدين بسنجقية صفد في سنة ١٦١٤ . وعندما عاد فخرالدين من رحلته في ايطاليا عمد الى توسيع منطقة نفوذه ؛ ففي سنة ١٦١٨ استولى على جبيل وهدمها وولى عليها الشيخ أبا نادر الخازن[٢] ، وتمكن من استعادة عدة سنجقيات مثل صيدا وصفد ونابلس وبعلبك والبقاع وطرابلس وحوران وعجلون والكرك ، فاتسع سلطانه وأدخل في امارته أنواعاً جديدة من الزراعة كالتوت اللازم لتربية دود القز ، كما طوّر الصناعات ونشّط التجارة البحرية ، فكثرت موارده . وفي سنة ١٦٢٠ ، حاصر فخر الدين قلعة طرابلس وكاد ينتزعها من يوسف باشا سيفا[٣] ، وفي العام التالي ولاه محمد باشا الكرجي على جبيل والبترون وبشري والضنية وعكار بالاضافة الى امارة الشوف وسنجقية صيدا[٤]. ولم يمض على ذلك عامان (١٦٢٤) حتى أنعم عليه السلطان بولاية عربستان وتمتد من حدود حلب الى حدود العريش[٥]. وتلقب بلقب « سلطان البر » وهو اللقب الذي كان يحمله

(١) الدويهي ، ص ٢٩١ — عيسى اسكندر المعلوف ، ص ٦٩ ، ٧٠ — الشدياق ، ج ١ ص ٢٩٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٣١١ — عيسى المعلوف ، ص ١٧٧ ، ١٧٨

(٣) نفس المرجع ، ص ٣١٣ — عيسى المعلوف ، ص ١٨٠

(٤) الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخرالدين المعني ، تحقيق الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ١٩٦٩ ص ١٠١ — عيسى المعلوف ، ص ١٨١

(٥) الدويهي ، ص ٣١٨ — عيسى المعلوف ، ص ١٨٠

جـده فخر الدين الاول[1]. والى هـذه الفترة ترجع معظم منشآته وأعماله الداخلية ، فقـد شيد القصور وغرس الحدائق وأسس الفنادق ، وحصن القلاع ، ونهض بالزراعة والصناعة والتجارة ، وعقد المعاهدات التجارية مع قناصل الفرنج[2].

غير أن الدولة العثمانية لم تلبث أن ارتابت في نوايا الأمير فخر الدين بسبب سعيه المتواصل لتخليص الشام من السيطرة العثمانية واقامة دولة مستقلة ، بالإضافة الى ارتباطه بصلات سياسية مع بعض الدول المناهضة للدولة العثمانية ، فعمدت الى محاربته والقضاء عليه . وعهد السلطان مراد الى الوزير الكجك أحمد باشا بقيادة حملة هدفها القبض على الأمـير فخر الدين. وتم أسره في آخر جمادى الثـاني سنة ١٦٣٣ ، وحمل الى القسطنطينية مع ثلاثـة من أولاده هم منصور وحيدر وبلك وزوجاته الأربعة ، ثم قتل بأمر السلطان مراد هو وأولاده الثلاثة وزوجاتـه في ١٣ مارس سنة ١٦٣٥ .

وشهدت صيدا في عهد الأمير فخر الدين الثاني ازدهاراً لم تشهده منذ أيام الدولة الفاطمية ، فقد تهمم بها الأمير وخصّها بعنايته مذ اتخذهـا قاعدة لولايته ، وكانت صيدا قبل ذلك مجرد قرية صغيرة تقوم في نواحيها أطلال دارسة من تاريخها القديم والوسيط ، فعمل على تجديد رسومهـا وترميم ما عفى من أبنيتها وقلاعها وتحسين مرفئها وترويج تجارتها ، واهتم بتنمية مواردها عن طريق تنشيط الحركة التجارية وحمـاية التجار من القراصنة ، وتشجيع الصناعة وعلى الاخص صناعـة الحرير والصابون والصباغة[3] ، وربط صيدا تجارياً بتسكانا وغيرها ، وزودهـا بالفنادق

(١) المعلوف ، ص ١٨٨ – ابراهيم الاسود ، ذخائر لبنان ، ص ٢٣٥
(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٩
(٣) عيسى المعلوف ، ص ٩٠



البئر بخـــان الافرنج

والخانات لنزول تجـــار الافرنج . ومن أهم منشآت فخر الدين المدنية والاقتصادية : انشاء جسرين أحدهما على نهر الاولي من عقد واحد أقامه المهندس فرنسيسكو شيولي ، والثاني على نهر القاسمية[١] جنوبي صيدا ، بينها وبين بلدة الصرفند ، وانشاء الخانات لنزول التجار الاجانب وأهمها خان الافرنج أو الخان الفرنساوي الذي أصبح اليوم داراً لليتيمات تحت ادارة راهبات مار يوسف[٢] ، وخان الرز . كذلـــك أسس قصراً لم يستكمل بناؤه يقع بإزاء خان الافرنج ، وأسس قصوراً أخرى تحيط بها الحدائق والبساتين . ومن أهم منشآته المدنية أيضاً توسيعه لمرفأ صيدا ، وانشائه الحمام البراني المعروف بحمام المير . أما أعماله الحربية فتقتصر على ترميم قلعة البحر واقامة مسجد بها بقيت كثير من عناصره في وقتنـــا الحاضر . وقد اجتذبت هذه الانشاءات وما أجراه من تسهيلات ، التجار الاجانب وعلى الاخص التجار الفرنسيين[٣] . ولكن كل هذا الازدهـــار الذي نعمت به صيدا لمدة ثلاثين سنة لم يلبث أن غربت شمسه عندما طمر فخر الدين الميناء بالرمال والحجارة وحطـام السفن حتى يوعر على الاتراك الطريق الى اقتحامها بأساطيلهم[٤] .

ثم تولى على صيدا وبيروت بعد آل معن أحمد آغا الشمالي ، ولكنه لم يلبث أن قتل في أرض خلدة على يـد ابن علم الدين في سنة ١٦٣٨ ابان الصراع بين القيسية واليمنية[٥] ، ثم تسلمها محمـــد باشا الارناؤوط والي طرابلس الذي أسند حكمها الى زلفى آغا[٦] ، ثم ولي عليها محمد باشا الارناؤوط اسماعيل آغا[٧] .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٥٤ – يوسف مزهر ، ج ١ ص ٣٣٨ – فيليب حتي ، ص ٤٥٧
(٢) نفسه ، ص ٢٦٣
(٣) Frederick, p. 105, 106
(٤) عيسى المعلوف ، ص ٢٤٠ – Frederick p. 106 – مزهر ، ج ١ ص ٣٥٠
(٥) الدويهي ، ص ٣٣٨
(٦) نفسه ، ص ٣٤١
(٧) نفسه ، ص ٣٥٢

ومنذ سنة ١٦٥٨ أصبحت صيدا نيابة يتولاها الباشا ، فتولاهـا في سنة ١٦٦٠ علي باشا الدفتردار ، ولما عزل في سنة ١٦٦٢ تولاها محمد باشا الارناؤوط . وظلت كذلك ما يقرب من قرن ، ولكن المدينة اضمحلت اضمحلالاً شاملاً ، ولم تنهض من عثرتها الا بعد الاستقلال عندما أصبحت قاعدة جنوب لبنان .

كلمة شكر وتقدير

فاتني في ختام المقدمة أن أقدم شكري العميق وتقديري البالغ للمهندس نور الدين الشرفاء على تفضله بإعارتي التخطيطات والرسوم المتعلقة بقلعة صيدا البحرية ، وإلى الأخ الكريم أمين منيمنة على تفضله بتنفيذ الخرائط الجغرافية .

مراجع البحث

أولاً – المصادر العربية والمعربة :

١ – ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) :
كتاب الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر في ١٣ مجلد ، بيروت ، ١٩٦٥

٢ – الإدريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز) :
وصف فلسطين والشام من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره جوانيس جيلدميستر ، بعنوان Palaestina et Syria ، بون ١٨٨٥

٣ – الأصفهاني (العماد أبو عبد الله محمد بن صفي الدين) :
الفتح القسي في الفتح القدسي ، نشره الاستاذ محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥

٤ – الأنطاكي (يحيى بن سعيد) :
صلة تاريخ سعيد بن بطريق ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩٠٩

٥ – ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله) :
الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، ج ٩ ، تحقيق هانز روبرت رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠

٦ – البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي) :
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ، ج ٣ القاهرة ، ١٩٤٩

٧ – البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) :
كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٦

٨ – ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) :
رحلة ابن بطوطة ، المسماة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، طبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٠

٩ – ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزء ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨

١٠ — جوانفيل : القديس لويس :
رحلاته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٨
١١ — ابن حوقل النصيبي :
صورة الارض ، بيروت
١٢ — الخالدي (أحمد بن محمد الصفدي) :
تاريخ الامير فخرالدين المعني، تحقيق الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩
١٣ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بيروت ، المجلد الخامس
١٤ — الدبس (المطران يوسف) :
تاريخ سورية ، المجلد السادس ، بيروت
١٥ — الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) :
كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن ، ليبزج ، ١٩٢٨
١٦ — الدويهي (البطريرك اسطفانوس) :
تاريخ الازمنة ، تحقيق الاب فرديناند توتل اليسوعي ، بيروت ، ١٩٥١
١٧ — الدويهي (البطريرك اسطفانوس) :
تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ، ١٨٩٠
١٨ — الذهبي (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد) :
العبر في خبر من غبر ، تحقيق الاستاذ فؤاد سيد ، الكويت ، ١٩٦١
١٩ — الزبيدي (محمد مرتضى) :
تاج العروس
٢٠ — ابن الساعاتي (بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم الخراساني) :
ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق الاستاذ أنيس المقدسي ، بيروت ، ١٩٣٨
٢١ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، طبعة مصر ، ١٣٢١ هـ
٢٢ — أبو شامة (عماد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل) :
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦
٢٣ — ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) :
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول راڤيس، باريس، ١٨٩٤

٢٤ — ابن شداد (القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ، ١٩٦٤

٢٥ — ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبي) :
الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦ - ١٩٦٢

٢٦ — الشدياق (الشيخ طنوس بن يوسف) :
أخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، بيروت ، ١٩٥٤

٢٧ — صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت ، وهو أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت ، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي ، وكمال سليمان الصليبي ، طبعة دار المشرق، بيروت، ١٩٦٨

٢٨ — طافور :
رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٨

٢٩ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :
تاريخ الامم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، بيروت (بدون تاريخ)

٣٠ — ابن طولون الدمشقي (شمس الدين) :
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٢ - ١٩٦٤

٣١ — ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي) :
فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١

٣٢ — ابن عبد الظاهر (محيي الدين) :
تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١

٣٣ — ابن العديم الحلبي (كمال الدين أبو القاسم عمر) :
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامي الدهان ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٥١

٣٤ — العيني (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد) :
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، نسخة مصورة من مخطوطة أسطنبول ، محفوظة بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ (جزء ٢٥)

٣٥ — العيني :
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق الاستاذ فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٦٧

٣٦ ـــ الغزي (نجم الدين) :
الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، ٣ أجزاء ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت ، ١٩٤٥

٣٧ ـــ ابو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) :
المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩

٣٨ ـــ ابو الفداء :
تقويم البلدان ، تحقيق دي سلان ، باريس ، ١٨٤٠

٣٩ ـــ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :
تاريخ ابن الفرات ، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، الاجزاء : السابع والثامن والتاسع ، بيروت ، ١٩٣٩ — ١٩٤٢

٤٠ ـــ ابن الفقيه الهمذاني (ابو بكر احمد بن محمد) :
مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥

٤١ ـــ ابن القلانسي (ابو يعلى حمزة) :
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨

٤٢ ـــ القلقشندي (احمد بن علي) :
صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٥

٤٣ ـــ القلقشندي :
مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، ج٢ تحقيق الاستاذ عبدالستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤

٤٤ ـــ الكتاب المقدس :
العهد العتيق ، بيروت ، ١٩٦٠

٤٥ ـــ الكتاب المقدس :
الاناجيل الاربعة وأعمال الرسل ، بيروت ، ١٩٦٧

٤٦ ـــ ابن كثير الدمشقي (عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر) :
البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤ جزءاً ، بيروت ، ١٩٦٦

٤٧ ـــ المعلوف (عيسى اسكندر) :
تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ، ١٩٦٦

٤٨ ـــ المقدسي (شمس الدين ابو عبد الله محمد) :
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة دي غوية ، ليدن ، ١٩٠٦

٤٩ ـــ المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) :
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩

٥٠ — المقريزي :
اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا ، ج ١ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨
والقسم المخطوط ، صورة مصورة من مخطوطة مكتبة سراي أحمد الثالث باسطنبول محفوظة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، برقم ٢٠ م

٥١ — المقريزي :
السلوك لمعرفة دول الملوك ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية ، برقم ٤٥٥ تاريخ — وجزآن مطبوعان في ستة أجزاء ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ج١ قسم ٢٠١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ قسم ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ج ٢ القاهرة ١٩٤١

٥٢ — ابن منظور (جمال الدين محمد) :
لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥

٥٣ — ناصر خسرو (علوي) :
سفرنامة (بالفارسية) ، طبع برلين ، ١٣٤٠ ﻫ

٥٤ — النويري (شهاب الدين احمد) :
نهاية الارب في فنون الادب ، نسخة مصورة للمخطوطة ، محفوظة بدار الكتب المصرية ، ج ٣٠ ، رقم ٥٤٩ معارف عامة

٥٥ — النويري (محمد بن قاسم) :
الالمام بما جرت به الاحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية ، المقيدة برقم ١٤٤٩ تاريخ ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، برقم ٧٣٧ م

٥٦ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١

٥٧ — ابن الوردي (زين الدين عمر) :
تاريخ ابن الوردي المسمى « تتمة المختصر في أخبار البشر » ، جزءان ، بيروت ١٩٧٠

٥٨ — ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله بن عبد الله) :
كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا ، نشره فردناند وستنفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٦

٥٩ — ياقوت الحموي :
معجم البلدان ، خمس مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٦٠ — ياقوت الحموي :
معجم الادباء ، طبعة دار المأمون (بدون تاريخ)

٦١ — اليعقوبي (احمد ابي يعقوب جعفر) :
تاريخ اليعقوبي ، طبعة دار صادر، بيروت ، ١٩٦٠
٦٢ — اليعقوبي :
كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩٦
٦٣ — يني (جرجي) :
تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١

ثانياً — المراجع العربية الحديثة والأوروبية المعربة :

٦٤ — الأسود (ابراهيم بك) :
ذخائر لبنان ، بعبدا ، ١٨٩٦
٦٥ — ابو العينين (دكتور حسن) :
دراسات في جغرافية لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨
٦٦ — بسيسو (الأستاذ سليم) :
صيدا سيدة البحار وسيدة الدنيا ، مجلة العربي ، عدد ٤٨ ، تشرين ثاني ، ١٩٦٢
٦٧ — بطرس عبد الملك وچون الكسندر طمسن وابرهيم مطر :
قاموس الكتاب المقدس ، بيروت ، ١٩٦٤
٦٨ — الترك (الاستاذ غالب) :
لبنان في محافظاته ، محافظة الجنوب، من سلسلة محاضرات دار الندوة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦١
٦٩ — توفيق (دكتور عمر كمال) :
مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي ، الامبراطور حنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
٧٠ — توفيق :
تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
٧١ — حبشي (دكتور حسن) :
الشرق العربي بين شقي رحى ، القاهرة ، ١٩٤٩
٧٢ — حبشي :
الحروب الصليبية الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٧
٧٣ — حتي (دكتور فيليب) :
لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريحه والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩

٧٤ — خليفة (الاستاذ امين) :
تاريخ سوريا قبل الفتح الإسلامي ، بيروت ، ١٩٣٠
٧٥ — الخوري (الاستاذ منير) :
صيدا عبر حقب التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٦
٧٦ — دروزة (الاستاذ محمد عزة) :
العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري ، دمشق ، ج ١ ، ١٩٥٩
٧٧ — دوكوسو (جاستون) :
تاريخ الحرير في بلاد الشام ، مجلة المشرق ، السنة ١٥ ، بيروت ، ١٩١٢
٧٨ — رستم (دكتور اسد) :
تاريخ اليونان ، بيروت ، ١٩٦٩
٧٩ — رنسيمان (ستيفن) :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، ٣ مجلدات ، بيروت ، ١٩٦٧ — ١٩٧٠
٨٠ — زكي (دكتور عبد الرحمن) :
القلاع في الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ (ص ٤٩ — ٨٩)
٨١ — زيادة (دكتور نقولا) :
رواد الشرق العربي في القرون الوسطى ، القاهرة ، ١٩٤٧
٨٢ — زيادة :
مدن عربية ، بيروت ، ١٩٦٥
٨٣ — الزين (الاستاذ احمد عارف) :
تاريخ صيدا ، صيدا ، ١٣٣١ ه
٨٤ — سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :
المساجد والقصور في الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨
٨٥ — سالم :
المغرب الكبير ، الجزء الثاني : المغرب الاسلامي ، الإسكندرية ، ١٩٦٦
٨٦ — سالم :
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧
٨٧ — سالم :
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الطبعة الثانية، الاسكندرية، ١٩٦٩

٨٨ — سالم :
تاريخ العرب في العصر الجاهلي منـذ أقدم العصور حتى قيام الدولة العربية الاسلامية ، بيروت ، ١٩٧٠

٨٩ — سرور (دكتور محمد جمال الدين) :
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ، ١٩٥٩

٩٠ — سرور :
دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٠

٩١ — شهاب (الامير موريس) :
الاسكندر الأكبر في صيدا ، مجلة المشرق ، السنة ٢٧ ، بيروت ، ١٩٢٩

٩٢ — الشيال (دكتور جمال الدين) :
المجمل في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩

٩٣ — الصياد (دكتور فؤاد عبد المعطي) :
المغول في التاريخ ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٧٠

٩٤ — عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح) :
الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٣

٩٥ — العبادي (دكتور احمد مختار) :
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩

٩٦ — العبادي (دكتور أحمد مختار) وسالم (د. السيد عبد العزيز) :
تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩

٩٧ — العريني (دكتور السيد الباز) :
الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٥

٩٨ — العريني :
المغول ، بيروت ، ١٩٦٧

٩٩ — غلاب (دكتور محمد) :
الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ ، بيروت ، ١٩٦٩

١٠٠ — فريحه (دكتور انيس) :
أسماء المدن والقرى اللبنانية ، بيروت ، ١٩٥٦

١٠١ — كنعان (الاستاذ داود خليل) :
بيروت في التاريخ ، جزءان ، بيروت ، ١٩٦٣

١٠٢ — لامنس (الاب هنري) :
السواحل اللبنانية ، مجلة المشرق ، السنة السابعة عدد ٢٠
١٠٣ — لامونت (چون) :
الحروب الصليبية والجهاد ، مقال في « دراسات إسلامية » ترجمة الدكتور أنيس فريحه وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠
١٠٤ — ماجد (دكتور عبد المنعم) :
تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣
١٠٥ — مجدلاني (الاستاذ حليم) :
دليل صيدا الاثري
١٠٦ — مزهر (دكتور يوسف) :
تاريخ لبنان العام ، ج ١ ، بيروت
١٠٧ — المنجد (دكتور صلاح الدين) :
مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين ، بيروت ، ١٩٦٧
١٠٨ — ميخائيل (دكتور نجيب) :
مصر والشرق الادنى القديم ، ج ٣ : سورية ، الاسكندرية ، ١٩٦٤

ثالثاً — المراجع باللغات الأوروبية :

109 — ABEL :
Géographie de la Palestine, t. I, Paris, 1933.
110 — AHARONI (Y.) :
The Land of the Bible (a historical Geography), London, 1968.
111 — BARAMKI (Dimitri) :
Phœnicia and Phœnicians, Beirut, 1961.
112 — CAHEN (Claude) ;
La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, Paris, 1940.
113 — CAHEN :
Une chronique syrienne dn VI siècle : « le Bustan al Jâmi », extrait du Bulletin d'études orientales de l'Institut Français de Damas, t. VII, VIII.
114 — CONDÉ (Bruce) :
See Lebanon, Beirut, 1960.
115 — CHEIRA (M. A.) :
La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.
116 — CHAMI (Joseph Michel) :
De la Phénicie, Beyrouth. 1967.
117 — CHEHAB (Maurice) :
Rôle du Liban dans l'histoire de la soie, Beyrouth, 1967.

118 — DEMOMBYNES (Gaudefroy) :
La Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923.
119 — DESCHAMPS (Paul) :
La défense du Royaume de Jérusalem, Paris, 1939.
120 — Dictionnaire de la Bible, pub. Vigouroux, t. V, Paris, 1928.
121 — DOZY (R.) :
Supplément aux dictionnaires arabes, 2 Vols., Beirut, 1968.
122 — DUSSAUD (René) :
Un nom nouveau de verrier sidonien, dans Syria, t I, Paris, 1920.
123 — DUSSAUD :
Topographie historique de la Syrie antique et médievale, Paris, 1927.
124 — FEDDEN (Robin) :
Syria, London, 1954.
125 — FEDDEN & THOMSON :
Crusader Castles, London, 1957.
126 — FREDERICK CARL EISLEN :
Sidon, a study in Oriental history, New-York, 1907.
127 — GIBBON (Ed.) :
The history of the decline and fall of the Roman Empire, London, 1903.
128 — GROUSSET (Réné) :
Histoire des Croisades, 3 vol., Paris, 1934-1936.
129 — HARDEN (Donald) :
The Phœnicians, London, 1963.
130 — HÉRODOTUS ;
t. III, Book VII, trans. Godley, London, 1963.
131 — HEYD (W.) :
Histoire du Commerce du Levant, t, I, Leipzig, 1936.
132 — Hill (G. Francis) :
Catalogue of the Greek coins of Phœnicia, London, 1910.
133 — HOMÈRE :
Iliade, trad. Paul Mazon, t. IV, Paris, 1938.
134 — KING (E. J.) :
The Knights of Hospitallers in the holy Land, London, 1931.
135 — LAMMENS (H.) :
La Syrie : Précis historique, 2 tomes, Beyrouth, 1921.
136 — MARMARDJI (O. P.) :
Textes géographiques arabes sur la Palestine, Paris, 1951.
137 — MARVIN LAPIDUS (Ira) :
Muslim cities in the later middle ages, Cambridge, 1967.
138 — MICHAUD :
Histoire des Croisades, vol. IV, Paris, 1822.
139 — MÜLLER-WIENER (Wolfgan) :
Castles of the Crusaders, New-York, 1966.

140 — PLINY :
Natural history, Vol. X, Libri XXXVI, ed. E. Eichholz, London, 1962.

141 — POIDEBARD et LAUFFRAY :
Sidon : aménagements antiques du port de Saïda, Beyrouth, 1951.

142 — Recueil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux, 4 vols.

143 — REY (R.) :
Les colonies franques de Syrie aux XIIe. et XIIIe. siècles, Paris, 1883.

144 — RICHARD (J.) :
Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine, Paris, 1945.

145 — ROBINSON :
Biblical researches in Palestine, 2d edition.

146 — ROUSSET (R.) :
Histoire des Croisades, Paris 1957.

147 — SAUVAGET (J.) :
Un relais du Barîd Mamelouk, dans Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Le Caire, 1935.

148 — SCHULIM (Ochser) :
Sidon, in : The Jewish Encyclopaedia

149 — SEEDEN (Helga) :
Coastal Lebanon ; The ancient Sea-Ports of Phœnicia, in Cultural Resources in Lebanon, Beirut, 1969.

150 — STEVENSON (W. B.) :
The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

151 — LE STRANGE (Guy) :
Palestine under the Moslems, Beirut, 1965.

152 — STRABO
The Geography of Strabo, trans. Horace Leonard Jones, London, 1961.

153 — SURIAL (A. A) :
The Crusade in the later Middle age, London, 1938.

154 — ZIADA (M. M) :
The Mamluk conquest of Cyprus, Bulletin of the Faculty of arts, Univ of Egypt, vol. I, Part I, May 1933.

فهرس الأعـــلام

الفهرس

الفصل الثالث

صيدا في عصر الحروب الصليبية

الفصل الرابع

صيدا في عصر المماليك

خاتمة

(Sâhât) relativement vastes aidaient à laisser infiltrer les rayons du soleil et la lumière dans les ruelles ombreuses.

CONCLUSION

LE DERNIER ÉCLAT DE SAIDA

J'ai terminé l'ouvrage par une étude sommaire de Saïda sous l'émirat de Fakhr al Din II (1572-1635) qui la choisit en 1594 comme métropole, et fit ressusciter sa gloire et sa splendeur, en la dotant de murailles, de palais aux allées plantées de rosiers, de cedratiers et d'orangers, de bains publics, de Khâns et d'autres sortes de constructions.

Saïda connut sous le court règne de cet émir une ultime splendeur, semblable aux derniers feux du soir qui précèdent le crépuscule et rendent plus profondes les ombres de la nuit ; car, peu après sa mort, elle entra dans une longue décadence qui durait encore, lors de l'indépendance du Liban.

E. Salem

étude comment le sultan Khalîl reconquit Saïda et fit démolir au ras du sol ses fortifications à la suite de la Reconquête, et comment la ville subissait les agressions de pirates cypriots et gênois au cours du XIVème et XVème siècles, raison pour laquelle le gouverneurs de Saïda tâchèrent de la doter de nouvelles fortifications pour faire face aux dites incursions.

J'ai procedé à l'étude d'une grande tour musulmane datant selon mon hypothèse de 752 de l'Hégire (1361). Selon l'inscription arabe sculptée dans la dalle de marbre blanc, encastrée au-dessus de la fenêtre ouverte dans le mur nord-est de la dite tour, la construction de celle-ci est l'œuvre d'un certain Galbân al-Zâhirî. D'autres caractéristiques purement mameloukes nous incitent à situer la construction de cette tour au XIVème siècle comme le suggèrent l'arc qui surmonte la dite fenêtre, les voûtes d'arêtes qui couvrent les deux étages de la tour et le type de meurtriers ouverts dans les murs de cette tour donnant sur la mer.

Rien d'autre ne subisiste de Saïda à l'époque des Mamelouks. En dépit de multiples remaniements amenés à la construction du château franc de Saint Louis qui révèlent des travaux de caractère hétérogène et de nature difficile à déterminer, j'ai essayé de délimiter les éléments architecturaux musulmans.

Saïda garde encore aujourd'hui le parfum de son passé médieval répresenté par le réseau des venelles étroites au tracé sinueux interrompues d'un intervalle à l'autre par de démi-arcs ou couvertes de voûtes d'arêtes ou en berceau. La plupart de ces venelles conduisent à la côte de Saïda. Elles servaient autrefois de faciliter la défense de la région contre les ennemis, car la vie à l'intérieur de la venelle repondait à merveille aux besoins de sécurité d'une population maritime menacée presque toujours par les ennemis. Dans ce dédale de rues, de venelles et d'impasses, des carrefours

musulman. La ville demeura sous la domination franque jusqu'à l'an 1187, date qui marque la réoccupation musulmane par Saladin.

Sous la domination franque Saïda allait tomber en décadence, mais elle ne cessait guère de se montrer comme une base importante pour les opérations que les Francs effectuaient contre les autres villes musulmanes. Elle participa au blocus naval des Croisés contre Tyr en 1112, aux attaques menés par les troupes de ceux-ci contre Damas en 1152 et à la chute de la ville d'Ascalan en 1154.

Saïda vit ériger sous la domination franque deux châteaux militaires : l'un construit en 1228 sur un ilôt situé à peu de distance de la côté, et l'autre bâti par Saint Louis, roi de France en 1253. Elle vit également de nouveaux remparts constitués par des murs principaux précedés par des avant-murs et un fossé. Ces murailles renfermaient le foyer urbain de Saïda, devenu très restreint depuis que les Musulmans sous les Nourides et ensuite sous les Ayyoubides se mirent à harceler les Croisés et à attaquer Saïda.

Mais les fortifications furent exposées maintes fois à la destruction soit par les Musulmans, soit par les Mongols. Ceux-ci attaquèrent la ville en 1260 et firent détruire ses murailles et le château de Saint Louis.

En 1291, l'occupation franque de Saïda prit fin, grâce à la guerre de libération engagée par le sultan mamelouk al-Malik al-Ashraf Khalîl b. Qalâwôn.

CHAPITRE 4ème

SAIDA A L'ÉPOQUE DES MAMELOUKS

J'ai consacré ce dernier chapitre à l'étude de l'histoire de Saïda à l'époque des Mameluks. J'ai signalé dans cette

étude comment le sultan Khalîl reconquit Saïda et fit démolir au ras du sol ses fortifications à la suite de la Reconquête, et comment la ville subissait les agressions de pirates cypriots et gênois au cours du XIVème et XVème siècles, raison pour laquelle le gouverneurs de Saïda tâchèrent de la doter de nouvelles fortifications pour faire face aux dites incursions.

J'ai procedé à l'étude d'une grande tour musulmane datant selon mon hypothèse de 752 de l'Hégire (1361). Selon l'inscription arabe sculptée dans la dalle de marbre blanc, encastrée au-dessus de la fenêtre ouverte dans le mur nord-est de la dite tour, la construction de celle-ci est l'œuvre d'un certain Galbân al-Zâhirî. D'autres caractéristiques purement mameloukes nous incitent à situer la construction de cette tour au XIVème siècle comme le suggèrent l'arc qui surmonte la dite fenêtre, les voûtes d'arêtes qui couvrent les deux étages de la tour et le type de meurtriers ouverts dans les murs de cette tour donnant sur la mer.

Rien d'autre ne subisiste de Saïda à l'époque des Mamelouks. En dépit de multiples remaniements amenés à la construction du château franc de Saint Louis qui révèlent des travaux de caractère hétérogène et de nature difficile à déterminer, j'ai essayé de délimiter les éléments architecturaux musulmans.

Saïda garde encore aujourd'hui le parfum de son passé médieval répresenté par le réseau des venelles étroites au tracé sinueux interrompues d'un intervalle à l'autre par de démi-arcs ou couvertes de voûtes d'arêtes ou en berceau. La plupart de ces venelles conduisent à la côte de Saïda. Elles servaient autrefois de faciliter la défense de la région contre les ennemis, car la vie à l'intérieur de la venelle repondait à merveille aux besoins de sécurité d'une population maritime menacée presque toujours par les ennemis. Dans ce dédale de rues, de venelles et d'impasses, des carrefours

musulman. La ville demeura sous la domination franque jusqu'à l'an 1187, date qui marque la réoccupation musulmane par Saladin.

Sous la domination franque Saïda allait tomber en décadence, mais elle ne cessait guère de se montrer comme une base importante pour les opérations que les Francs effectuaient contre les autres villes musulmanes. Elle participa au blocus naval des Croisés contre Tyr en 1112, aux attaques menés par les troupes de ceux-ci contre Damas en 1152 et à la chute de la ville d'Ascalan en 1154.

Saïda vit ériger sous la domination franque deux châteaux militaires : l'un construit en 1228 sur un ilôt situé à peu de distance de la côté, et l'autre bâti par Saint Louis, roi de France en 1253. Elle vit également de nouveaux remparts constitués par des murs principaux précedés par des avant-murs et un fossé. Ces murailles renfermaient le foyer urbain de Saïda, devenu très restreint depuis que les Musulmans sous les Nourides et ensuite sous les Ayyoubides se mirent à harceler les Croisés et à attaquer Saïda.

Mais les fortifications furent exposées maintes fois à la destruction soit par les Musulmans, soit par les Mongols. Ceux-ci attaquèrent la ville en 1260 et firent détruire ses murailles et le château de Saint Louis.

En 1291, l'occupation franque de Saïda prit fin, grâce à la guerre de libération engagée par le sultan mamelouk al-Malik al-Ashraf Khalîl b. Qalâwôn.

CHAPITRE 4ème

SAIDA A L'ÉPOQUE DES MAMELOUKS

J'ai consacré ce dernier chapitre à l'étude de l'histoire de Saïda à l'époque des Mamelouks. J'ai signalé dans cette

De même les sarcophages, richement sculptés de beaux reliefs humains tel que celui d'Alexandre le Grand, révèlent par la finesse des sculptures un degré très élevé de l'art sculptural classique.

La ville elle même, très peuplée, atteignit un développement urbain exceptionnel, grâce à l'activité commerciale de son peuple et à l'éfficacité de ses trois ports. Le commerce maritime, tant intercontinental qu'avec l'Occident méditerranéen y fut intense, et les produits de ses industries prospères de soieries purpulines et de verreries dépassèrent les frontières de la Phénicie et gagnèrent le monde méditerranéen.

Sidon conserva sa splendeur et son prestige encore sous la domination perse, jusqu'à son suicide en 346 A. J. pour éviter la vengeance du roi Perse Ochus : ses habitants préférèrent mourir incendiées dans leurs demeures que décapités par les sabres des Perses. C'est ainsi que quarante mille personnes trouvèrent la mort volontairement. Sidon fut alors abandonnée à son triste sort ; ses palais furent détruits, le flambeau de sa prééminence s'éteignit et elle perdit presque pour toujours sa grandeur. Elle céda désormais sa superiorité à Tyr.

Sidon, malgré la série de malheurs qu'elle subit, essaya de se maintenir à l'époque des Selucides, successeurs d'Alexandre. C'est grâce à la tenacité de sa population et à leur activité commerciale et industrielle qu'elle vit sous les Selucides et les Romains un nouvel essor urbain, mais moins florissant qu'auparavant.

2ème CHAPITRE

SAIDA A LA PREMIÈRE ÉPOQUE MUSULMANE (DÈS LA CONQUÊTE ARABE A LA CONQUÊTE FRANQUE)

J'ai consacré le deuxième chapitre à l'étude de l'histoire de Saïda à la première époque musulmane : la période qui

CONTRIBUTION A L'ETUDE DE L'HISTOIRE DE SAIDA A L'ÉPOQUE MUSULMANE

(UN BREF EXPOSÉ)

ÉTUDE PRÉLIMINAIRE

Dans cette recherche je me suis borné à traiter d'abord de la situation géographique de la ville de Saïda et à détacher le rôle si important qu'elle jouait au cours de son histoire, les hypothèses concernant l'origine du nom de Saïda et enfin sa physionomie à travers l'histoire antique et médievale.

I^er CHAPITRE

HISTOIRE ANTIQUE DE SAIDA

Ce premier chapitre est consacré à une étude extrêmement résumée de l'histore de Saïda, dès origines jusqu'à la conquête arabe, l'accent étant surtout mis sur son rôle comme ville marchande et industrielle.

Saïda, ou plutôt Sidon de la Phénicie, dont le renom retentissait dans le monde antique et médieval, fut la ville la plus ancienne de la côte phénicienne et une de cités les plus florissantes de l'antiquité. Elle fut le berceau d'une vie raffinée, la source d'une culture splendide, la patrie des philosophes et des poètes ainsi que le foyer des arts. Ses rois l'embellirent et la dotèrent des monuments les plus séduisants de l'art phénicien dont témoignent encore les vestiges assez restreints de ses temples qui subsistent jusqu'à nos jours.

HISTOIRE DE SAIDA A L'ÉPOQUE MUSULMANE

PAR

Dr. ELSAYED ABDEL AZIZ SALEM

PROFESSEUR D'HISTOIRE ET DE CIVILISATION MUSULMANES
A L'UNIVERSITÉ D'ALEXANDRIE